

المملكة العربية السعودية  
وزارة التعليم العالي  
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية  
كلية الدعوة والإعلام  
الدراسات العليا  
قسم الدعوة والاحتساب

# الإمام الذهبي

## وجهوده في الدعوة إلى الله تعالى

بجث مقدم لنيل درجة الماجستير

إعداد الطالبة

راضية بنت حافظ تركستاني

إشراف

الدكتور / مصطفى بن مصطفى صيام

عضو هيئة التدريس بقسم الدعوة والاحتساب

العام الجامعي ١٤٢٠هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## شكر وتقدير

الحمد لله أولاً وأخيراً ، والشكر لله على توفيقه وامتنانه وفضله ، إذ لولاه عز وجل لما كان لي أن أنجز هذا العمل ، فله الشكر الذي يليق بجلاله وكبريائه .... وبعد :

إنطلاقاً من قول الرسول - ﷺ - « من أسدى اليكم معروفاً فكافئوه ، فإن لم تجدوا ما تكافئوه به فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه »<sup>(١)</sup> .

ومن هذا المنطلق اتقدم بشكري الجزيل واعترافي بالجميل إلى والدتي التي كانت سبباً في نجاحي وسيرري على هذه المحبة منذ نعومة أظفاري ، أسأل الله تعالى أن يجزيها عني خيراً جزى به والدأ عن ولده .

وأنتقل بعد ذلك بالتعبير عن عميق شكري وعرفاني لفضيلة الدكتور / مصطفى صيام الذي قبل مشكوراً الإشراف على هذه الرسالة، فقد كان لي أباً رحيماً وناصحاً أميناً، بل موجهاً كريماً فبارك الله له في وقته وصحته ، وقد كانت لتوجيهاته السديدة وإرشاداته القيمة أثر كبير في مواظبة السير في جنبات هذا البحث ، شكر الله له هذا وجزاه عني خير الجزاء .

ولا يفوتني أن أشكر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية والقائمين عليها مديراً وعمداء وموظفين وأخص بالشكر كلية الدعوة والإعلام متمثلة في عميدها . وأسأتذتها الكرام . بارك الله لهم في جهودهم وعطاؤهم المتواصل .

كما اشكر كل من اعانني برأي أو مشورة أو عمل من اساتذة وأخوان كنت قد انقلت عليهم حتى خرجت هذه الرسالة بالصورة التي هي عليها الآن . والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

داعية لنفسي وللجميع بصلاح النية وقبول العمل والمزيد من التوفيق والسداد .

---

(١) رواه أبو داود . ٢٨٩/١ . وقال العجلاني في كشف الغطاء (٢/٢٩٤) إسناده صحيح - ج ٢ ، ١٣٩٩ هـ . مؤسسة الرسالة بيروت .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعيه ونستغفره ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

ويعد :

فإن من أكبر نعم الله علينا أن حفظ هذا الدين برجال مخلصين ، وأئمة يقتدى بهم وهم العلماء العاملون الذين كانوا أعلاماً يهتدى بهم وأنواراً تنقشع بهم غياهب الظلم، فهم السياج المتين الذي حال بين الدين وأعدائه، والنور المبين الذي يضيء للحائرين عند اشتباه الحق وخفائه، وهم ورثة الأنبياء فليس في الأمة كمثلهم ناصحاً مخلصاً يعلمون أحكام الله ويعظون عباد الله ويقومونهم لما به الخير والصلاح فهم الزعماء المصلحون ، وقادة الفكر والرأي الذين لا يستغنى عنهم أحد في كل زمان ومكان مهتدين بهدي نبيهم عليه الصلاة والسلام ومخلصين في ذلك لوجه ربهم الكريم .

وقد نذر القرن الثامن الهجري بأعلام اختاروا طريق الدعوة إلى الله تعالى وخدموا دين الله بطرق شتى، وقد عنيت في هذا البحث بجمع ودراسة جهود أحد الأعلام البارزين في مجال خدمة الإسلام. وحيث أنني لم أكن أعرف ما فيه الكافية عن الإمام الذهبي وجهوده في الدعوة إلى الله ، شأنني شأن الكثيرين من طلبة العلم في هذا العصر ، فعشرات بل مئات من الشخصيات الإسلامية ذات التأثير القوي في مجتمعاتها، والتي نلمس فيها أكثر من جانب للقدوة الحسنة، لا تزال في قوائم الإغفال وأدراج النسيان .

ولو لم يكن من فوائد هذه الدراسات إلا أنها تعرف بهؤلاء الأعلام، وتبين معالم القدوة

في سلوكهم وحياتهم وتدل على تراثهم وأثارهم لكان ذلك كافياً .

ونظراً لتطلعي إلى الوقوف على سيرة هذا الإمام فإنه كان لابد لي من دراسة شخصيته والكشف عن مواهبه وأسرار عبقريته ، وذلك على ضوء الأعمال التي قام بها ، والتي جعلت منه شخصية جديرة بالاهتمام والحب والاحترام .

ولذا فقد صاحبت في العصر الذي عاش فيه ، وتعرفت على الظروف والبيئة التي نشز فيها ، ولازمته ملازمة تلميذة لشيخها ، وأنا أقرأ ما خلفه من تراث وما تركه من علوم نافعة وكثيراً ما كنت أعيش في جوها وأعجب بها .

### أسباب اختيار الموضوع ،

وقد كان وراء إختياري لشخصية الإمام الذهبي- رحمه الله- موضوعاً لدراستي عدة أسباب لعل من أهمها :

١ - أنها شخصية جمعت فنوناً كثيرة من المعرفة والعلم ، وطرقت أبواباً مختلفة في التصنيف فهو محدث لا يشق له غبار في علم الحديث والرجال وهو ناقد لامع بشهادة جهاذة العلماء وأعماله في الجرح والتعديل من أجل الأعمال وأنفسها ، وهو كذلك مؤرخ سجل لنا تاريخ عصره مضافاً إلى أحداث العصور السابقة ، ولم يغفل الحديث عن أساس بناء عقيدة المسلم ففي مجال العقيدة أوفى وأبدع وهو مع كل هذا داعية عريق استحکم حلقات هذا الطريق .

٢ - لم أجد رسالة جامعية تبرز مكانته كداعية مع جهوده في هذا الباب وإمامته في ، كما لم أر من جمع إفاداته المنثورة في مؤلفاته ورسائله وتقويبها لطلبة العلم ليهتدي بها الدعاة إلى الله تعالى والعاملون في مجال خدمة الدعوة الإسلامية ، فلما رأيت هذه الشخصية بهذه المكانة العلمية العظيمة التي تشهد لها جهودها في خدمة الدعوة درساً وتدریساً ونقداً وتاريخاً وشرحاً وبياناً، رزيت في نفسي رغبة قوية لأن أنخرط

في سلك من خدم علم الذهبي بخدمة هذا الجانب المهم من حياته .

٣ - قضى الإمام الذهبي رحمه الله ثمانية عشر عاماً من عمره يخطب في الناس، وإذا كان القدر قد قضى بأن تكون كل خطب هذا الإمام ومواعظه مفقوده وضائعة مع ما ضاع من الكثير من الكتب، فإن آرائه المتميزة التي تخدم الدعوة والخطباء مبعثرة في ثنايا كتبه، فإذا جمعت ما وصل إلى من جوده الدعوية في مؤلف واحد أكون قد سدّدت - إن شاء الله - جزءاً من الثغرة المتمثلة في عدم العثور على خطبه التي تخدم الدعوة ومواعظه التي ألقاها على الناس في الجامع الكبير بكفر بطنا مدة ثمانية عشر عاماً ، ولعل الشيخ على عادة أهل زمانه لم يسجل ما كان يلقيه مشافهة .

٤ - أن الذهبي يعتبر أنموذجاً لجماعة العلماء الذين خدموا الدعوة إلى الله تعالى بأساليب وطرق مختلفة فأحببت دراسة جهود هذا الإمام لأخرج بصورة واضحة عن كيفية الاستفادة من الجهود السابقة للعلماء ، وإن لم تضمّن تحت مسمى الدعوة، فالإطلاع على هذه الجهود يظهر لنا منهجه في الدعوة وكيف أنه يتسفل كل موقف ، فلا تخلو مؤلفاته من نصح ووعظ وإرشاد وأمر بمعروف ونهي عن منكر ، ومن البديهي أن الإطلاع على ذلك يغني الداعية ويفتح له آفاقاً في تنوع خدمة الدعوة الإسلامية .

فأحببت أن أثبت أنه من الممكن للداعية أن يخدم الدعوة في جميع المجالات .

٥ - إن التعرف على جهود الإمام الذهبي وأعماله العظيمة في خدمة الدعوة الإسلامية لا يتأتى إلا بعد الإطلاع على مؤلفاته وهذا له بالغ الأثر لما له من فائدة علمية لا تخفى ، فيرفع من المستوى العلمي والفكري للباحثة، ويقدر ما يفيد القارئ علماً ومعرفة يؤثر على سلوكه وأخلاقه نحو الأفضل والأحسن ، أسأل الله تعالى أن أكون كذلك .

هذا فيما يتعلق بأسباب إختياري للموضوع

## الصعوبات التي واجهتني

وقد واجهتني صعوبات كثيرة، فالله يعلم أن هذا البحث قد استنفذ مني الطاقة وبلى مني الجهد، فأول الصعوبات ما يخص المادة العلمية وتوفيرها فقد بدأت بجمع المادة حتى قاربت على الإنتهاء، وبعد كتابة فصل كامل، شاء الله أن تضيق مني وأنتقل إلى مكان أعجز فيه عن الحصول عليها، فاضطرت إلى العودة إلى المصادر مرة أخرى، وبعد أن أكدت أنتهي من البحث قدر الله أن ينتهي عمل الأستاذ المشرف على الرسالة بالمملكة، وبعد تغير المشرف كان هناك من التوجيهات التي من ضمنها توثيق المادة العلمية، مما جعلني أرجع ولثالث مرة إلى هذه الكتب باختلاف طبعاتها، وهذه واحدة من الصعاب التي واجهتني منذ بداية طريقي في هذا البحث الذي بدأت بحماس شديد، ثم قدر لي الله أن أعيش ظروفًا وصعابًا جمة جعلت من الإنتهاء من هذا البحث أمراً شائكاً .

ولولا الله تعالى ثم العزم والحزم والهمة والصبر الذي عاهدت الله عليه في طلب العلم، والاحتساب الذي يوجب الرضى بما حل من القضاء والقدر ولولا التشجيع المستمر الذي سلكه معي المشرف الجديد جزاه الله عني خير الجزاء وأجزل له العطاء، وتشجيع كل من يعرفني من الاساتذة الفضلاء بأنها صعاب وستنتهي وستكون هذه الرسالة مفتاحاً لمواصلة العلم بإذن الله، لولا كل ذلك لما استطعت مواصلة هذا البحث الذي قدر الله أن يوافق شدائد أخرى لا يعلمها إلا هو سبحانه، هذا والفضل لله تعالى أولاً وأخيراً الذي يسر وسهل وأعان أسأله عز وجل أن يسبغ علي من فضله وأن يمدني بمدده وأن يشملني بلطفه وكرمه وأن يتقبل مني هذا الجهد المتواضع في ربراز عمل رجل من رجالات الدعوة الإسلامية الذين خدموا هذا الدين أجل وأعظم خدمة وأن يجعله في ميزان حسناتي يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

## منهجي في البحث ،

أما ما يتعلق بمنهجي وطريقتي في إعداد هذه الرسالة فبعد اختيار هذا الموضوع غرضاً لدراستي قمت باستفراغ وسعي وبذل جهدي ووقتي في البحث عن مؤلفات الإمام الذهبي حيث قمت بقراءة ما وصل إلي منها حتى أتبين من خلالها الجهد الذي قام به الذهبي في خدمة هذه الدعوة، على أنني قمدت بين يدي هذه الدراسة لمحة تاريخية عن عصره وحياته، بعد الإطلاع على المؤلفات التي تحدثت عن ذلك العصر وجمع كل ما ألف عن الإمام الذهبي وحياته .

ومن الجدير بالذكر أن انتقائي لبعض آراء الذهبي لم يكن عشوائياً بل بذلت في ذلك جهداً من أجل الوصول إلى ما يخدم الدعوة من خلال مؤلفاته العظيمة، فكان منهجي استنباطياً من خلال قراعتي لمؤلفات الإمام الذهبي وجمع كل ما له صلة بالجهود الدعوية مثل الوعظ والإرشاد والخطابة والتذكير والاحتساب بعد معاودة النظر مراراً وتكراراً بتروياً وأناة وتأمل في كلام ذلكم الإمام وتعليقاته التي يتميز بها والتي تبرز جانب الدعوة في شخصيته رحمه الله رحمة واسعة .

وقد قسمت بحثي هذا إلى تمهيد خمسة فصول وخاتمة حسب الآتي :

## التمهيد ،

وتناولت فيه دراسة عصر الإمام الذهبي والظروف التي كانت سائدة في زمنه .

وأما الفصول الأربعة فكان ترتيبها كالاتي :

## الفصل الأول ،

السيرة الذاتية للإمام الذهبي ، وتحت هذا الباب ثلاثة مباحث رئيسية وهي :

المبحث الأول : اسمه ونسبه .

المبحث الثاني : مولده ونشأته .

المبحث الثالث : وفاته وثناء الناس عليه .



## الفصل الثاني :

جهود الإمام الذهبي في التدريس والتأليف ، وتحت هذا الفصل نقلت الوظائف التي اعتلاها الإمام وحصرت ما وصل إلى علمي من آثاره ، وجاء ترتيب مباحث هذا الباب كالآتي :

المبحث الأول : جهوده في التدريس .

المبحث الثاني : جهوده في التأليف .

## الفصل الثالث :

جهود الإمام الذهبي في التدريس والتأليف ، وعنيت في هذا الفصل بجميع دروس الإمام ومؤلفاته ، وقد احتوى هذا الفصل على مبحثين :

المبحث الأول : جهوده في التدريس .

المبحث الثاني : جهوده في التأليف .

## الفصل الرابع :

جهود الإمام الذهبي في الوعظ والاحتساب ، وعنيت في هذا الفصل بجميع كلمات الإمام الوعظية وبعض جهوده في بيان المنكر ، وقد احتوى هذا الفصل على مبحثين :

المبحث الأول : جهود الإمام في الوعظ .

المبحث الثاني : جهود الإمام في الاحتساب .

هذا وإني لأرجو من الله جلت قدرته أن يجعل الصواب، كل الصواب، فيما اخترته وارتضيته فما أصعب أن يقفل مثلي في ميدان هذا العلم الذي يغص بفضائله وفحول العلماء من الأساتذة مدلية بصوتها بين أصواتهم إلا أن يحيطها الله بعون وتوفيق منه عز وجل .

## وختاماً:

فإني لا أدعي أنني قد بلغت فيه الغاية ، غير أنني أقر بأن ذلك مبلغ علمي وغاية جهدي - وهو جهد المقل - فإن كنت قد وفقت فذلك من الله تعالى وأشكره وأحمده حمداً كثيراً، وإن كنت قصرت فيه أو في بعضه فإن ذلك مني ومن الشيطان وأسأل الله أن يغفر لي وأن يزيدني وأنيرزقني علماً نافعاً وعملاً صالحاً متقبلاً وصلى الله على نبيينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

الباحثة

# الفصل التمهيدي

﴿ الأحوال السائدة في عصر الإمام الذهبي ﴾  
ويشتمل على أربعة مباحث

- المبحث الأول : الحالة السياسية في عصر الإمام الذهبي .
- المبحث الثاني : الحالة الدينية في عصر الإمام الذهبي .
- المبحث الثالث : الحالة الاقتصادية والاجتماعية في عصر الإمام الذهبي .
- المبحث الرابع : الحالة العلمية في عصر الإمام الذهبي .

# الفصل التمهيدى

## « الأحوال السائدة في عصر الإمام الذهبى »

تمهيد .

لكل عصر أحوال تسوده، وتؤثر فيه على الناس ، فارتباط الإنسان بالوسط الذي يعايشه والأحداث التي تمر به أمر لا يملك له دفعا، فهو يتأثر بها نفسياً واجتماعياً وعلمياً. ومن الضروري عند دراسة شخصية ما ذكر الوامل التي أثرت في تكوينه الفكري والثقافي والتي تنحصر غالباً في بيئتين، بيئة خاصة وهي أسرته، وسأتحدث عنها إن شاء الله تعالى في مكانها من البحث ، وبيئة عامة وهي المجتمع الذي يحيط بتلك الشخصية نظماً وقوانين وأحوالاً وأعرافاً وسلوكاً وأخلاقاً .

وأعني بدراسة العصر أو البيئة التي عاشها الإمام الذهبى تلك الأوضاع السياسية والعلمية والاجتماعية والدينية، التي تؤثر في حياة الإنسان، حيث يتكيف معها ويتأثر بها، لذا فإنه لا بد من ذكر لمحة موجزة عن هذه الأوضاع في تلك الحقبة الزمنية التي عاش فيها الإمام الذهبى .

وهي فترة من أخرج الفترات وأصعبها في حياة الأمة الإسلامية؛ حيث جمعت بين المتناقضات من صلاح وفساد، ووحدة وتمزق، وتضحية وأثرة، وعز وذل، وغنى وفقر، وعلم وجهل، فكان عصرأ له أهميته التاريخية في جميع المجالات وذلك يتضح من خلال حديثنا عن تلك الأحوال التي سادت في ذلك العصر من الناحية السياسية والاجتماعية والدينية والعلمية. وذلك على النحو التالي :

# المبحث الأول

**الحالة السياسية في عصر الإمام الذهبي  
وفيه مطلبان :**

المطلب الأول : السياسة الداخلية .

المطلب الثاني : السياسة الخارجية .

## العالة السياسية في عصر الإمام الذهبي

شهد العالم الإسلامي مع نهاية القرن السابع الهجري تطورات سياسية عاشها الإمام الذهبي ، بما فيها من أحداث جسام كانت لها آثار عظيمة على تاريخ الأمة الإسلامية .

عاش الإمام الذهبي في دمشق، وفي الفترة بين عامي ٦٧٣-٧٤٨ من الهجرة النبوية أي ما يقرب من خمس وسبعين عاماً، وتنتقل بين الحجاز ومصر وما بينهما من البلاد الإسلامية التي كان يحكمها في تلك الفترة المماليك البحرية .

ولم يكن ذلك العصر عصر استقرار سياسي أو وحدة إسلامية، بل كان عصر تفكك وفتن وقلقل فعاش تحت حكم نولة حربية قامت على أساس السيف<sup>(١)</sup>، حيث كانت هذه الرقعة من العالم الإسلامي تتعرض لخطر عظيمين في آن واحد، خطر الصليبيين الذين كانوا يسيطرون على أجزاء كبيرة من بلاد الشام<sup>(٢)</sup>، وخطر التتار الذين دمروا بغداد وأسقطوا الخلافة العباسية، واجتاحوا البلاد الشامية<sup>(٣)</sup> . في هذا الجو وفي تلك الظروف نشأ الإمام الذهبي - رحمه الله - واستطاعت تلك الأحداث أن تجعل منه إماماً عظيماً وداعية موفقاً وعالمياً جهبذاً يقف أمام هذه الأمواج العانية ثابت الجنان، رابط الجأش، لا تستثيره حدثها وقف ينظر طريق النجاة والخلص بشخصية الإمام الأمة. كما هو حال كثير من مشاهير عصره من العلماء .

والحديث عن تلك الأوضاع السياسية في ذلك العصر يطول إذ أنه شهد أحداثاً هامة وتجارب عدة سأنذكر أهمها في هذا المبحث إن شاء الله وقد وجدت أنه من الأفضل تقسيم هذه المباحث إلى مطلبين بترتيب الأحداث .

- 
- (١) خزانة السلاح لمؤلف مجهول من ٧ . تحقيق د/ نبيل محمد عبدالعزيز مكتبة الأنجلو المصرية جا ١٩٧٨ م .
  - (٢) انظر الكامل : ابن الاثير جـ (٤٨١/١٠) دار صادر بيروت . وانظر البداية والنهاية - ابن كثير ١٢/١٦٦ . دار زمزم الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م .
  - (٣) البداية والنهاية . ابن كثير - ١٣/٢١٣ وما بعدها .

# المطلب الأول

## السياسة الداخلية

ونبها عدة نقاط .

أ - التعريف بالماليك .

ب- حدود حكمهم .

ج- النزاع الداخلي فيما بينهم على الحكم .

د - موقف العامة من حكم الماليك .

أ - التعريف بالماليك <sup>(١)</sup> .

الماليك كانوا طبقة عسكرية متميزة ، سيطرت على البلاد وأهلها وكان لهم في تربيتهم أسلوبهم الخاص في الحياة مما أضفى على حكمهم نوعاً من الغرابة والأهمية . وهم الملوك الأتراك، وكان ابتداء أمر هذه الطائفة أنهم نصاروا السلطان الملك الصالح نجم الدين الذي كان يحكم في محنته فلما حكم مصر عنى لهم ثباتهم معه حيث تفرق عنه الناس . فأكثروا من شرائهم وجعلهم أمراء دولته وخاصته ويطانته وأسكنهم معه في قلعة الروضة وسماهم البحرية . الخطط المقريني (٢/٢٣٦) .

فكان إذا اشترى السلطان أو الأمير مملوكاً جديداً فإنه كان يعنى به عناية فائقة ويهتم بتعليمه أحكام الديانة الإسلامية وأدابها، فضلاً عن الخط والقرآن وذلك على يد فقيه خاص، وعندما يكبر المملوك يُلقن فنون الحرب واستخدام النشاب <sup>(٢)</sup> . «وركوب الخيل وأنواع

---

(١) الماليك : مفرد مملوك وهو العبد إذا ملك ولم يملك أبواه (انظر لسان العرب مادة ملك ج٢ ص٤٢٦٧ ط دار المعارف بمصر بدون) .

(٢) النُشَاب : واحدته نشابة وهو النبل . (انظر المعجم الوجيز طبعة مجمع اللغة العربية بمصر . مادة نشب) .

الفروسية» ، وهكذا ينتقل الملوك في أنوار معينة دوراً بعد آخر حتى يتحرر ويصبح في زمرة الأمراء .<sup>(١)</sup>

وقد اتفق المؤرخون على تقسيم المماليك إلى قسمين :

القسم الأول :

يعرف بالمماليك البحرية الذين حكموا نحو قرن وثلاث من الزمن، من ٦٤٨-٧٨٤ من الهجرة .

أما القسم الثاني :

فهم المماليك الشراكسة الذين حكموا من عام ٧٨٤ إلى عام ٩٢٢ هـ .<sup>(٢)</sup>

والذي يهمنا هنا هو الحديث عن القسم الأول، فهم الذين عاصروهم الإمام الذهبي حيث عاش كما ثبت في جميع المراجع بين عامي ٦٧٣-٧٤٨ هـ ، فكانت حياته في عصر دولة المماليك البحرية، وهؤلاء المماليك هم مماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب<sup>(٣)</sup> آخر ملوك الدولة الأيوبية الذين سموا بالمماليك الصالحية نسبة إليه، فهو الذي جلب الكثير من المماليك « وبنى لهم قلعة بجزيرة الروضة لذلك سموا بالبحرية، وقام بتربيتهم وإعدادهم لخدمته، ومن الواضح أن هؤلاء المماليك انحدروا من أصول مختلفة متباينة فلا يجمع بينهم سوى رابطة الإنتماء إلى طبقة اجتماعية خاصة، ولا ينحسرون في أب واحد أو تجمعهم قبيلة واحدة»<sup>(٤)</sup> .

---

(١) الظاهر ببيرس ، د. سعيد عبد الفتاح عاشور . ص ١٤ أعلام العرب، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر . ط وزارة الثقافة والإرشاد القومي .

(٢) مصر والشام . سعيد عاشور . دار النهضة العربية . بيروت ط ١٩٧٢ م . ص ١٥٣ .

(٣) الصالح نجم الدين أيوب : هو حفيد الملك العادل حكم مصر ومات أثناء الحرب امع الصليبيين عام ١٢٤٩ . سيرة القاهرة ستانلي لينبول ص ١٧٤ من مطبوعات مهرجان القراءة للجميع عام ١٩٩٧ م القاهرة .

(٤) موسوعة التاريخ الإسلامي . د. أحمد شلبي، ط ٤ . مكتبة النهضة المصرية . ج ٥ ص ١٩٩ . ١٩٧٤ م .



أما عن كيفية انتقال السلطنة لتلك الفئة من الناس على خلاف العادة ، فإن ذلك يرجع لظروف وفاة الملك الصالح، حيث توفاه الله تعالى في وقت مواجهة المسلمين النصارى بعد الحملة الصليبية السابعة فأخفت زوجته « شجرة الدر»<sup>(١)</sup> خبر وفاته عن الجيش ووقعت المناشير كتوقيعه. وكانت تحكم باسمه كأنه حي، وأرسلت إلى «توران شاه» ابن السلطان نجم الدين أيوب . تستدعيه إلى مصر ليجلس على عرش أبيه ويقود المعركة<sup>(٢)</sup> .

وهكذا استمرت المعركة وانهزم النصارى بحمد الله تعالى ، وقد ذاق المماليك طعم السلطة والحكم في المدة الواقعة بين وفاة الصالح نجم الدين أيوب وحضور ابنه السلطان «توران شاه»<sup>(٣)</sup> ، ثم أحس هذا السلطان الجديد بأن هؤلاء المماليك وعلى رأسهم « شجرة الدر» زوجة أبيه التي تولت شئون الدولة سوف يستأثرون بالحكم ويخلعون منه من السلطة، فأخذ ياتمر بهم كما أخذوا ياتمرون به، وأغرقت شجرت الدر أخيراً أمراء المماليك، للتخلص من توران شاه بقتله سنة ٦٤٨ هـ. وانتهى بذلك حكم الأيوبيين وقامت السلطنة المملوكية<sup>(٤)</sup>، فرفع الملك الصالح، ويويعت أول امرأة في الإسلام بالملك واستمرت مدة دولتها ثمانين يوماً ، بسبب عدم موافقة المسلمين على ملكها فتزوجت المعز « عز الدين أيبك»<sup>(٥)</sup>، وتنازلت له عن

(١) شجرة الدر : هي أم خليل جارية الملك الصالح، ملكت مصر بعد وفاته، وخطب لها على المنبر. توفيت سنة ٦٤٨ . ولما وليت تكلم الشيخ عز الدين بن عبدالسلام في بعض تصانيفه على ما إذا ابتلي المسلمون بولاية امرأة (انظر حسن المحاضرة ج٢ ص ٣٦ للسيوطي ط ميسى البابي الحلبي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم) والنجوم الزاهدة (٣٢٢/٦) والسلوك (٣٦١/١) .

(٢) انظر محمد أديب: منتخبات التواريخ لدمشق ص١٧٥، ط المطبعة الحديثة دمشق ١٣٩٩ هـ، وانظر عصر سلاطين المماليك . محمود رزق سليم ص ٢٣ .

(٣) هو الملك توران شاه ابن ملك مصر . انظر حسن المحاضرة للسيوطي ج٢ ص ٣٥-٣٦، وانظر حسن السلوك (٣٦٧/١، ٣٦٨) والنجوم الزاهدة (٩٦/٧) .

(٤) نهر التاريخ . د. إبراهيم أحمد العدوي : نهر التاريخ الإسلامي متابعة العليا وفروع العظمى. ص٤٤٩ ط دار الفكر العربي ١٩٨٩ م . وانظر عصر سلاطين المماليك، محمود رزق . ص ٣٦ .

(٥) هو عز الدين أيبك التركماني مملوك الملك الصالح نجم الدين أيوب، ملك مصر مع شجرة الدر عقب وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب توفي سنة ٦٥٥ هـ (انظر حسن المحاضرة ج٢ ص ٣٧ - السلوك للمقريزي ج١ ص ٣٦٨ وانظر - عصر سلاطين المماليك ص ٢٨-٣٠) .

السلطنة<sup>(١)</sup>، فكان أول ملوك المماليك على الديار المصرية سنة ٦٤٨هـ<sup>(٢)</sup> .

وهناك من اعتبر شجرة الدر أرملة الصالح « نجم الدين أيوب » أول ملوكهم<sup>(٣)</sup> التي قامت بدور هام في انتقال السلطة من أيدي الأيوبيين إلى أيدي المماليك<sup>(٤)</sup> .  
« وفي وسط الأحداث السريعة المتلاحقة التي صحبت قيام دولة المماليك برز السلطان « الظاهر بيبرس »<sup>(٥)</sup> ليوم بدور البطل المؤسس الحقيقي لتلك الدولة<sup>(٦)</sup> .

« إمتاز عصر المماليك بعدم إحترامهم المبدأ الوراثي في الحكم، فجميع الأمراء (خُشْدَاشِيَّة) - أي زملاء - والسلطان نفسه ليس إلا أميراً كبيراً استطاع بفل قوته وسعة حيلته أن يصل إلى منصب السلطنة، وإذا كان بعض سلاطين المماليك قد نجحوا في توريث أبنائهم السلطة، فإن هذا النجاح كان مؤقتاً وغير شرعي في نظر المماليك أنفسهم، فلا يلبثوا أن يعزلوا ذلك الإبن ليتولى أقوى الأمراء الحكم، لذلك كان طبيعياً أن تؤول السلطنة بعد مقتل قطز<sup>(٧)</sup> إلى قائلته الأمير « ركن الدين بيبرس » بوصفه أقوى الأمراء

---

(١) المقرئزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج١ ص ٣٦٧-٣٦٨ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر طبعة ثانية ١٩٥٦م وانظر الخطط المقرئزي (٢٣٧/٢) .

(٢) سمط النجوم العوالي لعبد الملك العصامي ج١ ص ١٦ ط السلطية ١٣٩٩هـ .

(٣) انظر المقرئزي : السلوك ج١ ص ٣٦١ ط ١٩٧٠م .

(٤) انظر النجوم الزاهدة (٩٦/٧) وانظر مجتمعات التورايخ للدمشقي ص ١٧٥ ط ١٣٩٩هـ وانظر دولة سلاطين المماليك د. عبد المنعم ماجد ص ٦١ ط ١٩٦٧م

(٥) هو الظاهر بيبرس ركن الدين أبو الفتح بيبرس البندقداري لقب بقسيم أمير المؤمنين . ملك مصر والشام، وله فضائل عديدة منها مواجهة المغول والصلبيين إلى أن توفي سنة ٦٧٦هـ . انظر النجوم الزاهدة : ابن تعزي بردي (٩٤/٧) . وحسن المحاضرة ج١ ص ٩٥ . وموسوعة التاريخ الإسلامي . د. أحمد شلبي طبع مكتبة النهضة المصرية ج١ ص ٢٠٩ طبعة سادسة .

(٦) الظار بيبرس : د. سعيد عبدالفتاح عاشور ص ١٥ .

(٧) هو الأمير سف الدين قطز مملوك المعز ولما قتل استأذنه المعز قام في تولية ولده المنصور، فلما سمع بأمر التتار خاف أن تختلف الكلمية لصفر ابن استأذنه فعزله ودعا إلى نفسه . فبويغ سنة ٦٥٧هـ . وقد كان شجاعاً كثير الخير ناصحاً للإسلام وأهله . انتصر على التتار في معركة عين جالوت ثم كانت وفاته سنة ٦٥٨هـ .

انظر - حسن المحاضرة (٣٨/٢) والبداية والنهاية (٢٥٤/١٣) .

البحرية من ناحية ، وصاحب فكرة قتل قطز من ناحية ثانية<sup>(١)</sup> ، ثم استطاع بيبرس بما وهبه الله من ذكاد أن ينتهز فرصة سقوط الخلافة العباسية في بغداد فأحياها بمصر بعد « أن صار الناس بغير خليفة ثلاث سنين ونصف وذلك عندما استقدم أحد الناجين من القتل من العباسيين، وبإيعه في يوم الخميس تاسع من محرم سنة احدى وستين وستمائة بقلعه الجبل» للمسلمين ليعهد إليه بالقيام بكافة مهام الدولة وليكون بيبرس السلطان الفعلي ، فكان مصب الخليفة في العصر المملوكي منصباً شرفياً، بينما يعتبر السلطان المملوكي صاحب المملكة وكلمته نافذة نفوذ القانون<sup>(٢)</sup> .

وبذلك لم يبق للخليفة أي شيء خارج نطاق سيادة سلاطين المماليك . ومن هنا ندرك ما كان يصبو إليه بيبرس من عودة الخلافة العباسية تحت حمايته فقد كسب الصفة الشرعية للحكم، ونال حق الدفاع عن المدن المقدسة، وحصل على التأييد من قبل الشعب، وبذلك أقام المماليك دولة عسكرية في بلاد ليست بلادهم، وهكذا فإن العبد بالأمس كثيراً ما كان يصبح قائد جيش ليغزو في المستقبل السلطان الحاكم، وبقي السلاطين العبيد نحواً من قرنين وثلاثة أرباع القرن يحكمون بالسيف بقعة من أشد بقاع الأرض اضطراباً<sup>(٣)</sup> .

#### ب - حدود حكم المماليك ،

جرت العادة في العصر الذي عايشه الذهبي أن يكون لسلطان مصر هيمنة على بقية المماليك في بلاد الشام- أن يتضمن حكمهم مصر والشام- إلا أن ذلك لم يكن منذ قيام دولة المماليك الناشئة، فقد استطاعت السيطرة على مصر بسبب وجودهم فيها، ولم تستطع السيطرة على الشام بسبب معارضة ملوكها وأمرائها الأيوبيين ، « إذ أضحى من الصعب

(١) الظاهر بيبرس : د. سعيد عبدالفتاح عاشور، ص ٣٥ .

(٢) المواظ والاعتبارات ، المقرئزي (٢/٢٤٢) . تقولاً زيادة : دمشق في عصر المماليك ص ٢٥ ط ١٩٦٦م مكتبة لبنان بيروت . وانظر . السلوك المقرئزي (٢/٤٥٠) .

(٣) تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، فيليب متى . ص ٢٦٧ .

على أولئك الملوك أن يقبلوا استئثار ممالك أبيهم بمصر<sup>(١)</sup>، فطلب الأمراء في دمشق من الملك الناصر<sup>(٢)</sup> صاحب حلب أن يحكم دمشق، فصار إليهم وحكمها<sup>(٣)</sup>.

واستمر ذلك قرابة عشر سنوات من بداية حكم المماليك سنة ٦٤٨هـ حتى شهر صفر من عام ٦٥٨هـ عندما سقطت الشام في يد هولاكو المغولي<sup>(٤)</sup> « ويدخول قطنز الملك المظفر منتصراً على التتار في موقعة عين جالوت في الخامس عشر من رمضان من العام ذاته وبذلك دخلت دمشق تحت الحكم المملوكي المباشر لأول مرة ، وهكذا دخل في حكم المماليك سائر بلاد الشام من الفرات إلى حد مصر<sup>(٥)</sup>».

ولتيسير السيطرة على بلاد الشام رتب السلطان بيبرس البريد في سائر الطرقات، حتى صارت أخبار المماليك ترد إليه في كل جمعة مرتين فيحكم سائر المماليك من عزل أو ولاية وهو مقيم بمصر في قلعة الجبل<sup>(٦)</sup>، وكانت الدول الإسلامية المستقلة التي قامت بمصر سابقاً تحرص دائماً على بسط نفوذها السياسي على الحرمين، ولما كان من الشرف

(١) انظر مصر والشام ، د. سعيد عاشور : ص ١٥٩ .

(٢) هو الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العز محمد بن الظاهر غازي بن السلطان صلاح الدين صاحب الشام وهو آخر ملوك بني أيوب. ومات سنة تسع وخمسين وستمائة من الهجرة . (انظر شذرات الذهب ج٥ ص ٢٩٩-٣٠٠ ومعجم الإنساب ص ١٥١ طبعة دار الرائد ببيروت ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م).

(٣) انظر السلوك للمقريزي (١/٣٦٦، ٣٦٧) .

(٤) انظر المرجع السابق ج١ ص ٣٨٥-٤١٦، وانظر دمشق التاريخ صورة وإعلان . أحمد غسان سيانوا - دار قتيبة عام ١٩٨٥ م .

وهولاكو : هو قولي بن جنكزخان المغولي مقدم التتار وقائدهم إلى النار، أباد البلاد والعباد وأخذ الحصون الإسماعيلية وأذربيجان والروم والعراق والجزيرة والشام ومات بمرض الصرع فكان يُصرع في اليوم مرتين منذ أن قتل الملك الكامل، سنة أربع وستين وستمائة من الهجرة (انظر شذرات الذهب ج٥ ص ٣١٦) .

(٥) انظر السلوك ج١ ص ٤٢-٤٣٣ . وانظر . دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين . أكرم حسن الحلبي ص ١٩ الشركة المتحدة للطباعة والنشر الطبعة الأولى ١٩٨٢م - ١٤٠٢هـ .

(٦) المرجع السابق ج١ ص ٤٤٦ .

العظيم والدعامة الكبرى لكل حاكم مسلم أن يظهر أمام المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها في صورة حامي الحرمين المدافع عن الحجاز وأرضه الطيبة، لم تفت هذه الحقيقة السلطان الظاهر بيبرس وهو ذو النظر البعيد والذي حرص دائماً على أن يبدو في صورة البطل المدافع عن العالم الإسلامي، وأحرى بالسلطان بيبرس الذي قام بإحياء الخلافة العباسية في مصر وقام بحمايتها والنود عنها أن يقوم بحماية بيت الله الحرام في مكة ومقام الرسول ص في المدينة، وقد أتاحت الخلافات بين أشرف الحجاز فرصة عظيمة للظاهر بيبرس لتحقيق أغراضه فتدخل لتسوية النزاع وأكد سلطانه على البلاد، «ولم يبق أمام بيبرس سوى الذهاب بنفسه إلى الحجاز لتأكيد سلطانه على تلك البلاد من ناحية ولتأدية فريضة الحج من ناحية أخرى»<sup>(١)</sup>.

### ج - النزاع الداخلي على السلطنة :

اتصف هذا العصر بكثرة الخلافات المستحكمة بين الأمراء الذين ما فتئوا يُحكيون الدسائس لبعضهم البعض لما في الملك من علو مكانة تستهوى مريديها، وكما قال ابن خلدون في مقدمته: «إن الملك منصب شريف ملنوذ يشتمل على جميع الخيرات الدنيوية والشهوات البدنية والملاذ النفسانية فيقع فيه التنافس غالباً، وقل أن يسلمه أحد لصاحبه إلا إذا غلب عليه، فتقع المنازعات وتفرض إلى الحرب والقتال والمغالبة»<sup>(٢)</sup>.

تلك كانت السمة الغالبة على تلك الفترة من تاريخ الأمة الإسلامية والتي تميزت بالإضطرابات الداخلية خاصة في دولة المعاليك، فالقول بأن هذه الدولة لا تخلو من النزاع على السلطنة منذ نشأتها، قول لا ريب فيه، إذ إنهم دأبوا على الخلاف حول السلطنة «فهم الذين دبوا مؤامرة لعزل الملك الأيوبي "العاقل الثاني" وإحلال سيدهم الملك الصالح نجم

(١) انظر الظاهر بيبرس د. سعيد عبدالفتاح ماشور ص ١٠٩، وانظر السلوك للمقريزي ٥٨٠-٥٨٣.

(٢) المقدمة من تاريخ ابن خلدون ج ١ ص ٢٧١ ط بولاق ١٣٢٠هـ.

الدين أيوب" محله عام ٦٣٧هـ<sup>(١)</sup> .

واستمر شأنهم على ذلك طوال فترة حكمهم ، من معارضة الأيوبيين لهم عند نشوء دولتهم رغبة منهم في استمرار حكم الدولة الأيوبية وانتقاماً لشأنهم فهم الملوك أبناء الملوك كيف يستسلمون لمالِك آبائهم ؟ ، فكان النزاع الذي استمر قرابة عشر سنوات حاول فيها كلا الطرفين استمالة النصارى إليه في الإمارات الصليبية ضد الآخر، كما هو صنيع الملك الناصر " يوسف بن أيوب" في الشام حيث حاول استمالة لويس التاسع المقيم في عكا إلى جانبه ليضمن حملته على مصر، غير أن المعز " أيك " السلطان المملوكي أرسل إليه بالتهديد وطلب منه الإنضمام إليه ضد الناصر، ولكن الملك لويس فضل أن يقف موقف الحياد ويستغل نزاعهم لصالحه<sup>(٢)</sup> .

ولم يكن الصراع على السلطة بين الأيوبيين والمالِك فحسب ، ذلك أن النزاع الحقيقي الذي استمر طوال فترة دولة المالِك هو الذي كان بين المالِك أنفسهم والذي كان وجوده من أهم الأسباب في تقوية النزاع بين الملك الناصر الأيوبي والسلطان أيك في مصر فهم الذين حرضوا ملوك البيت الأيوبي على غزو مصر<sup>(٣)</sup> .

فإذا عرفنا أن المالِك لم يصبروا على حكم توران شاه لكونه أساء رد الجميل لهم فقتلوه فوراً، « وأن النزاع على الحكم كان متأسلاً في نفوسهم قبل قيام دولتهم، أدركنا أن طابع الدولة الجديدة والتي لم تلبث أن تقوم هو أسلوب الفتك بالسلطين واتخاذ الغدر وعمليات القتل كأساس ونظام متبع للوصول إلى الملك والإحتفاظ به<sup>(٤)</sup>، ومن ذلك خروج ولاة الشام على السلطان بين الحين والآخر حتى بعد انضمامها للحكم المملوكي، فحينما تولى

(١) مصر والشام، سعيد عاشور ص ١٥٢. بتمصرف يسير .

(٢) انظر قيام دولة المالِك ، أحمد العبادي ص ١٢٦ . ط ١٩٦٩م .

(٣) المرجع السابق ص ١٣٤-١٣٥ .

(٤) موسوعة تاريخ مصر . أحمد حسين . ج٢ ص ٦٧١ .

السلطان منصور قلاوون خرج عليه « شمس الدين سنقر الأشقر » نائب الشام وامتنع عن مبايعته، وتلقب بالملك الكامل ودعا أهل الشام إلى طاعته<sup>(١)</sup> .

إذاً فقد أخذ المماليك سمة النزاع حول السلطنة منهجاً لهم وساعدهم على ذلك أن أكثر السلاطين الذين تولوا البلاد كان أمرهم ضعيفاً، « والقليل منهم كان قوياً، وقد كان هناك تقليد بين المماليك يعطى الحق لمن قتل سلطاناً أن يأخذ مكانه، ويتضح ذلك في تقليد الظاهر بيبرس بعد أن قتل قطز وأعلن ذلك فيبويج بالسلطنة<sup>(٢)</sup>، وهذا مما شجع على تعادي الصراع على السلطة، « إذ إن السلطة من نصيب الرجل المتصف بعدة صفات منها الإقدام والشجاعة والجرأة، على أن يجمع إلى ذلك المقدرة على الدس والخديعة مع تشديد الرقابة على أنصاره إذ لم يكن في سلوك المماليك السياسي شيء أسهل عليهم من تبديل الولاء والتبعية<sup>(٣)</sup> .

وهكذا كان النزاع حول الملك مستمراً بين المماليك رغم ما كان يواجهه البلاد من اضطرابات خارجية يقودها أعداء الإسلام مباركين هذا النزاع مستفيدين منه في ضرب الإسلام والمسلمين<sup>(٤)</sup> .

وعلى الرغم من وجود ذلك الخلاف والنزاع الداخلي إلا أن دولة المماليك استطاعت الصمود فترة طويلة من الزمن<sup>(٥)</sup> .

- 
- (١) انظر البداية والنهاية . ابن كثير ج١٣ ص ٣٢٣ . دار زمزم الرياض ١٤١٣هـ .
  - (٢) انظر السلوك : المقرئ ج١ ص ٤٣٥ - ٤٣٦ .
  - (٣) انظر دمشق في عصر المماليك . نيقولا زيادة . ص ٢٤ .
  - (٤) انظر ولاية دمشق في عهد المماليك . محمد أحمد دهمان . ص ٦٨ ط المطبعة السلفية ( دار الفكر . دمشق ١٩٨١م) .
  - (٥) دامت زهاء ثلاثة قرون منعام ٦٤٨-٩٢٢هـ .

#### د - موقف العامة من حكم المماليك :

كان الشعب مغلوباً على أمره لتوالي الإرهاب والكبت والظلم، لقد تعاون مع أولئك المماليك الغرياء لأن هناك قوى أكبر وأخطر كانت تصدق به، وأدرك أولئك الغرياء حاجة الشعب إليهم للبقاء<sup>(١)</sup>، فاحتقروا الشعب وأهملوا حقوقه السياسية، فكانت مشاعر الشعب اتجاههم مزيجاً من الكراهية السياسية والعداء الاجتماعي والولاء الديني فكان بفضل الواجهة الدينية وهي « الخلافة الإسلامية » التي جعلت من المماليك حكاماً شرعيين مفوضين من الخليفة الذي كان دوره إضفاء الشرعية على من يجلس على عرش البلاد من أولئك المماليك<sup>(٢)</sup>، لذلك نجد أن ثورات الشعب لم تخدم سواءً في العواصم كدمشق والقاهرة، أو في الأقاليم كالصعيد وبعض بوادي الشام<sup>(٣)</sup>.

---

(١) انظر الأدب في العصر المملوكي . محمد زغلول . جا ص ١٧ ط دار المعارف القاهرة دون .

(٢) عصر سلاطين المماليك . د. قاسم عبيد قاسم، ص ٢٢ ط ١٩٨٣م دار المعارف بالقاهرة .

(٣) الأدب في العصر المملوكي ، د. محمد زغلول سلام ، جا ص ٤٢ ط ١ دار المعارف القاهرة . بدون .



# المطلب الثاني

## السياسة الخارجية

تعرض المسلمون في تلك الحقبة من الزمن لهجوم وضغوط قوتين خطيرتين شرستين هما قوة الصليبيين المقيمين في البلاد الشامية، وقوة التتار أو المغول الذين اكتسحوا البلاد الإسلامية، وسأتحدث عن مواجهة المسلمين لكل خطر على حدة .

### أ - علاقة المسلمين مع النصارى .

لم يكن جديداً على المسلمين عداوة النصارى لهم في ذلك العصر، إذ إن ظهور تلك العداوة كان متزامناً مع وثبة الإسلام إلى الفتح في عصره الأول، ولكن نار الصراع المستمرة بين الإسلام والنصرانية تأججت عندما خاف النصارى من الانتصار الإسلامي في المشرق، فأروا أنه لا بد من الحروب الصليبية<sup>(١)</sup> . وكانت هناك أسباب مادية وأسباب غير مادية حرضت النصارى في أوروبا على الاندفاع في هذه الحروب الطويلة منها الفقر والرغبة في الكسب وروح المغامرة والحقن على المسلمين ونضجت الفكرة بعد إشارات عاطفية مؤثرة كانت كلها تدور حول الرغبة في تخلص الأرض المقدسة من سيطرة المسلمين وتيسير وسائل الحج للراغبين فيه، « كل ذلك رسمته السياسة البابوية الهادفة إلى السيطرة على الكنائس النصرانية في العالم كله ، ورغبة الدولة البيزنطية في استرداد بعض المواقع العسكرية التي فقدتها أمام الأتراك السلاجقة»<sup>(٢)</sup> .

كما أن النظام الإقطاعي في الغرب الأوروبي أسفر عن وجود عدد كبير من الفرسان والأمراء بدون إقطاعيات، حيث فتحت الحركة الصليبية باب الأمل أمام الطامعين في إقطاعات جديدة<sup>(٣)</sup> .

(١) انظر تاريخ الإسلام ، حسن ابراهيم حسن . ج٤ ص ٢٤٣-٢٤٤ ط ١٩٤٥م القاهرة .

(٢) الحروب الصليبية ، د. علي حبيبة . ص ٦٥ ط ١٩٨٩م مكتبة الشباب .

(٣) الحروب الصليبية ، د. علي حبيبة . ص ٣٠ . وانظر ستيفن رانيسمان العملات الصليبية من كلير مونت إلى أورشليم ترجمة نور الدين خليل ج١ ص ١٣ ط ١٩٩٤م .

وقد استطاع النصارى في زحفهم أن يحققوا سلسلة من الانتصارات على القواعد الإسلامية المتصدية لهم، فكانت هذه الانتصارات بداية لتأسيس الإمارات الصليبية التي عاشت بين البلدان الإسلامية، ف جاء الرد من المسلمين بالمقاومة والجهاد في شخص سلاطين الدولة الأيوبية، «وبدولة المماليك حيث بدأ للسلطان بيبرس أن يقوم بدور صلاح الدين وأن يصبغ جميع أعماله ضد النصارى بصبغة الجهاد، كما عمل على إيقاع الفرقة بين القوى الصليبية بالشام فضلاً عن مخالفة الدول المغولية المعروفة بإسم القبيلة الذهبية، وهي الدولة التي اعتنقت الإسلام حديثاً، فاستولى بيبرس على عدة حصون ومدن، وجاء بعدة السلطان قلاوون الذي سار على طريقة سلفه، ثم أتم ابنه السلطان خليل حصار عكا التي أدى سقوطها إلى تسليم المدن الصليبية الباقية في الشام»<sup>(١)</sup>.

وقد أسهمت هذه الحروب الصليبية في حدوث تطورات داخلية في بلدان الشرق العربي، فبعد أن كانت مفككة ولا تسيطر عليها قوة مسئولة عن حياتها ومصيرها ظهر فيها عماد الدين زنكي<sup>(٢)</sup>، وابنه نور الدين محمود<sup>(٣)</sup>، ثم صلاح الدين الأيوبي والظاهر بيبرس فكانوا في عصورهم أبطال المواقف الحرجة التي عرفها المسلمون في تلك الفترة التاريخية<sup>(٤)</sup>

---

(١) نهر التاريخ الإسلامي، د. ابراهيم العدوي، ص ٤٤٩ وما بعدها . وانظر تاريخ البحرية الإسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط د. السيد عبدالعزيز سالم (٢٠٧/١) مؤسسة شباب الجامعة . الإسكندرية .

(٢) هو عماد الدين زنكي، حكم بلاد الشام ودانت له مصر، ووصل صلاح الدين الأيوبي إلى عرش مصر وكان ولاؤه لعماد الدين زنكي في دمشق . توفي عماد الدين زنكي سنة ٥٢١هـ-١١٢٧م . انظر روض المناظر في علم الأوائل والأواخر ص ٢٠٥-٢٠٦ .

(٣) هو نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي ، تولي أمرة الدولة الأيوبية بعد وفاة والده وتوفي سنة ٥٤٩هـ-١١٥٤م . انظر روض المناظر ص ٢١٢ .

(٤) الحروب الصليبية . د. علي حبيبة ص ١١٧ .

## ب - علاقة المسلمين بالتتار ،

بدأ غزو التتار لبلاد المسلمين قبل مولد الإمام الذهبي رحمه الله تعالى ، ولكن شاء الله أن يعايش الذهبي فترة عصبية من هجوم التتار على بلاد ، فبينما كان العالم الإسلامي يعاني من مواجهة النصارى ومن التفكك والانقسامات بين المسلمين أنفسهم ، إذ هاجمهم خطر خارجي آخر وهو الغزو المغولي الذي استم بكرة جيوشه وحبه للقتال وإراقة الدماء ، حيث يجد سعادته في هدم المدن وأزهاق الآلاف من الأرواح ، وكانت المغول من الأجناس التي عاشت حياة الفقر والام الحاجة فامتألت نفوسهم بالحدق على الآخرين وانبعثت لتقضي على الثراء والترف للذين سادا في ذلك العصر ، وكانوا يعيشون في ظل نظام إداري دقيق ويتمتعون بصفاتحربية وأسلحة يفتقدها خصومهم في كل مكان ، واستطاعوا بهذه القوة أن ينزلوا بالمسلمين وغيرهم أعظم الهزائم وأفدح الخطوب<sup>(١)</sup> .

أما عن أصل التتار فهم « قبائل تركية جاءت من أقصى الشرق حيث منغوليا وشمال الصين ومناطق أخرى حولها ، وكان القتال من أعظم وسائلهم للكسب والغنيمة ، وكان من السمات المعروفة عنهم الطاعة المطلقة لرؤسائهم وحبهم الشديد للحرب والنهب وكانوا إباحيين بدرجة كبيرة ، ولعل كثيراً منهم لم يعرفوا أباهم ، وإنما كانوا يعيشون في ظل الوحدة الشاملة للجماعة التتارية الكبيرة ، وأما دينهم فكان شيئاً مختلطاً بين عبادة الكواكب والأرواح والموتى والحيوانات<sup>(٢)</sup> .

ولم تتعرض الأمة الإسلامية لأوقات عصبية مثل التي تعرضت لها زمن الغزو المغولي في القرن السابع الهجري الذي اجتاحت جحافلها القوية الحدود الإسلامية ، فوجود الأمة الإسلامية خالية من قوة تستطيع مواجهة مثل ذلك الغزو العنيف ، « فالخلافة العباسية في ذبول وضعف والأمة في تفكك وانقسام ، ويبدو أن هولاكو المغولي حفيد جنكيز خان رائد

(١) المرجع السابق ص ١٢٨ .

(٢) الحروب الصليبية ، د. علي حبيبة ، ص ١٢٨ .

الحركة المغولية ضد المسلمين وجد أن الظروف مناسبة للاستيلاء على الأراضي الإسلامية فزحف غرباً نحو فارس وقضى على الخلافة العباسية سنة ٦٥٦هـ<sup>(١)</sup>، وقضى بذلك على قلعة الإسلام وأعمل فيها معاول التخريب والنار والسيوف<sup>(٢)</sup> وسقطت الخلافة الإسلامية ، ذلك السقوط الذي كان له نوي هائل في مختلف العالم الإسلامي فزاده ضعفاً على ضعف، وعاشت الديار الإسلامية بعد ذلك في خوفٍ وهلعٍ من هجوم التتار وصعوبة مواجهتهم ، واستمر الحال على ما هو عليه من تفككٍ وصراع .

ومن الطبيعي أن يستفيد التتار من هذه الظروف التي زادت من قوتهم ونفوذهم فاتبعوا استيلائهم على بغداد بغزو الشام وما يليها لسهولة ذلك عليهم ولقرب موقعها من العراق، « وبعد أن عجز ملوك بني أيوب ، وعلى رأسهم الناصر يوسف من مواجهة المغول ، حاول كسب هولاء فكان الرد أن أرسل إليه هولاء كي يأمره بالتبعية والخضوع وترك بلاد الشام متجهاً إلى مصر، فانتشر التتار في البلاد وملكوا حمص وحماة ووصلوا دمشق ولم يجدوا بها معارضةً فتسلموها بالأمان»<sup>(٣)</sup>.

ثم عزم هولاء على مواصلة سيره لغزو مصر فأرسل إلي سلطان المماليك يأمره بالتبعية ويتهدده بقوة المغول التي لا تقهر، وقد تمت السيطرة على بلاد الشام بسبب الضعف العام الذي أصاب الأمة الإسلامية .

وقد جاء رد المماليك بمصر قوياً على تهديد المغول إذ رفضوا الإذعان لهم وسخروا منهم، وجهزوا الجيوش لصد الخطر المحدق بالبلاد، الأمر الذي أشعل ممالك السلطان حماساً لرد هذا الخطر الداهم فما كان من « السلطان قطز» إلا أن خرج بنفسه على رأس

(١) قيام دولة المماليك ، أحمد العبادي . ص ص ١٤٦-١٤٧ . يتصرف يسير .

(٢) الكامل . ابن الأثير . ج ١٢ ص ١٤٧ المطبعة الأزهرية ١٣٠٢هـ .

(٣) منخبات التواريخ لمدشق . ص ١٧٩ ط ١٣٩٩هـ .

جيش لدحر التتار، ومن ثم إعادة الحكم السياسي من الفرقة والمتناحرين الولاة . فاتجه الأمير «بيبرس على رأس جيش، وبدأ بيبرس بالهجوم على التتار وصالح النصارى بعد أن احتل غزة حتى لا تجتمع عليه خصمان في أن واحد ثم اتجه إلى الأردن لاسترداد دمشق من المغول، وكانت المعركة الحاسمة التي اشتهرت بمعركة عين جالوت في سنة ٦٥٨هـ والتي انتصر فيها المسلمون والله الحمد والمنة وهُزم التتار شر هزيمة»<sup>(١)</sup>.

تلك الهزيمة التي شهد أن يوقف زحفهم العالم والتاريخ على أثرها أن المماليك وقفوا «بفضل الله» أمام التتار الذين لم يستطع أحد أن يوقف زحفهم ، بل وانتظروا عليهم وتابعوا فلولهم حتى أخرجوهم من بلاد الشام مهزومين بعد أن دخلوها ظافرين فأعادوا للإسلام عزه ومجده .

وقد كان من وراء سلاطين المماليك في رد التتار ودحرهم أئمة من العلماء كان لهم الفضل بعد الله تعالى في النصر على أعداء الله، فقد ألبوا المسلمين وزكوا مشاعرهم وأثاروا روح الحماس في قلوبهم لخوض غمار الحرب ضد التتار وزينوا لهم الشهادة في سبيل الله، وأوقنهم بشعلة من الإيمان ودفعوهم إلى الإستبسال في قتال الأعداء .

ولا يمكن إنكار دور هؤلاء الأئمة والدعاة من أمثال سلطان العلماء «العزبن عبدالسلام» و«ابن دقيق العيد» و«شيخ الإسلام ابن تيمية» وغيرهم من الذين كان لهم الدور البارز في شحذ الهمم ورفع الروح المعنوية للجند وغيرهم في القتال ضد التتار .

### **وكانت لتلك المعركة نتائج سياسية من أهمها :**

عودة عزة الإسلام في نفوس المسلمين، وذلك يتضح عندما نعرف أنه بمجرد وصول أبناء النصر إلى دمشق ، حتى قام أهلها يفتكون بالمغول الموجودين بالمدينة، وكذلك باليهود

(١) حسن المعاصرة، السبوطي . ج٢ ص ٣٩ ط١٤٠١، ١٩٦٨م-١٣٨٧هـ دار إحياء الكتب العربية .

والنصارى الذين انضموا إلى المغول ضد المسلمين، فأعملوا فيهم السيف ومزقوهم شر  
ممزق<sup>(١)</sup> .

وبذلك أقصى الخطر المغولي عن دولة الإسلام نهائياً، إلا أن الحالة التي كانت تعانيها  
البلاد أحياناً بسبب النزاع بين المسلمين أضحت سبباً للمغول في إيران لإعادة محاولة  
الانقضاض على الشام ليجعلوا من شواطئ البحر المتوسط حدوداً لإمبراطوريتهم<sup>(٢)</sup> .

بيد أن المماليك لم يقفوا إزاء هجوم التتار مكتوفي الأيدي بل صدوهم وقاموهم  
ولقنوهم دروساً موجعة وهزموهم في مواقع عدة منها « موقعة حمص » التي لم يبخل التاريخ  
علينا وذكر بعض محاولات للتتار الأخرى لغزو بلاد الشام، وكان من أشهرها تلك معركة  
« مرج الصفر » المشهورة في التاريخ بمعركة « شقحب » وذلك عندما استطاع جمع من التتار  
الدخول في إيران مكونين قوة جديدة وأرادوا السيطرة على المسلمين حيث سار غازان ملك  
التتار بقواته إلى حمص ودخلها، واستولى على أملاك المسلمين، ثم سار إلى دمشق التي  
انتشر فيها الرعب وهرب الناس إلى قمم الجبال وكان ذلك سنة ٦٩٩هـ، وفي ذلك الحين كان  
الإمام الذهبي بدمشق حينما دخلها غازان، وقد سجل الشيخ تلك الأحداث الجسيمة في  
تاريخه، فكتب مع المؤرخين كيف عانى المسلمين في بلاد الشام من التتار تخويفاً وتقتيلاً  
وتكديلاً، وقيل إن القتلى فيها بلغوا مائة ألف<sup>(٣)</sup> .

فقدت هذه المحنة الرعب في قلوب الناس في دمشق حتى شاعت رحمة الله أن ينجو  
المسلمون من هذه المحنة المرعبة فتجمعوا تحت قيادة الناصر بن محمد سلطان المماليك،

---

(١) معارك الإسلام الكبرى . جماد الدين حماد، ص ١٩١ . ط ١٩٢٢م مكتبة النهضة المصرية .

(٢) تاريخ العالم العربي . فرانتس تشينر ، ص ١٦٧ .

(٣) انظر السلوك . للمقريزي ج٤ ص ٨٨٩ . وانظر وثائق الحرب الصليبية والغزو المغولي للعالم  
الإسلامي (٣٩٢-٤١٢) د. محمد ماهر حمادة مؤسسة الرسالة بيروت الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ  
١٩٧٩م .

وتم دحر التتار في المعركة سنة ٧٠٢هـ، والتي كان من نتائجها القضاء على أغلب جيش التتار وموت غازان قهراً على تلك الهزيمة التي لم ينهض للتتار بعدها قوة عظمى ضد المسلمين، والحمد لله رب العالمين .

وبذلك زال الخطر أن التتار والصلبيي عن البلاد المملوكية بالشام» وبدأت فترة استقرار زاهداً أن الظاهر بيبرس نجح في التخلص من طائفة الإسماعيلية والإستيلاء على معاقلها المنيعه وهي الطائفة التي استغلها النصارى ضد المسلمين<sup>(١)</sup> .

هذه ملامح عامة للظروف السياسية المفعمة بالإضطرابات والتي عاصرها الإمام الذهبي نون أن ينجر في غمار الخلافات والمؤامرات ، وإنما كان همه الأساسي الدعوة إلى استقرار العقيدة وتطبيق الشريعة وبت الأخلاق الإسلامية السامية، لقد كانت مهمته شاقة في جو المؤامرات ، الذي وهنت فيه القيم الدينية، لكن الإمام الذهبي بما حباه الله سبحانه من نكاه ثاقب، وسعة صدر ، وإخلاص للعلم، ضاعف جهوده فلم يكن فحسب كاتباً أو موثقاً ، وإنما كان علماً متحركاً من أعلام الدعوة الإسلامية .

---

(١) الماليك ، للعريني ص ٥١ ط ١٩٧٩ م . بتصرف .

## المبحث الثاني

﴿ الحالة الدينية في عصر الإمام الذهبي ﴾



## تمهيد ،

كان المجتمع في ذلك العصر كثير الأجناس والطبقات ، لذلك كان كثير الأديان والعقائد، كثير النحل والمذاهب في الدين الواحد، فكان هذا كله من بواعث القلق والفتنة والاضطراب، ومن العوامل التي يسرت للفرنج والتتار أن يعيشوا زمناً طويلاً في البلاد .

كان المسلمون هم أهل البلاد والكثرة الكاثرة بطبيعة الحال، وكان بجانبهم أهل الذمة اليهود والنصارى وكان المسلمون فرقا مختلفة من ناحية العقائد الدينية، مما صبغ العصر بالتحيز الفكري والتعصب المذهبي<sup>(١)</sup>. ولم يقتصر الأمر على الخلافات الفكرية والمذهبية، بل تعدى ذلك إلى العداوة الصريحة بين بعض تلك الفرق، العداوة الصريحة بين بعض تلك الفرق، العداوة التي وصلت إلى حد استعانة إحدى الفرق بأعداء الإسلام على فرقة أخرى، وتجدر هنا الإشارة إلى موقف ابن العلقمي الشيعي وزير آخر الخلفاء العباسيين ببغداد الذي يسر للتتار دخول العاصمة بغداد بسبب ما كان من عداة شديد بين أهل السنة والشيعة، فكان ذلك مما أهاجه على تدبير ذلك الأمر الفظيع، فدخل التتار بغداد واجتاحوا بلاد الإسلام<sup>(٢)</sup>، وبسبب خلاف بعض الفرق الإسلامية في بعض المسائل كان يسود المجتمع قلاقل واضطرابات ومن أبرز الفرق في ذلك العصر :

## الاسماعيلية<sup>(٣)</sup> ،

الذين خرجوا عن الإسلام بكثير من العقائد التي يذهبون إليها، ولهم في الكيد للمسلمين تاريخ مشهور، وبخاصة في الشام ، وكان المسلمون يقفون لهم بالمرصاد على مر

(١) حياته وعصره ، محمد أبو زهرة : ابن تيمية ص ١٥٥ ط دار الفكر العربي سنة ١٩٥٢م.

(٢) انظر البداية والنهاية . ابن كثير (١٦٩/١٢) .

(٣) سمو بذلك نسبة إلى محمد بن اسماعيل ك معتقدين أنه صاحب كت السر الباطن عندهم الذي أنزل على النبي ﷺ وأمر بكتمه عن الناس، إلا عن وصية علي بن أبي طالب واستكتبه أن لا يخبره إلا لمن يخلفه من الأئمة المعصومين من ذريته حتى انتهى ذلك إلى محمد بن اسماعيل وقد أنكروا حقائق اليوم الآخر والتناور وأولوها الصواعق المرسله . (٤٤٢/٢) .

الزمان والعصور، ولذلك نجد السلطان صلاح الدين الأيوبي يوقع بهم ويخرب بلادهم بالشام ويحرقها<sup>(١)</sup>، وقد سموا بالباطنية لأنهم قالوا أن الإمام مستور وقالوا أن للشرعية ظاهراً وباطناً وأن الناس يعلمون علم الظاهر وعند الإمام علم الباطن بل عنده باطن الباطن وكانوا يأخذون بالتقية حيث يسترون أراهم ولا يعلنون إلا ما تسمح الأحوال بإعلانه، من أجل ذلك كله سموا الباطنية<sup>(٢)</sup> كما كان بعض كبارائهم يستهونون مرديهم بالتخدير بالحشيش، ولذلك سموا بالحشاشين وهم الذين ساعدوا الصليبيين عند هجومهم على بلاد الشام ضد المسلمين، لذلك حين استولى هؤلاء على الكثير من بلاد الشام قربوهم وأدنوهم وجعلوا لهم مكاناً مرموقاً .

ولما جاء نور الدين محمود زنكي وصلاح الدين بعده اختفوا عن الأعين وأعتصموا واقتصر عملهم على تدبير المكائد والفتك بالمسلمين وقوادهم أن مكنتهم الفرصة من ذلك. ولما أغار التتار بعد ذلك على الشام ناصروهم أكثر مما نصاروا الصليبيين فمكنوا التتار من الرقاب حتى إذا انحصرت غارات التتار قبعوا في جبالهم قبوع القواقع في أصدافها لينتهبوا فرصة أخرى .

فلما جاء السلطان بيبرس كان من بين جهوده في تقليص أظافر الصليبيين القضاء على نفوذ الباطنية في بلاد الشام كلية، فعزل مقدمتهم في الدين الشعراني، ثم أخذ يستولى على معاقلهم جميعاً وأقطعهم بدلاً منها بعض أراضي في مصر<sup>(٣)</sup> .

(١) تاريخ ابن الوردي ج٢ ص ١٢٤ حوادث سنة ٥٧٢هـ .

(٢) محمد أبو زهرة ك ابن تيمية حياته وعصره . ص ١٧١ .

(٣) الحروب الصليبية د. سعيد عاشور، ص ١٥٨ ط الانجلوا سنة ١٩٦٣ م .

## الأشاعرة :

وكان مذهبهم هو المذهب السائد في دمشق وقتها، وكان ينظر إليه على أنه السنة، وقد قوى هذا المذهب بإعتناق صلاح الدين له والدعوة اليه وكان الأشعريون يسيرون على نهج الفلاسفة والمناطق في إثبات عقائدهم، وهذا منهج لا يرضى عنه الحنابلة في بدايته وإن كانوا يسلمون بنتائجه في النهاية، ولم تكن العلاقات تسير على نحو مرضي بين الجانبين، لذلك لم يتوان الأشاعرة في استعمال سلاح التكفير في شتى المناسبات، حتى بلغ الأمر حد الفصل للحنابلة كفرقة مثل اليهود والنصارى والباطنية .

وقد كتب منشئ المدرسة الروحية في دمشق نصاً يمنع دخول اليهود والنصارى والحنابلة لهذه المدرسة<sup>(١)</sup> .

## المعتزلة :

وهي الفرقة التي شغلت الفكر الإسلامي قرناً طويلاً، وهي صاحبة المعركة الكبرى التي نوى ذكرها في العصور الإسلامية وهي مسألة خلق القرآن، ولاعتماد المعتزلة على العقل في فهم العقائد وتقصيهم المسائل الجزئية ، انقسموا إلى طوائف مع اتفاقهم على الأصول، ولكل طائفة اسم خاص مشتق من اسم صاحبها الذي اخذت عنه، فمنهم الواصلية والهديلية والنظامية والحائطية والمعمرية وغير ذلك<sup>(٢)</sup> .

## الشيعة :

وهم الذين شايعوا علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وقالوا بإمامته وخلافته نصاً ووصاية جلياً أو خفياً، وإن الإمامة لا تخرج عنه وعن بنيه إلا بظلم من غير ذلك الإمام ووصاية أو بتقية منه لغيره وقد اتفقت فرق الشيعة والكيسانية والإمامية والإنثى عشرية

(١) عبدالعزيز المراغمي: ابن تيمية ص ١٤٠ ط دار إحياء الكتب العربية .

(٢) محمد أبو زهرة : ابن تيمية ص ١٨٣ .

والإسماعيلية والحاكمية والنصيرية وقد قال عنهم ابن القيم . توصل الرافضة والباطنة والاسماعيلية والنصيرية<sup>(١)</sup> إلى تنقيف باطلهم وتؤيلاتهم حتى أضافوها إلى أهل بيت .

### الجهمية .

جهم بن صفوان وهو من الجبيرة الخالصة<sup>(٢)</sup> وكانت دعوته « الجبر » أي أن الإنسان لا إرادة له وكان يزعم إلى جانب ذلك أن الجنة والنار تفنيان، وأن لا شيء بخالد . ويزعم كذلك أن الإيمان هو المعرفة فقط، وأن الكفر هو الجهل، وأن علم الله كلامه حادثان . وهم كما قال عنهم ابن القيم « وهكذا طوائف الباطل لم يرضوا بنصوص الوحي بابتلوا بزيالة اذهان المتحبرين الصابئين»<sup>(٣)</sup> .

وهي تسمى أيضاً بالجهمية نسبة إلى مؤسسها وقد وجد لها أتباع كثيرون في العصر المملوكي تصدى لهم الدعاة ومن أهم الكتب التي فندت معتقداتهم كتاب الصواعق المرسله على الجهمية والمعضلة لابن قيم الجوزية<sup>(٤)</sup> .

أما الشافعية والمالكية والحنفية والحنابلة فكانت المذاهب الفقهية للسواد الأعظم من الناس في ذلك العصر .

### مظاهر النشاط الديني :

من أهم مظاهر النشاط الديني في ذلك العصر كثرة الدعاة والمصلحين ، ويمكن القول بأن ذلك كان من كثرة الفساد ولهم ، فرجاء الأخلاق وأهل الوعظ والإرشاد لما شأهاوا هذه

(١) محمد أبو زهرة : ابن تيمية ص ١٦٧ وما بعدها .

(٢) الشهرستاني موسوعة الملل والنحل، مؤسسة ناصر للثقافة ببيروت ، ط ١ ص ٣٦ . ١٩٨١ م .

(٣) المرجع السابق ص ١٧٨ .

(٤) وقد قال أحمد بن حنبل « من لم يؤمن بالرؤية فهو جهمي والجهمي كافر » انظر معارج القبول الشيخ حافظ بن احمد الحكمي (٢٤٢/١) دار ابن القيم . الدمام الطبعة الثالثة ١٤١٤ هـ . ١٩٩٣ م .

الحالة السيئة التي صار إليها الناس، وخصوصاً في الأحوال المعيشية أخذوا يكتبون الكتب والرسائل لدعوة الناس إلى سبيل الخير والبعد عن الشر، ومن هذه الكتب كتاب «الكبائر» لشيخنا الذهبي الذي بدت فيه عبارات النصح كما نرى روح الوعظ بادية في الكتب الدينية على إختلاف مناحيها وقد كانوا أولاً وقبل كل شيء يسدون النصيحة خالصة لوجه الله، ويبعثون العقلة، صادرة من قلب يملأه الأيمان وتغمره محبة الناس، ويشعرون أنهم يصنعون ذلك أداء لواجبهم الديني وقياماً بالأمانة التي حملوها أمام الله .

كما كانت تكثر المواجهات المباشرة بين العلماء ، وبين العصاة على إختلاف درجاتهم فلا تقتصر الدعوة للعامة فقط، منذ واجهه بعض علماء ذلك العصر ملوك زمانهم ، فهناك الرسائل التي كتبها علماء فضلاء إلى ملوك عصرهم ، مثل نصيحة شيخ علماء عصره محي الدين النووي إلى سلطان زمانه الظاهر بيبرس يطلب منه فيها الرفق بالرعية والعدل بينهم وإلغاء المكوس التي فرضها عليهم<sup>(١)</sup> . وقد تتبع سلاطين المماليك المنكر وحاربوه رغبة منهم في الظهور في صورة حماة الإسلام وأنصاره وذلك يكسبون حكمهم صبغة شرعية في نظر معاصريهم من ناحية ويعرضون ما أحسوا به من نقص بسبب أصلهم غير الحر من ناحية أخرى<sup>(٢)</sup> فآقروا بذلك وظيفة المحتسب الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويذكر المقرئ في حوادث سنة ٦٦٤هـ أن السلطان الملك الظاهر بيبرس أشد إنكاره للمنكر وأراق الخمر وعفي آثار المنكرات ومنع الحانات والخواطى بجميع أقطار مملكته بمصر والشام فظهرت البقاع من ذلك<sup>(٣)</sup> ، كما ذكر أن المصريين زعتادوا على تأجير المراكب التي يطوفون بها ومعهم آلات الموسيقى وهم يغنون ويمرحون ويطربون، فصدرت أوامر الحاكم بمنع مراكب النزهة بسبب مظاهر المجون والخلاعة التي كانت تصاحب مثل هذه الرحلات النيلية<sup>(٤)</sup> .

(١) حسن المعاصرة . للسيوطي ، ج٢ ص ٧٥ .

(٢) الظاهر بيبرس . د. سعيد عاشور ص ٢٧ .

(٣) السلوك . المقرئ ، ج٢ ص ٥٥٢ .

(٤) حسن المعاصرة . للسيوطي ج٢ ص ٢٠٦ .

وقد طبقت أحكام الشريعة الإسلامية على المخالفين لها وقد ذكر ذلك في كتب المؤرخين منهم ابن كثير الذي ذكر في حوادث سنة ٧٠١هـ أنه قتل الفتح أحمد بن الثقفي بمصر بحكم القاضي زين الدين بن مخلوف المالكي وذلك لما ثبت عليه من حطة للشريعة واستهزائه بالآيات القرآنية ومعارضة المشتبهات منها بعضها ببعض ولأنه كان يحل المحرمات من اللواط والخمر وزين ذلك لمن كان يجتمع لذلك من الفسقة الترك وغيرهم<sup>(١)</sup> . وفي سنة ٧٢٦هـ ضربت رقبة ناصر بن أبي الفضل الهيتي في ظاهرة دمشق بعد أن حكم القاضي المالكي بتكفيره وزندقته وتلاعبه بالإسلام<sup>(٢)</sup> ، كما قتل الزنديق إبراهيم بن يوسف المقسائي بدمشق لسبه الصحابة وقذفه عائشة رضي الله عنهم، ووقوعه في حق جبريل عليه السلام<sup>(٣)</sup> ، واستمر السلاطين في ابطال المنكر ، في طرابلس صدر مرسوم بإبطال المكوس وبناء المساجد في كل قرية من قرى النصيرية وإنكار المنكر فيها من مواطن الفسق وخمور يتظاهر بها ويتصل سبب الكبائر بسببها وإزالة الحانات التي تفوح بالعصاة<sup>(٤)</sup> ، كما ذكر أن ابن نائب السلطنة بدمشق أمر بأن ينادى في البلد بأن النساء يمشين في تسترو ويلبسن أزهرن إلى أسفل من سائر ثيابهم ولا يظهرن زينة أبداً<sup>(٥)</sup> ، وفي حوادث سنة ٦٦٧هـ يذكر المقرئ أن كثيراً من المفسدين وكتب السلطان إلي جميع البلاد بمثل ذلك<sup>(٦)</sup> وهناك مرسوم أصدره الملك المنصور عند خروجه إلى حرب التتار سنة ٦٧٩هـ يقول فيه « الأماكن التي يتجمع فيها الشباب وأولو الدعارة لا يفسح لأحد في الاجتماع بها في الليل أو النهار

(١) البداية والنهاية ، ابن كثير . ج ١٤ ص ١٨ .

(٢) تاريخ ابن الوردي ج ٢ ص ٢٧٨ .

(٣) المختصر في اخبار البشر تاريخ ابن الفداء . ج ٤ ص ١٤١ ط مكتبة المتنبى بالقاهرة بدون تاريخ وانظر . تذكرة النبيه السمن بن عمر بن حين (٤٩/٣) ط ١٩٨٦ م . الهيدة المصرية العامة للكتاب .

(٤) السلوك ، المقرئ . ج ٢ ص ٩٣٧ .

(٥) البداية والنهاية . ابن كثير ج ٤ ص ٩٣٧ .

(٦) السلوك ، المقرئ . ج ٢ ص ٥٧٨ .

ويكفون الكف التام بحيث تقوم المهابة وتعظم الحرمة وينزجر أهل البغى والعبث<sup>(١)</sup>، أما عن الملك الناصر فقد « ابدى تشدده لذلك في حدود الدين في مناسبات كثيرة : فقد تتبع المنكرات بالقاهرة وغيرها من عواضم ملكه وعاقب مرتكبيها في صرامة وقوة<sup>(٢)</sup>، وقد أرخ الإمام الذهبي لبعض هذه الحالات فقال : « وفي سنة ٧٢١هـ ابطلت الفواحش وارتبقت الخمر في الممالك السلطانية وغيرها من بلاد الشمرق وزوجت ألوف من الخواطي<sup>(٣)</sup>، وقال في حوادث سنة ٦٩٠هـ: أمر نائب السلطنة الشجاعى فنودى في دمشق بالتهديد على من يلبس عمامة كبيرة، أو لبست صبغات أو خرجت إلى المقارب وكذا من أكل حشيشاً، وكان ذا هيبة، فأنزجر الناس قاطبة<sup>(٤)</sup>، وفي سنة ٧١٨هـ ابطلت الفاحشة والقمار والخمر بالسواحل وقرنت بذلك المراسيم وكثير الدعاء للسلطان<sup>(٥)</sup> .

وكتب صاحب كتاب نهر الذهب أنه في سنة ٧٢٥ أفتى قاضي القضاة بتحريم الاجتماع بالمشاهد ومنع من شد الرجال اليها لما فيها من منكرات وبدع<sup>(٦)</sup> . ولعل أهم مظاهر النشاط الديني في ذلك العصر احياء الخلافة الإسلامية في مصر مما يترتب عليه ازدياد النشاط الديني في البلاد ، الأمر الذي عبر عنه السيوطي بقوله « أعمل أن مصر من حين صارت دار الخلافة عظم امرها وكثرت شعائر الإسلام فيها وعلت فيها السنة، وعفت منها البدعة وصارت محل سكن العلماء ومحط رجال الفضلاء».

(١) الوثائق السياسية والإدارية في العصر المملوكي د/ محمد ماهر حمادة . ص ٢٠٥ ط ١ سنة ١٤٠٠هـ .

(٢) الأدب في العصر المملوكي ، د. زغلول سلام : ج١ ص ٢٦ ط دار المعارف .

(٣) دول الإسلام : الذهبي ج٢ ص ١٧٢ ط الثانية ١٣٦٤هـ .

(٤) المرجع السابق ج٢ ص ١٤٦ .

(٥) المرجع السابق ج٢ ص ١٧٢ .

(٦) نهر الذهب في تاريخ حلب . كامل البالي الحلبي . (١٤٤/٣) دار القلم العربي بحلب - ط ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م مطبة الصالح . دمشق .

ومن مظاهر النشاط الديني كذلك إصلاح القضاء، وكان الوضع في مصر منذ زمن الأيوبيين أن يكون قاضي القضاة شافعيًا ولكن بيبرس أستاذ من تعنت قاضي القضاة الشافعي تاج الدين عبدالوهاب ابن بنت الأعز بسبب كثرة الشكاوى منه وقد روى المقرئني كثيراً من الشكاوى التي قدمت في حق ذلك القاضي إلى السلطان بيبرس وبعض هذه الشكاوى من رسول أمير المدينة النبوية وبعضها من الأمراء وبعضها من عامة المتقاضين، فأخذ السلطان بيبرس يناقش قاضي القضاة، فلم تكن تمر على ذلك المجلس أيام قليلة حتى أنحاء البلاد<sup>(١)</sup>.

وهناك ظاهرة هامة ميزت النشاط الديني في ذلك العصر هي اشتداد تيار التصوف وقد ساعد على إنتشار التصوف كثرة البيوت الخاصة بالصوفية والتي عرفت بالخوانق والربط الزوايا، وقد انقسم الصوفية إلى طرق عديدة لكل منها مشيخها وشعارها، ربما كان التصوف هو الفرع الوحيد الذي نما بعد سقوط بغداد أكثر مما كان قبله، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أن التصوف لا يحتاج إلى عقل كبير ويبحث كثير بل هو بالقلب والشعور ولذلك كانت دائرته أوسع. ولأن الناس فقدوا الدنيا فتطلعوا إلى الآخرة، وينسوا من العدالة الاجتماعية في الأرض فأملوها في السماء ولم يجروا وأن يثوروا في وجه الحكام فقتلوا بالسلامة في الأرض فأملوها بالخرفات والأوهام وأدخلوا فيها الغناء والموسيقى والرقص، وعلى الجملة كان في الحياة الصوفية ما يرضي النفوس ويطمئنها ويسلبها.

في هذا الحين<sup>(٢)</sup> ويبدو أن الأخطار التي ألمت بالعالم الإسلامي في القرن السابع الهجري على أيدي التتار والصليبيين جعلت كثيراً من الناس يرغبون في التوبة الخالصة إلى الله والزهد في الدنيا والعودة إلى سنة السلف الصالح للخلاص من الأوضاع السيئة التي

(١) النجوم الزاهدة لابن العباس يوسف بن شكري بردي . (١٠٩٧-١١٠) دار الكتب العلمية، بيروت ط الأولى ١٤١٣هـ-١٩٩٢م .

(٢) ظهر الإسلام : أحمد أمين ج٤ ص ٢١٩ ط ١٩٦٤م .



صار إليها المسلمون<sup>(١)</sup>، « وقد وفد على مصر في عهد المماليك كثير من مشايخ الصوفية المغاربة والاندلسيين كالسيد أحمد البدوي والحسن الشاذلي وأبي العباس المرسي وقد لاقوا قبولاً لدى المصريين »<sup>(٢)</sup>.

ويبدو أن انتشار الفقر وسوء الأحوال الاجتماعية قد حدا بكثير من الناس أن ينضموا إلى سلك الصوفية عن غير استعداد حقيقي، الأمر الذي جعل هذه المنشآت الصوفية تضم كثيراً من الدخلاء والأدعياء<sup>(٣)</sup>، وقد جرت العادة بأن يعين لكل خانقاه شيخ من الصوفية كما كانت معاهد ثقافية تدرس فيها العلوم الشائعة وكذلك كان لكل خانقاه أوقاف سخية تفي بأجور القائمين بالتدريس فيها كما ينفق منها على الصوفية، وقد حرصت الحجج الخاصة بأوقاف هذه المنشآت على وضع الشروط التي تكفل انقطاع الصوفية للعبادة وعدم تغييبهم عن الخانقاه. وكانت لهم أداب وتقاليد مرعية فكانوا بصفة عامة موضوع تقدير الناس وإجلالهم وكان الأمراء يتنافسون في بناء الزوايا لهم<sup>(٤)</sup>.

كما اعتنى السلطان الناصر بأمر الصوفية وأصدر مرسوماً بتقليد الشيخ نظام الدين الأصفهاني مشيخة المشايخ في الخانقاه الناصرية في الديار المصرية والشامية وقد بسط يد الشيخ في موارث الصوفية وأوقافهم بحيث لا يكون لأمين الحكم ولا لديوان الموارث معه في ذلك حديث ولا يكون لأحد من الحكام لا من جهة الحسبة ولا القضاء في ذلك حديث<sup>(٥)</sup>. وكما كان للفرق المختلفة بين المسلمين أو المسمين بالمسلمين نشاط وحركة كذلك كان حال

---

(١) الظاهر بيبرس : د. سعيد عاشور من ١٥٠. بتصرف . وانظر السيوطي : حسن المحاضرة (٢٩٢/١).

(٢) حسن المحاضرة ، السيوطي ج ١ ص ٢٩ . وانظر أيضاً الظاهر بيبرس لسعيد عاشور من ١٥٠-١٥١ بتصرف .

(٣) المجتمع المصري : د. سعيد عاشور من ١٧٤ ط ١٩٦٢ م .

(٤) بدائع الظهور : ابن إياس ج ٢ ص ١٤٢ .

(٥) صبح الأمشي : القلقشندي ج ١ ص ٣٧٢ .

« أهل الذمة » حيث بدت ظاهرة ملحوظة في ذلك العصر وهي أن العاطفة الدينية كانت أقوى من العاطفة الوطنية وهذا يفسر لنا إلى حد كبير ما ملئ به ذلك العصر من عداة النصارى للمسلمين والإسلام ، بل ما كان من فرحهم وتحبيبهم بالفرننج والتتار حين غزوا الوطن المشترك، فحينما دخل التتار بغداد اظهر المسيحيون عداةهم للإسلام والمسلمين ، وفي هذا يقول المقرئزي وفي حوادث سنة ٦٥٨ هـ : « واستطال النصارى بدمشق على المسلمين واحضروا فرماناً من هولاء كوا بالإعتناء بأمرهم وإقامة دينهم فتظاهروا بالخمير في نهار رمضان ، ورشوها على ثياب المسلمين في الطرقات وصبوا على ابواب المساجد والزموا ارباب الحوانيت بالقيام إذا مروا بالصليب عليهم وأهانوا من أمتنع عن القيام للصليب، وكانوا يمررون به في الشوارع إلى كنيسة مريم ويقفون به ويخطبون في الثناء على دينهم، وقالوا ظهر الدين الصحيح دين المسيح، فقلق المسلمون من ذلك، وشكوا أمرهم لثائب هولاء وهو كتبغا فأهانهم وضرب بعضهم وعظم قدر قسوس النصارى ونزل إلى كنائسهم وأقام شعائرهم»<sup>(١)</sup> .

وحيثما احتل هولاء كوا حلب وأمعن فيها قتلاً وتخريباً ولم يسلم فيها الأمن التجأ إلى ستة أماكن أحدها كنيسة اليهود فما كان هذا الا لوجود نوع من التفاهم بين الطرفين على حساب المسلمين<sup>(٢)</sup>، ولم يغفر لهم السلطان الظاهر بيبرس ذلك رغم أنهم حاولوا استرضائه فهاجم قرية فاربين وحمص ودمشق وكانت غالبية أهلها من السريان فقتل كبارهم وسبى النساء والأولاد<sup>(٣)</sup> .

كذلك اهتم السلطان الناصر بأمر أهل الذمة ومعاملتهم وأصدر سنة ٧٢١ هـ مرسوماً يقضي بفرض الجزية على مضاعفة نصارى الوجه القبلي في مصر ذلك أن جماعة منهم

(١) السلوك : المقرئزي ج ١ ق ٢ ٢٤٢ ط ١٩٧٠م وانظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢١٩ .

(٢) المختصر ج ٢ ص ٢٠٤ ط مكتبة المتنبى دون تاريخ.

(٣) السلوك : المقرئزي ج ١ ص ٥٥٣ .

تمكروا وطمعوا تهادوا في المخالفة لذلك جدد عليهم العهد العمرية نسبة إلى عمر بن الخطاب والزمهم تغيير زيهم بأن يلبسوا عمائم زرقاً وجنباً زرقاً ويشدوا الزناد في أوساطهم وأمر الا يستخدم أحد منهم لدى الدولة في أعمالها أو لدى أحد أمراء الدولة، وجعل عقوبة المخالف الإعدام<sup>(١)</sup> .

على أن ذلك لا ينفي اهتمام الإسلام بأمور أهل الذمة حيث أباح حرية الاعتقاد وحرية العبادة لأبناء الديانات الاخرى إذا قبلوا أن يعيشوا في ديار الإسلام وكذلك الحال مع اليهود ، وفي كثير من الأحيان كانت الدولة الإسلامية تتدخل لإقرار السلم بين الأطراف المتخاصمة، كذلك كان الخلفاء والسلاطين يصدرون المراسيم بتقليد رجال الدين من النصارى أو اليهود مراكزهم العليا، فهذا الملك المنصور قلاوون في سنة ٦٨٤هـ أصدر مرسوماً لتقليد رئاسة اليهود إلى المتطيب بن المهذب<sup>(٢)</sup> .

في هذا المناخ الديني المتعدد الأديان، والمتعدد الفرق والمذاهب داخل الدين الواحد عاش شيخنا الذهبي ولعل التخبط التخبط الذي رآه مجتمعه كان من أهم العوامل التي دفعته لتأليف الكتب التي تبين للناس سواء السبيل<sup>(٣)</sup>

---

(١) الخطط : المقرئزي ج٢ ص ٩٦٠ .

(٢) دراسة وثيقة للتاريخ الإسلامي د. محمد ماهر حمادة . ص ٤٠٦ . مؤسسة الرسالة ط ١٤٠٨هـ

(٣) سيااتي الكلام تفصيلاً عن مؤلفات الإمام في المبحث الخاص بذلك .

# المبحث الثالث

## الحالة الاقتصادية والاجتماعية في عصر الإمام الذهبي

ونيه مطلبان :

المطلب الأول : النشاط الاقتصادي .

المطلب الثاني : طوائف المجتمع .

## تمهيد :

من المسلم به أن الرخاء الاقتصادي يستلزم استقراراً سياسياً داخلياً وخارجياً وقد عاش الإمام الذهبي في عصر شديد الإضطراب من الناحية السياسية فالحروب تستنفذ بعض موارد الدولة من ناحية والصراعات والفتن الداخلية تستنفذها من ناحية ثانية، والإقطاع الذي حول أراضي مصر إلى ملكيات خاصة للمماليك يستنفذها من ناحية ثالثة، ذلك فضلاً عن المجاعات والأوبئة والكوارث الطبيعية، ولذا بلغت الحالة الاقتصادية في مصر والشام درجة من السوء لم يسبق لها مثيل، وذلك من جراء طول أمد القتال وخربت مدن وأقفرت حقول من الزراعة وتعطلت الصناعة واختل الأمن وأصبح الناس عرضة للسلب والنهب ومصادرة الأموال بل صاروا عرضة للموت جوعاً حيث ترتفع الأسعار ارتفاعاً فاحشاً حتى عجز الفقراء في أعوام كثيرة عن الحصول على ما يكفيهم من قوت حياتهم .

هذه كانت حال الشام ولم تكن حال مصر بأفضل منها، فكان على مصر أن تمول الشام وتمد الجيوش بكل ما تحتاجه من مال وطعام على أن هذه الحال لم تكن بهذه الدرجة من السوء دائماً، وإنما كانت تتخللها فترات من الرخاء والازدهار في حالة السلم أو في عهود بعض السلاطين الذين يبذلون الجهود لرفع مستوى حياة الرعية .

وقد قسمت المبحث إلى مطلبين هما :

١ - النشاط الاقتصادي .

٢ - طوائف المجتمع .

# المطلب الأول

## النشاط الاقتصادي

تقوم موارد كل إقليم على أسس ثابتة تتمثل في التجارة والصناعة والزراعة، ولما كانت بلاد الشام مركزاً تجارياً هاماً في منطقة الشرق الأوسط، لذا فإن التجارة تعتبر المورد الأول بالنسبة لاقتصادها وتأتي الصناعة في المقام الثاني بالنسبة لثروة بلاد الشام، أما الزراعة فهي في المقام الثالث حيث أن أقاليم بلاد الشام الزراعية تعطي غلة قليلة نسبياً وذلك لإعتمادها على المطر غالباً<sup>(١)</sup>.

### ١ - التجارة :

كانت التجارة عبر دولة المماليك رائجة رواجاً كبيراً، لأن مصر والشام احتلتا المراكز التجارية الهامة حيث كانت التجارة بين آسيا وأوروبا بحرية وكانت مصر والشام تلعبان دوراً هاماً فيها بواسطة البحرين الأحمر والمتوسط<sup>(٢)</sup>، وقد أدرك سلاطين مصر أهمية التجارة الخارجية لهم ولدولتهم فشجعوا التجار الأوروبيين الذين كثروا في المدن المصرية، وسار لكل جالية منهم قنصل يشرف على شئون أفراد الجالية ومصالحها الاقتصادية<sup>(٣)</sup>، وهكذا ظلت تجارة مصر الخارجية في عهد السلطان الظاهر بيبرس والعصور التي تليه، تمثل المورد الأول لثروة البلاد، أما « البلاد الشامية فقد ساعدتها طبيعتها لكي تكون حلقة بينقارات العالم القديم حيث تكاد تلتقي المياه الداخلية بالبحر المتوسط والبحر الأحمر والخليج العربي مما جعل للساحل الشرقي من البحر المتوسط أهمية كبرى<sup>(٤)</sup>، ولا شك أن

(١) مسالك الأبصار : د. أكرم ضياء العمري ص ٩٠ ط بيروت ١٤٠٧ هـ .

(٢) التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية . د. أحمد شلبي ص ٢٠٩ ط الأولى ١٩٦٧ م .

(٣) زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك . د. فرس الدين خليل بن شاهين، ص ٤١ ط بيروت .

(٤) المجتمع الإسلامي في بلاد الشام، د. أحمد رمضان ص ٢٠ ط ١٣٩٧ هـ بتصرف يسير .

دولة سلاطين المماليك في مصر والشام جنت فعلاً ثمار السيطرة على التجارة بين الشرق والغرب وجمعت من وراء ذلك ثروات ضخمة أتاحت لها الفرصة لبناء حضارة شامخة وقوة حربية ضاربة مكنتها من إحراز ما أحرزته من انتصارات بإذن الله<sup>(١)</sup> .

ففي عهدهم نشطت التجارة الخارجية . ولم تكن التجارة الداخلية أقل نشاطاً من التجارة الخارجية إذ حفلت المدن بالأسواق الزاخرة التي انفردت كل سوق منها بنوع معين من البضائع فسوق الشماعين اختص ببيع الشمع وسوق الدجاجين أشتهر ببيع الدجاج وهكذا<sup>(٢)</sup>، وقد دأبت الحكومة على فرض رقابة شديدة على التجار لمنعهم من الغش والتلاعب، وكان المحتسب لا يمكن نوبي البيوع أن يبيعتوا ضعفاء الرعايا أشياعهم، ولا يسمح لهم أن يرفعوا على الخلق أسعارهم<sup>(٣)</sup> .

## ٢ - الصناعة ،

وصلت الصناعة في هذا العصر إلى درجة فائقة من الجودة والدقة تشهد بذلك الآثار والبقايا التي ترجع إلى ذلك العصر، والتي تزخر بها دور الآثار في جميع أرجاء العالم ولم تقتصر المهارة الفنية للعمل والصناع على ما بلغوه من صناعات دقيقة في الأسلحة والزجاج والخزف والنسيج والحلي وغيرها، وإنما ظهرت أيضاً في الفنون الكبرى كالعمارة والتصوير والنحت كما ازدهرت صناعة السفن والمصنوعات الفنية والحديدية والمحفورات الخشبية وغيرها<sup>(٤)</sup>، كما أحدث الصناع تطوراً عظيماً في صناعة الورق ونشرها في العالم وقد ظلت دمشق تفاخر بما تصنع من السيوف الممتازة .

(١) مصر وعالم البحر المتوسط ، د. رؤوف عباس ص ٢٠٦ ط ١٩٨٦ م .

(٢) المواعظ والإعتبار ، المقرئزي (٩٦/٢) .

(٣) صبح الأمشى ، القلقشندي ج ١١ ، ط ٢١٠ ط دار الكتب .

(٤) تاريخ سوريا : فيليب حتى ص ٢٨٧-٢٨٩ ط الثانية ١٩٨٣ م . دار الثقافة بيروت ، ترجمة د/كمال اليازجي .

### ٣ - الزراعة ،

لابد أن يؤدي بنا سياق الحديث عن الزراعة إلى الحديث عن الإقطاع « والمقصود بالاقطاع المملوكي هو ما يتحصل من الأرض من غلة أو مال، بالإضافة إلى إنتاجية بعض القطاعات الأخرى التي تجري عليها المكوس، والمقطعون جميعاً كانوا يدفعون الخرج والزكاة»<sup>(١)</sup> والتي تجري على الأمراء والجند وعمامة قطاعاتهم بلاد وأرض يستغلها مقطعها ويتصرف فيها كيف يشاء . فالفلاح في ذلك العصر كان مظلوماً ومهملاً فلم يكن ينال مما تخرجه الأرض إلا الكفاف وهذا الاقطاع الخراجي هو ما عرف بإقطاع الإستغلال<sup>(٢)</sup> .

فأجازوا إعطاءه لأهل الجيش مقابل ما هو مقرر لهم من الرزق، وقد ترتب على ذلك أن تحول معظم زراع مصر إلى إجراء على أساس أن الممالك طبقة حربية لا يقومون بأنفسهم بزراعة الأرض، وجرت العادة أن ينتقي السلطان الأراضي الجيدة ويدخلها في إقطاعه الخاص وهو إقطاع يحوز به بوصفه سلطاناً ويوزع الخاص السلطاني في أنحاء السلطنة فقد كانت غوطة دمشق وما يحيط بها من خاص السلطان الناصر محمد ، ويبدو أن نظام الإقطاع ابتع منذ عصر صلاح الدين ثم ظل سائداً في مصر طيلة عصر المماليك فكان في جملة مساوئ العصرين .

ولم تكن إصلاحات سلاطين المماليك الزراعية إلا المصلحة المماليك أصحاب الإقطاعات. لذلك أهتم بعضهم مثل السلطان بيبرس بتطهير الترغ وحفر الخجان وإصلاحها وحفر عدد كبير من الترغ، وفي بلاد الشام أنشاء جسوراً كثيرة بالفور والساحل ثم وقف عليها وفقاً لإصلاح ما يتهدم منها<sup>(٣)</sup> .

(١) الدولة المملوكة، د. انطوان ص ٩٨-٩٩ . دار العداثة بيروت ١٩٨٢ م .

(٢) المجتمع الإسلامي في بلاد الشام ، د. أحمد رمضان ص ٢٣٠ .

(٣) النجوم الزاهدة، ابن تغري بردي جمال دين أبو الحاسن يوسف الأتبيكي ص ١٤٩ ط دارالكتب .



## الضرائب :

تحدثنا عن نظام الإقطاع كسيئة من سيئات ذلك العصر، أثرت على اقتصاده كما أثرت الضرائب والمجاعات والابوثة عليه .

ففي عصر المماليك كان القلب والاضطراب بما ينعكس على الشعب في صورة ضرائب باهظة وقد كانت تحدث ظروف تكلف الدولة النفقات الكثيرة وكان السلاطين يصادرون بسببها كثيراً من أموال الأغنياء ، وتفرض على الشعب مزيداً من الضرائب وكانت هذه الضرائب تدفع التجار إلى رفع الأسعار عدة مرات في بعض الأحيان بون خوف من العقاب لأنهم كانوا يجدون المبرر والمعذر في تلك الضرائب، كما تكشف هذه الضرائب عن طبيعة العلاقة بين المماليك ورعاياهم<sup>(١)</sup>، ومن تلك الضرائب ما كان في أجرة الصناعات لخزائن السلاح ضرائب مستقرة<sup>(٢)</sup>، كما كانت هناك ضريبة تفرض على المراكب والقوارب تسمى حماية المراكب، وقد أبطلها الناصر محمد فيما أبطله من المكوس، كما أبطل الضرائب غير الشرعية في طرابلس والمنطقة المحيطة بها<sup>(٣)</sup> .

## المجاعات والكوارث :

يتصل بالقلق الاقتصادي ما كان يحدث بالبلاد من مجاعات نتيجة لانخفاض النيل، أو نتيجة لأغتصاب المماليك أقوات الناس وبوابهم لا سيما في أوقات الإعداد لبعض الحملات الحربية ، وأخبار المجاعات وموجات الغلاء كثيرة في هذه الفترة، وتعكس كثرتها صورة الإضطراب الاقتصادي بالبلاد وعدم استقرار الأمور على حال واحدة، فقد مرت مصر والشام بأزمات اقتصادية ومجاعات عاشها الإمام الذهبي وعبر عنها في بعض كتبه ومن أمثلة تلك المجاعات ما حدث في عام ٩٦٥هـ حيث أجذبت البلاد وشح النيل وأرتفع

(١) عصر سلاطين المماليك ، د/ محمود رزق سليم ص ٢٨٣ .

(٢) المؤلف مجهول خزائن السلاح والكتاب حققه نبيل عبدالعزيز ص ٩ ط ١٩٨٧م .

(٣) التاريخ الإسلامي ، د. أحمد شلبي ج ٥ ص ١٩٣ وانظر د. محمود رزق سليم عصر سلاطين المماليك ص ٢٥٤ .

ثمن الحاجيات وأشدت الأمر على الناس حتى أكلوا الكلاب والحمير والبغال، ثم أرسل الله على الناس الجراد بوفرة عظيمة فأقبلوا على تناوله، وقد عم الغلاء ومات الناس جماعات وفي الطرقات<sup>(١)</sup>، وفي عام ٧٠٦هـ وقع غلاء فاحش في البلاد وغلّت الغلات واضطرب الناس<sup>(٢)</sup> فأمر السلطان الناصر محمد بفتح مخازن غلاله ففتحت وبيع منها للناس بثمان رخيص فصلح الأمر وأنخفضت أسعار القمح وزالت الشدة عن الناس<sup>(٣)</sup>.

وإلى جانب المجاعات تعرضت مصر في هذه الفترة إلى زلزال كبير في سنة ٧٠٢هـ ووصفه ابن كثير بقوله «وفيها جاءت زلزلة عظيمة يوم الخميس بكرة الثلاثاء من ذي الحجة وتلاطمت بسببها البحار فكسرت المراكب وتهدمت الدور ومات خلق كثير لا يعلمه إلا الله وشققت الحيطان» ولم ير مثلها في هذه الأعصار وكانت هذه الزلزلة متصلة إلى دمشق وغالب البلاد الشامية<sup>(٤)</sup> وكان منها بالشام طائفة لكن كان ذلك أخف من سائر البلاد وغيرها.

ولم تكن الفتن والمؤامرات بين المماليك أقل خطراً على الحياة الاقتصادية من المجاعات والكوارث، فقد تأثر الوضع الاقتصادي تأثراً بالغاً بما كان يحدث في الدولة من الفتن والمؤامرات، حيث تغلق الأسواق وتتوقف وسائل الرزق مما يؤدي بالتالي إلى تشنج كامل في الحياة الاقتصادية ومن الفتن الداخلية ثورات العربان فقد كان في داخل البلاد كثير من هؤلاء يقيمون في أنحاء متعددة، وكان منهم عرب صحراء الشام ويغلب عليهم حب النهب والسلب، وكانوا يتحينون الفرص ليغيروا على البلاد فلاحيتها وزراعتها فيسلبوا من قوتهم

(١) السلوك، المقرئزي ج ٢ ص ٢٩.

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير ج ٣ ص ١٩١.

(٣) عصر سلاطين المماليك، د. محمود رزق سليم ص ٢٢٣ م ٢ ق ٢ ج ١.

(٤) بدائع الزهور، الجزء الأول القسم الأول (٤١٦-٤١٧) مجموعة احمد بن عباس الحنفي تحقيق عن محمد مصطفى - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

ودوابهم<sup>(١)</sup> . وقد شارك شيخنا الإمام الذهبي في تسجيل تلك الحوادث التي عاصرها يصفها وصف انسان معايش معها يتزثر لحال الأمة، فوصف السيل الذي غمر البلاد حيث قال :«وهدم السيل مامر عليه وكان منظرا مهولاً وظن أنها القيامة، والذي هدم من البيوت والحوانيت ستمائة موضع<sup>(٢)</sup> » ثم يصف المجاعة والقحط المفرط في أربيل بقوله:«وأكلوا الجيف وباعوا أطفالهم ومات خلق من الجوع حتى أن رجلاً باع ولده برغيف فاكله ثم مات وجرى مالا يوصف وأستمر ذلك زماناً .... ودفرت القرى فله الأمر»<sup>(٣)</sup> ، ثم يروى « وفي ربيع الآخر سنة ٧٢٤هـ كان الغلاء بدمشق وغيرها حتى بلغت الغرارة مائتي درهم ثم نزلت إلى مائة وشعرين عندما جاء الجلب من مصر، وفي شوال سنة ٧٢٢هـ وقع الغلاء بدمشق وأكل الناس الشعير»<sup>(٤)</sup> .

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير ج١٣ . ١٣٠ .

(٢) دول الإسلام ، الذهبي ج٢ ص١٧٠ ط الثانية ١٣٦٤هـ .

(٣) المرجع السابق ج٢ ص ١٧٠ .

(٤) المرجع السابق ج٢ ص ١٧٧ .

# المطلب الثاني

## طوائف المجتمع

عاش الإمام الذهبي في الشام حيث كان المجتمع الشامي يموج بالكثير من الأجناس، فهناك الترك والعرب والفرنجة والتتار الذين وقعوا في الأسر وأقاموا في البلاد وأعتنقوا الإسلام، وهناك الأرمن واليهود والنصارى وغيرهم فكان مجتمعاً خليطاً من العقائد واللغات والعادات والتقاليد .

وهذا المجتمع الخليط لا بد أن يسوده جو من عدم الاستقرار نتيجة لوجود الصراع الاجتماعي بين الطبقات، هذا المجتمع الطبقي انقسم في بنائه إلى طبقتين رئيسيتين هما الحكام والرعية ، أي السلطان بجهازه الحاكم بجناحيه العسكري والمدني .

وغير ذلك من الشعب ومع تسليمنا بوجود الفوارق والاختلافات داخل كل من هاتين الطبقتين فإن واقع المجتمع في ذلك العصر يكشف أن كلاً منهما قد عاشت حياتها الاجتماعية بمعزل عن الطبقة الأخرى تقريباً، ولم تكن العلاقة بين السلطان والرعية قائمة على أساس من الحقوق والواجبات المتبادلة ولم تكن حكومة المماليك تلتزم أمام رعاياها بأية مسؤوليات عامة في مجالات التعليم والصحة وغيرها فباستثناء الأمن الداخلي والدفاع عن الحدود الخارجية ظلت مسؤولية الخدمات العامة من مهام المؤسسات الخاصة ثم نظام الأوقاف الذي كان من أهم دعائم الحياة الاجتماعية في عصر سلاطين المماليك<sup>(١)</sup> ، ويمكننا ترتيب المجتمع في هذا العصر من أعلى لأسفل على النحو التالي :

### ١ - المماليك ، الجيش وعلى رأسهم السلطان ،

وهم طبقة لها كل الحقوق والإمتيازات ويمتلك أفرادها الأرض الزراعية التي قام

---

(١) عصر سلاطين المماليك ، قاسم عبده قاسم ص ١١٦ ط ١٩٨٢ م .

عليها إقتصاد البلاد وقد عاشوا حياة اجتماعية خاصة بهم إذ إنهم جاؤا غرباء وعاشوا غرباء وحافظوا على غربتهم بإعتبارهم أبناء طبقة عسكرية يحتفون القتال كمهنة يرتزقون منها . ولم تكن لهم أي روابط تجمعهم مع الرعية بل كان كل ما يعينهم الشعور بالسعادة وإشاعة الرهبة والخوف في نفوس الناس فهم الأمراء على إختلاف مراتبهم<sup>(١)</sup>، وأعلامهم مرتبة السلطان ثم مماليكه ثم مماليك الأمراء ثم طائفة أجناد الحلقة، وهم أبناء الأمراء الذين يلتحقون بالجيش .

#### ٢ - أرباب الأقاليم ،

وهم كبار موظفي الدولة منغير العسكريين الذين يشغلون مناصب الوزارة وكتابة السر ونظر الجيش ونظر الأحوال ونظر الخزانة ونظر البيوع ونظر المال ونظر الأصطبلات<sup>(٢)</sup> .

#### ٣ - العلماء ،

ويشكلون الفئة الاجتماعية الثالثة، وكانوا يعيشون على ما تدره أوقاف مدارسهم، إلا من له شيء على سبيل التجارة أو الراتب ، وذلك قليل نادر لا حكم له<sup>(٣)</sup>، وكان شيخنا الذهبي له صنعة تدر عليه الأموال ألا وهي دق الذهب وصياغته والتي ورثها عن أبيه .

وكان لهذه الفئة من الناس وهم العلماء نفوذ قوي أمام نفوذ الحكام، ومأتى نفوذهم هو الدين نفسه، وذلك يتضح في مواقف الشيخ عز الدين بن عبد السلام مع بعض السلاطين المماليك<sup>(٤)</sup> .

(١) الوثائق في خدمة الآثار . عبداللطيف البغداد . ص ٢١٢ ط ١٩٥٨م القاهرة م .

(٢) مسالك الأبصار . العمري . ص ٥٠ .

(٣) المرجع السابق ص ١١١ .

(٤) النجوم الزاهرة ٧٢/٣ .

كما كانت للشيخ محي الدين النووي مواقف مشهورة مع الملك الظاهر بيبرس<sup>(١)</sup>.

#### ٤ - التجار ،

ولقد تمتع أبناء هذه الطائفة بثراء واسع ، وقد عمد السلاطين إلى تقريب التجار منهم؛ إذ أنهم المصدر الأساسي الذي يمد الدولة بالمال، على أن كثرة الثروة في أيدي التجار، قد جعلتهم في كثير من الأحيان مطمع سلاطين المماليك فآكثروا من مصادرتهم بين حين وآخر إذا ما احتاجوا إلى الأموال<sup>(٢)</sup> فضلاً عن الرسوم والضرائب الباهظة التي كانت تفرض عليهم .

#### ٥ - العامة ،

وهذه الطائفة تشمل التجار وأصحاب الحرف والصناع والفلاحين وعمامة أهل المدن، وهؤلاء كان عليهم الكد والكسح، وما كان الواحد منهم يصل إلى ثمرة عمله كله لما كان ينويهم من مظالم ومكوس مختلفة ترهقهم في أحيان كثيرة<sup>(٣)</sup> .

وعلى الرغم من ذلك كان الصناع وأرباب الحرف في ذلك العصر أحسن حالاً من الفلاحين، إذ وجدت لكل حرفة نقابة تنظم شئون المشتغلين بها وتحدد معاملاتهم فيما بينهم أو بينهم وبين الجمهور، كذلك كان لكل نقابة رئيس أو شيخ يرأسهم، ويقضي في مشكلاتهم، ويرجعون إليه في كل ما يهمهم، لاسيما في الوساطة بينهم وبين الحكومة<sup>(٤)</sup> .

وعندما نتحدث عن أحوال أهل البلاد الاقتصادية والاجتماعية لا بد من ذكر نبذة عن أحوال الطوائف الدخيلة على البلاد الذين منهم :

- 
- (١) ابن تيمية ، ترجمة د. يوسف موسى . ص ٢٨ ط ١٩٦٢ م .
  - (٢) بدائع الزهور ، ابن أبياس ج٢ ص ٢٤٥ « حوادث سنة ٨٩٢ هـ » ط ١٩٨٢ م .
  - (٣) المجتمع المصري عصر سلاطين المماليك . د. سعيد عاشور، ص ٣٦ ط الأولى ١٩٦٢ م .
  - (٤) مدن الشام في العصر المملوكي ، لابيدوس ص ١٣٧ ط دار حسان ١٤٠٥ هـ .

## أهل الذمة ،

وقد كان أهل الذمة يكونون أقلية كبيرة في ذلك الحين، نصفهم من اليهود والنصف الآخر من النصارى ، ويبدو أن ثروة مصر والشام وتجارتهما في ذلك العهد قد اجتذبت كثيرين من البلاد الأجنبية ، الذين استوطنوا المدن المصرية والشامية .

وقد حظى كثيرون منهم بثراء واسع جعلهم مطمع السلاطين، إذ كانوا يصادرون طوائفهم حين احتياجهم إلى الأموال<sup>(١)</sup> .

كما استطاع بعض الأقباط أن يصلوا إلى العمل في دواوين الحكومة ، بل وصل بعضهم إلى منصب الوزارة<sup>(٢)</sup> .

## الأقليات الأجنبية ،

وجدت بالبلاد مجموعة كبيرة من الأقليات الأجنبية الموزعة على المدن المختلفة، وكان لأبناء كل جالية فنادق خاصة بهم يتمتعون دخلها بقسط من الحرية ، أما خارجها فقد فرض المجتمع عليهم نظاماً معينة في سلوكهم، فلم يسمح لهم مثلاً بركوب الخيل شأن أهل الذمة، كما فرض عليهم إغلاق أبواب فنادقهم مساء كل يوم ووقت صلاة الجمعة، وقد اعتبر السلاطين أولئك الأجانب رهينة لدى الدولة ، فإذا حدث أعدتاء من الدولة الأجنبية على بعض الثغور الإسلامية ، وأسر من أحد أو نهب منهم شيء فإن الاقتصاد قد يكون من الفرنجة الموجودين بمصر، أو يكون تهديد الدولة المعتدية بذلك<sup>(٣)</sup> .

## التتار المسلمون ،

ظهرت هذه الطائفة في ذلك المجتمع في مطلع عهد المماليك، وهي طائفة التتار الذين

(١) بدائع الزهور، ابن اياس ج٢ ص ٢٤٩.

(٢) المجتمع المصري في عصر المماليك د. سعيد عاشور ص ٥٥ .

(٣) بدائع الزهور ، ابن اياس ج٢ ص ٢٤٦.

فروا من حكم قاداتهم ولجأوا إلى مصر وقد اعتنقوا الدين الإسلامي فرحب بهم سلاطين  
المماليك وبخاصة بيبرس، رجاء أن يتخذهم أعواناً له وينتفع بقوتهم وشجاعتهم ضد  
منافسيه في الداخل وأعدائه في الخارج<sup>(١)</sup> في هذه الظروف الاقتصادية المضطربة، وبين  
هذه الطوائف المتباينة عاش إمامنا الذهبي، فلم تكن هذه الإضطرابات لتثنيه عن عزمته  
في العلم والتعليم، بل استطاع أن يتفوق عليها ويجعل بعضها مادته في التأليف والتدريس  
والدعوة إلى الله تعالى .

---

(١) التاريخ الإسلامي والحضار الإسلامية . د. أحمد شلبي ص ٢١٩ .



# المبحث الرابع

## الحالة العلمية في عصر الازهبي

وفيه ثلاث مطالب :

المطلب الأول : عوامل نشاط الحركة العلمية ومظاهرها .

المطلب الثاني : دور العلم ونظم التعليم .

المطلب الثالث : نشاط العلماء .

## ﴿ الحالة العلمية في عصر الذهبي ﴾

يعتقد بعض المؤرخين أن « سوء الأحوال السياسية قد إنعكس على الحياة الفكرية والثقافية في هذا العصر ، وهذا يخالف الواقع»<sup>(١)</sup> حيث كان لهذا العصر محاسنه كما كان عليه بعض المأخذ، فهو ليس من عصور الازدهار وليس من عصور الانحدار، وإنما هو مرحلة حرجة من تاريخ الأمة الإسلامية « ولقد استطاع أن ينقل للعصر الحديث التراث العلمي الإسلامي الأصيل على الرغم مما حل فيه من أحداثٍ جسام »<sup>(٢)</sup> .

وإذا لم يُحسب للبيئة العلمية التي نشأ فيها الذهبي أنها بيئة مبدعة، فلا بد أن يحسب لها أنها حافظت على إبداع السابقين ونقلت حضارةً إسلامية ثرية كانت معرضة للضياع شأنها شأن العطاء الحضاري الذي ضاع في بغداد عندما دكها المغول .

ولعل سبب ذلك هو حالة التحدي التي عاشها علمنا الإسلامي في تلك المرحلة، فالصراع يدعو غالباً إلى الصمود ، وحالة الحرب تدفع إلى اليقظة والإستعداد، فانكب علماء الإسلام على حماية التراث الإسلامي كما اندفع آخرون منهم إلى صنيع آلة الحرب والتقدم في مجال الإختراع ، وصنع الحضارة الإنسانية ، مما كان فخراً للمسلمين، حيث سبقوا الغرب وتفوقوا عليهم في الوقت الذي كانوا يعيشون فيه في الوحل .

وحتى نتعرف عن قرب على الحالة العلمية في عصر الإمام الذهبي، رأيت أنه من الأفضل تقسيم هذا المبحث إلى ثلاثة مطالب .

---

(١) تاريخ الأدب العربي في العصر المملوكي د. عمر موسى باشا ص ٣٦ ط دار الفكر المعارص . بيروت ، ط ١٤٩٩هـ - ١٩٨٩م بتصريف .

(٢) المرجع السابق ص ٣٧ .

## التمهيد :

كان عصر الذهبي عصر علم وانتشار للمدارس التي ملأت آفاق العالم الإسلامي ولا سيما في بلاد الشام المحروسة . وكان تحفيز الأمراء للعلماء عاملاً كبيراً في تشجيعهم ورفع الروح المعنوية، أضف إلى ذلك الإجزال لهم في العطاء ، دعاهم إلى التباري فيما بينهم على جودة القريحة، وهذا وفر لهم الاستقرار في حياتهم الخاصة فما أصفى الجود النفسي فشمروا عن الجد والاجتهاد مما أوجد الجو العلمي البعيد عن الأحقاد أضف إلى ذلك شيوع المدارس وكثرتها حفز الطلاب على أخذ الرحلة والانتقال إليهم والعيش في كنفها .

أضف إلى ذلك الإهتمام بنسخ المؤلفات ولا سيما تلك التي عليها التعويل في الدرس والتحصيل مما جعل الطلاب والعلماء يتسابقون إلى اقتنائها ومعرفة ما بداخلها والاطلاع على الاجتهادات الفقهية وعلاج المشاكل التي تعانيتها المجتمعات .

# المطلب الأول

## عوامل نشاط الحركة العلمية ومظاهرها

### أ - عوامل نشاط الحركة العلمية :

١ - ميل الحكام للعمل وتشجيعهم له : غرف كثير من ملوك الأيوبيين بميلهم إلى العلم ومشاركتهم فيه واغداقهم على العلماء وتكريمهم. فكان صلاح الدين شديداً الاهتمام بعلوم الدين وكان يحضر كثيراً من مجالس العلماء المشهورين<sup>(١)</sup>، وجمع العلماء من جميع المذاهب السنية لنشر المذهب السني<sup>(٢)</sup> كما خصص للشافعية مدرسة عرفت بزین النجار. وبنى مدرسة المالكية عرفت بالقمحية كما أنشأ خانقاه سعيد السعداء، حيث أقام بها الصوفية وكان بها دروس علمية<sup>(٣)</sup>، أما الماليك فقد رأوا أنه لا شيء يقربهم إلى الشعب ويوطد سلطانهم إلا أن يعظموا الدين وأهله ويرفعوا قدر أهل العلمي والعلماء، فأسسوا المدارس، وهرع إليها الألوفاً من الطلاب<sup>(٤)</sup> ينهلون العلم ويدرسون الفقه على مختلف مذاهبه .

كما بذل الماليك للعلماء المال الكثير والمناصب الرفيعة حتى يُغذوا السير في التأليف وجمع شوارد العلوم حتى فاضت خزائن الكتب بآثار عقولهم وثمار أفكارهم، وعمدوا إلى الذين تخرجوا في اللغة والذين نبغوا في الإنشاء فاتخذوا منهم حاشية وفسحوا لهم مجال العمل والترقي في ديوان الإنشاء<sup>(٥)</sup> .

- 
- (١) الحركة الفكرية في مصر ، د. عبداللطيف حمزة ص ١٤٩ ط ١٩٦٨ م .
  - (٢) أبو حيان النحوي، د. خديجة الحديثي ص ٥٥ ط ١٣٨٥ هـ مكتبة النهضة . بغداد .
  - (٣) حسن المحاضرة . السيوطي ج ٢ ص ١٨٥ ط ١٢٩٩ هـ مطبعة إدارة الوطن .
  - (٤) تبصير التنبيه بتجريد المشتبه ، تحقيق محمد علي النجار ، مقدمة المحقق ص ٤ ط ١٣٨٦ هـ ابن تيمية وجهوده في التفسير د. ابراهيم خليل بركة ص ٣٤ ط ١٤٠٥ هـ .
  - (٥) الأدب في العصر المملوك . محمد كامل الفقي ، ص ٣٤ ط ١٤٠٥ هـ .

وقد دفع الماليك إلى حب العربية وأدائها على الرغم من عجمتهم أنها لغة الدين الإسلامي الذي وصلوا إلى عرش السلطنة بإسمه ، وأعطاهم به الناس الولاء والسمع والطاعة، وربما كان لنشأتهم في الرق أثر في الإقبال على الشعراء وتشجيعهم ليشيدوا بمآثرهم كي ينسى الناس ماضيهم ولا يذكروا غير حاضرهم المجيد<sup>(١)</sup>.

إن هؤلاء ينتمون في الأصل إلى البلاد التي أسهمت في بناء الحضارة الإسلامية وأنجبت أبرز علماء الإسلام في علوم الدين الإسلامي كالبخاري ومسلم والترمذي وغيرهم كثيرين .

وفي علوم الطبيعة كالرياضيات والكيمياء والفيزياء وغير ذلك من العلوم التي كان لها أعظم الأثر في رقي المسلمين وبلوغهم الغاية في العلم والتقدم فهم مسلمون ينتمون إلى دوحة الإسلام الوارفة بالأمن والأمان .

في حين يرى البعض أن هذه الغيرة على العلم ورجاله في عهد الماليك كانت رد فعل للنكبة الكبرى التي حلت في الأرض العربية على أيدي المغول ، فلقد قتل هؤلاء المتوحشون كثيراً من العلماء ببغداد وغيرها وأتلفوا كثيراً من دور الكتب فأضاعوا على العربية والبلاد ذخائرها وأثمن كنوزها وثمرات عقولها<sup>(٢)</sup>.

وقد عني ببيرس عناية كبرى بالعلوم والمعارف ضمن برامجه الإصلاحية التي شملت الزراعة والري وتخفيض الضرائب إلى أقل حد ممكن على الرغم من كثرة حروبه<sup>(٣)</sup>.

---

(١) الحركة الشعرية زمن الماليك في حلب الشهباء، د. أحمد فوزي الهيب، ص ٧٦ ط ١٤٠٦ هـ مؤسسة الرسالة بيروت

(٢) مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني ، د. بكرى شيخ أمين، ص ٥٧ ط ١٣٩٢ هـ دارالشرق . بيروت .

(٣) التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ، د. أحمد شلبي جـه، ص ١٩٠ ط ٦ ١٩٨٧ م مكتبة النهضة المصرية - القاهرة .

٢ - ذبوع المدارس والمعاهد في شتى أرجاء مصر والشام والحجاز: والتي كانت تنخر بالدروس والبحث، وتموج بالعلماء والناهبين، ولقد ذكر النعيمي في كتابه: «الدارس في تاريخ المدارس» أكثر من «٢١٠» مدرسة في الشام منها على سبيل المثال:

#### ١ - دار الحديث النورية :

« بنى نور الدين محمود دار الحديث بدمشق وهو أول من بنى داراً للحديث، ونور الدين هذا هو الملك العادل أبو القاسم محمود بن أبي سعيد زنكي بن أت سنقر التركي الشهيد، توفي - رحمه الله تعالى - يوم الأحد الحادي من شوال سنة ست وستين وخمسائة وقت طلوع الشمس عن ثمان وخمسين سنة»<sup>(١)</sup>.

#### ٢ - المدرسة الجوزية :

«هي بسوق القمح بالقرب من الجامع - بدمشق - أنشأها محي الدين بن الشيخ جمال الدين أبي الفرج عبدالرحمن بن الجوزي - رحمه الله تعالى - بعد الثلاثين في أيام الملك الصالح، ومحي الدين بن الجوزي صاحب العلامة سفير الخلافة يوسف بن الشيخ أبي الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد التيمي البكري الحنبلي البغدادي وهو استاذ دار المستعصم بالله ، ولد سنة ثمانين وخمسائة»<sup>(٢)</sup>.

٣ - التنافس بين العلماء ،: « وما أذكى ذلك التنافس وما خصص لهم من المراكز المرموقة في ديوان الإنشاء، وفي القضاء وفروعه، وفي مشيخة الإسلامى ومشيخة المساجد والمدارس، وإسناد التدريس لهم»<sup>(٣)</sup>.

(١) الدارس في تاريخ المدارس، عبدالقادر بن محمد النعيمي الدمشقي : ج١ ص ٩٩ ط مكتبة الثقافة الدينية تحقيق جعفر الحسني .

(٢) المرجع السابق ج٢ ص ٢٩ .

(٣) الأدب العربي، الفقي . ص ٥٣ . الهيئة المصرية العامة ١٩٧٦ م .

٤ - وجود مناخ صحي : أتاح الحرية التي كان يتمتع بها رجال الفكر والعلم والأدب في التنقل والإقامة والأخذ والعطاء والتأثير والتأثر في جميع بلدان الدولة المملوكة وإن كان أكثرهم ينظر إلى القاهرة نهاية لطافه، «وقد ساعدتهم على هذا تلك التسهيلات التي يتمتع بها العلماء في كل بلدة يحلون فيها من حق الإقامة والطعام والإكرام والدراسة والتدريس والتوظيف ، الأمر الذي يجعل من الصعوبة تخصيص عالم بقطر دون سواه ، فالشام ومصر بيئة واحدة في ذلك العهد»<sup>(١)</sup> .

٥ - « شعور العلماء وأنهم إزاء مسئولية تاريخية كبرى تقتضيهم القيام بواجب نشر الدين وتجديد العلم وجمع شتات المعارف وتصنيفها كتباً تكون عوضاً عما أبيض وصدى لما فقد»<sup>(٢)</sup> .

#### ب - مظاهر نشاط الحركة العلمية :

ارتفعت الحياة العلمية في مصر والشام إرتقاءً كبيراً كان من أهم مظاهره:

#### ١ - وفود الطلاب إلى معاهد العلم :

فقد كان للعناية الكبيرة بدور التعليم أثره البالغ في اجتذاب أعداد كبيرة من الطلاب الذين وجدوا البيئة مهيأة للإقامة والتفرغ لطلب العلم .

#### ٢ - كثرة العلماء والأدباء :

زخر العصر بعدد وافر من العلماء في شتى العلوم في الفقه على المذاهب الأربعة، وعلم الكلام والتصوف واللغة والنحو والطب والتاريخ والفلك وغيرها، وقد قام كثير من هؤلاء العلماء بالفتوى والتدريس والوعظ والتأليف، وشغلوا مناصب القضاء والكتابة وما إليها . كما نشطوا في التأليف بسبب المناظرات العلمية التي كثيراً ما كانت تنور

(١) الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء، د. أحمد فوزي الهيب . ص ٧٧ ط ١٤٠٦هـ

(٢) عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي . محمود رزق سليم ، ج ٢ ص ٢٥ ط ١٣٨٤هـ دار الحماس للطباعة.

بينهم مما أثرى الحياة العلمية .

### ٣ - نشاط الحركة التأليفية :

وهي أهم مظاهر النشاط العلمي، فلقد أنتج علماء هذه الحقبة آلافاً من الكتب في مختلف ألوان المعرفة، ولقد عرف عن بعضهم أنه ألف وحدة مئات من الكتب كما بين تيمية الذي قيل إن مؤلفاته أربت على خمسمائة<sup>(١)</sup> وكذلك ابن القيم، كما كان لشيخنا الذهبي المؤلفات العديدة التي سوف أتحدث عنها في مكانها من البحث .

٤ - إجراء الرواتب للعلماء والطلاب على حد سواء، وتقديم الأتعاب والكسوة والعطايا المختلفة في مناسبات شتى مما شجعهم على الدأب والتحصيل<sup>(٢)</sup> .

---

(١) المرجع السابق (١/٨٧، ٨٨) . محمود رزق سيليم ج٢ ص ٨٧-٨٨ .

(٢) نفس المرجع ٦٤/٣ .



# المطلب الثاني

## دور العلم ونظم التعليم

شهد العصر المملوكي نشاطاً ثقافياً واسعاً كما شهد كثيراً من المنشآت العلمية التي تمثلت في المدارس والخوانق والأربطة والزوايا والمساجد ، وباستثناء المدارس فقد كانت جميع هذه المنشآت أماكن للدرس فضلاً عن وظائفها الأساسية ، أما المدارس فلقد كان عرضها الأساسي أن تكون أماكن لإبقاء الدروس وإقامة الطلاب<sup>(١)</sup> .

وكانت هذه المدارس بمثابة جامعات علمية عظيمة الشأن من حيث طريقة التدريس ومستوى الدراسة ونظم التلقي والإقامة وكان لها نظم وقواعد ، بل إنها تمتاز عن الجامعات والمعاهد الحديثة بأن طلابها كانوا لا يجدون من العقبات والعوائق ما يحول بينهم وبين التحصيل، فضلاً عما كانوا ينالونه من ضرب التيسير والمساعدة<sup>(٢)</sup> .

### أولاً ، دور العلم ،

١ - المدارس : لقد كثرت المدارس في عهد المماليك حتى أصبح من العسير إحصاؤها<sup>(٣)</sup> ، سواء في القاهرة أو في دمشق حيث بلغت مائتين وبضعة وثمانين مدرسة حتى سنة إحدى وتسعين وأربعمائة منها<sup>(٤)</sup> :

مدارس للقراءة : مثل دار القراءة الدلامية : التي أنشأها أحمد بن زين دلامة، ورتبت لأرباب الوظائف في كل شهر خمسة عشر رطلاً من الحلوى ورأسين من الغنم، ولكل من الأيتام جبة قطنية وقميصاً ومنديلاً وراتب ثلاثمائة درهم في الشهر لمن قرأ حزب الصباح والمساء .  
دار القراءة الرشانية : أنشأها رشا بن نطيف الدمشقي ، وهناك مدارس للحديث مثل : دار

(١) أبو حيان النحوي، د. خديجة الحديثي . ص ٥٦ ط ١٣٨٥ هـ - مكتبة النهضة ببغداد .

(٢) المصدر السابق ص ٥٧ .

(٣) المصدر السابق ص ٥٩ .

(٤) منتجات التواريخ لدمشق . محمد أديب الحسيني ص ٩٣ ط دمشق ١٩٢٧ م .

الحديث الأشرفية، ودار الحديث النووية التي أنشأها نور الدين محمود زنكي ووقف عليها أوقافاً كثيرة وهو أول من بنى داراً للحديث .

وهناك مدارس للحديث مخصصة على حسب المذاهب فكان هناك المدرسة الخاصة للشافعية مثل «المدرسة الأتابكية» التي بصالحية دمشق، وقال شيخنا الذهبي : الأتابكية امرأة الملك الأشرف .

ومن مدارس الحنفية « المدرسة الجقمقية» و« المدرسة الحاتونية الجوانية»<sup>(١)</sup> .  
ومن المدارس المالكية « المدرسة الصلاحية » بناها صلاح الدين الأيوبي<sup>(٢)</sup> وكانت «المدرسة العمرية» بناها الشيخ أبو عمر حفيد ابن قدامه . التي كان بها مكتبة عظيمة من مدارس الحنابلة<sup>(٣)</sup> .

#### مدارس القراءة :

هي مدارس يتم فيها تعليم قراءة القرآن الكريم بالروايات المختلفة ومعرفة أحكام التجويد ومختلف الأحكام المتعلقة بالقراءات القرآنية، أما فكرة الجمع بين تدريس المذاهب الأربعة بحيث يجد الطلاب بغيتهم وتتسع لأكثر عدد من الطلاب وتتحقق فيها رغبات الطلاب على اختلافها، وتمثلت في مدرسة السلطان حسن<sup>(٤)</sup>، وهناك الجوهرية والغزالية<sup>(٥)</sup> والأمينية والقيصرية<sup>(٦)</sup> وغيرها، كما كانت هناك مدارس للطب، إذ كان يدرس نظرياً في المدارس وعملياً في المارستانات<sup>(٧)</sup> .

(١) المصدر السابق ص ٩٣٧ وما بعدها .

(٢) أبو حيان النحوي ، د . خديجة الحديثي ص ٦٠ .

(٣) منتخبات التواريخ لدمشق . محمد أديب ص ٩٣٧ وما بعدها .

(٤) حسن المحاضرة . السيوطي ج ٢ ص ١٩٢ .

(٥) البداية والنهاية ، ابن كثير ج ١٣ ص ٣٣١ .

(٦) المصدر السادس . ج ١٣ ص ٢٤ .

(٧) ابن تيمية، الأستاذ/ محمد يوسف موسى. ص ٦٢ ط المؤسسة المصرية للطباعة والنشر .

## ٢- المساجد والجوامع .

كانت أبواب المساجد مفتوحة يلجها من يشاء بمحض إرادته ووفق ظروف حياته، وبين أفنية هذه المساجد يجنون من الشيوخ والمدرسين من يلقون دروسهم على الناس ولئن يشاء دون أن يتجشم في سبيل ذلك ما لا يدفعه في لقاء تعليمه، بل كانت المعونات المادية تتوالى على طلاب العلم والمنقطعين له، وبذلك تقوى النزعة إلى العلم الصحيح وتشتد الرغبة فيه<sup>(١)</sup>. فكانت المساجد والخوانق من معاهد التعليم، بيد أن وظائفها التعليمية لم تكن رئيسية بخلاف المدارس التي كانت وظيفتها الرئيسية تدرس العلوم وإيواء الطلبة والمعيدين<sup>(٢)</sup>.

ولم يكن الغرض من إنشاء المساجد عند المسلمين منذ أوائل عهودهم مقتصرأ على إقامة الصلوات فحسب، وإنما امتد إلى الأغراض العلمية والسياسية وقد عرفت ف عهد المماليك أعداداً كثيرة من المساجد وقد شهدت كثير من هذه المساجد ألواناً متنوعة من النشاط العلمي وقام بالتدريس فيها كبار علماء العصر .

وكان لكل مسجد أوقاف سخية تفي بسداد احتياجاته والإنفاق على مرافقه والعاملين به، كما تكفل أموال القائمين بالتدريس فيه بعض الأحيان، ولم تكن الدراسة بهذه المساجد مقصورة على العلوم الدينية واللغوية فحسب بل تعدتها إلى غيرها من العلوم كالطب والفلك والحساب وغيرها، وكانت مشيخة الجامع من الوظائف الهامة في الدولة وكانت تسند إلى المبرزين في العلوم الدينية<sup>(٣)</sup> ومن أهم هذه المساجد :

- «جامع عمرو» الذي أسسه عمرو بن العاص بعد فتح مصر وسمي بالجامع العتيق<sup>(٤)</sup>.

(١) عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي ج٢ ص ٢٧٠.

(٢) ابن القيم الجوزية. جهوده في الدرس اللغوي، د. طاهر سليمان حموده . ص ٢٢ ط ١٩٧٦م دار الجامعات المصرية.

(٣) أبو حيان النحوي . د. خديجة الحديثي ص ٦٧ . وانظر المقرئزي (الخطط: ج ٤٢١/٢) وجميع الصفحات التي تتحدث عن المساجد والجوامع .

(٤) خطط المقرئزي (ج ٢ ص ٢٤٦) وانظر السيوطي : حسن المعاصرة ج ٢ ص ١٧٧ .

وكانت تعقد به حلقات تدرس بها شتى العلوم، بلغ تعداد هذه الحلقات قبل عام ٧٤٩هـ بضعاً وأربعين حلقة، كما كان بالجامع زوايا يدرس فيها الفقه، منها زاوية الإمام الشافعي التي يقال أنها عُرفت بإسمه لأنه درُس بها بعد مجيئه إلى مصر، ومنها الزوايا الصحابية رتبها صاحب تاج الدين محمد بن بهاء الدين، ووقف عليها، وجعل لها مدرسين، أحدهما مالكي والآخر شافعي، ومن ذلك يبدو أن الحركة العلمية بجامع عمرو كانت قوية ونشطة<sup>(١)</sup>.

- « جامع أحمد بن طولون » الذي بناه أحمد بن طولون، وقد لبث هذا المسجد منارة تشع نور المعرفة والعلم زمناً طويلاً، حيث اتخذ طابعه العلمي منذ أو يوم أنشئ به، كما كان هناك ماستان ملحق بالمسجد لإيواء المرضى والضعفاء<sup>(٢)</sup>، وقد عدد السيوطي « أسماء الذين تولوا نظر المسجد منذ اعتنى به السلطان لاجين فكان بعض نظاره من أمراء المماليك ، وبعضهم من القضاة»<sup>(٣)</sup>.

- « الجامع الأزهر » أنشأه بالقاهرة القائد جوهر الصقلي مولى المعز لدين الله الفاطمي واستمرت فيه إقامة الشعائر وتدريس العلوم المختلفة فكان مقصداً لكثير من العلماء المبرزين، «وكان لهذا الجامع أهمية كبيرة في عصر المماليك، وقد قام بدور كبير في الحياة الثقافية في تلك الأيام بالرغم من المنافسة القوية لتلك المدارس والجوامع المختلفة في اجتذاب العلماء والطلبة إليها»<sup>(٤)</sup>.

### ٣ - الخوانق والروابط والزوايا ،

الخوانق منشآت أقيمت لكي يقيم بها الصوفية، وعلى مر الأيام صارت تحل محل

(١) أبو حيان النحوي، د. خديجة الحديثي ص ٥٧.

(٢) المصدر السابق ص ٦٨ .

(٣) حسن المعاضرة، السيوطي ج ٢ ص ١٨٣ .

(٤) أبو حيان النحوي ، د. خديجة الحديثي ص ٦٧.

المدرسة، فأصبحت بوراً للعلم تضارع أعظم المدارس في عصرها، ووجدت بها كثير من المواد الدراسية المعروفة، ولعل هذا الاتجاه العلمي للخوانق هو الذي جعل بعض المؤرخين يطلق على بعضها اسم المدرسة مرادفاً للخانقاة، وهو كذلك ما حدا بالسيوطي أن يذكر الخوانق ، حيث لم يفصل المدارس عن الخوانق<sup>(١)</sup> .

ومن أهم الخوانق : « خانقاة سعيد السعداء » التي تولى مشيختها مجموعة من فضلاء أهل العلم والفقهاء، في ذلك الحين ولا ريب في أن ذلك قد جعل من هذه الخانقاة مركزاً من مراكز العلم فضلاً عن إيواء الصوفية وإقامة شعائرتهم<sup>(٢)</sup> .

« خانقاة شيخو »<sup>(٣)</sup> وقد اشترط في شيخها الأكبر حضور التصوف وتدریس الحنفية، وأن يكون عارفاً بالتفسير والأصول وألا يكون قاضياً<sup>(٤)</sup> « وكانت تعد مدرسة كبيرة لها وزنها في المجتمع فضلاً عما كانت تؤديه من إيواء الطلبة والصوفية، وكان لها أوقاف سخية ينفق منها على شيوخها وطلبتها، وقد عظم قدرها وتخرج فيها كثير من أهل العلم<sup>(٥)</sup> » .

« الخانقاة البيبرسية » التي بناها الأمير بيبرس الجاشنكير في عام ٧٠٧هـ وكان بها درس الحديث ومجموعة من القراء ، وكان لها أوقاف عديدة بدمشق وحماة وفي مواضع متفرقة بمصر، هذه الأوقاف الواسعة أضعفت عليها سمة من الجلال والعظمة بين سائر المدارس والخوانق ، وجعل مشيختها منصباً يطمع إليه شيوخ المدارس الأخرى .

ويبدو أن الربط والزوايا هي خانقاوات صغيرة ، وقد كانت التفرقة منعدمة بين

(١) حسن المحاضرة، السيوطي، ج٢ ص ١٨٤ .

(٢) أبو حيان النحوي، د. خديجة العديثي . ص ٦٧ .

(٣) الخطط (٤٢١/٢) ، المقرئزي . وانظر السيوطي : حسن المحاضرة ج٢ ص ١٩١ .

(٤) حسن المحاضرة . السيوطي ج٢ ص ٣١٧ .

(٥) خطط المقرئزي، ج٤ ص ٤٢١ . وانظر السيوطي : حسن المحاضرة ج٢ ص ٢٧٦ .

مسميات هذه الأماكن حتى وقع فيها الخلط عند المؤرخين، فذكر ابن بطوطة أن الخانقاة هي الزاوية ، وأن المصريين يطلقون على زواياهم إسم خانقاوات أو خوانق<sup>(١)</sup> .

### ثانياً : نظم التعليم :

لم تكن سياسة التعليم سياسة ثابتة للدولة وإنما هي سياسة فردية مرتجلة مقيدة برغبة السلطان أو الأمير وقد وجدت في المدارس نظام المحاضرات التي عرفت بالمجالس ، إذ كان بعض المدرسين يملي مجالسه على طلبته وقد ذكر السيوطي عن الحافظ العراقي «أن الله أحيا به سنة الإملاء فأملئ أكثر من أربعمئة مجلس<sup>(٢)</sup> . ثم ذكر أن ابن حجر أملئ أكثر من ١٠٠٠ مجلس<sup>(٣)</sup> ولم تكن في دور التعليم نظم محددة ومناهج موضوعة يلتزم بها القائمون بالتدريس بل « هناك كتب في الفقه أو الحديث أو النحو أو اللغة أو غير ذلك يدرسها الشيوخ حسب اختياراتهم ويسمعها من الشيخ من شاد من الطلاب ولم تكن المساجد أو غيرها من دور العلم تفترق عن غيرها من المدارس غير أن الحصول على الإجازة هو الذي كان يستلزم مواظبة الطلاب في السماع وحضور الدروس<sup>(٤)</sup> .

ولم تقتصر المدارس على الطلبة المنتظمين بها المنقطعين للعلم مقابل ما يجدونه من أموال الأوقاف، « وإنما امتدت لتشمل عدداً كبيراً من طلبة العلم الذين يتفرغون من أعمالهم بين حين وآخر ويحضرون من الدروس ما يشاعون حضوره مما تتيحه لهم أوقات فراغهم<sup>(٥)</sup> .

أما الطلاب المنتظمون فكان الواحد منهم يحضر دروس أحد المدرسين حتى يأخذ منه

(١) أبو حيان النحوي ، د. خديجة الحديثي. ص ٦١ من ٦٥ .

(٢) مصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، محمد رزق سليم ج٣ ص ٣٠ .

(٣) حسن المحاضرة . السيوطي ج١ ص ٢٠٤ .

(٤) أبو حيان النحوي ، د. خديجة الحديثي. ص ٥٩ .

(٥) المصدر السابق ص ٧٣ .

كفايته، ثم ينتقل إلى الآخر حتى يصل ممن يأخذ العلم عنهم بضع مئات في بعض الأحيان وكثيراً ما تتطلب هذه الطريقة من طالب العلم أن يرحل إلى مختلف المدن فإذا أتم الطالب دراسته وتأهل للفتيا والتدريس أجاز له شيخه بذلك ولا شك أن لهذه الطريقة مزايا متعددة تتمثل في حرص الطالب على حضور دروس أكبر عدد من الشيوخ والسماع منهم، كذلك الحرص على حضور دروس كبار الأساتذة والعناية بهم للحصول على إجازات منهم وقد كان الحصول على الإجازات يستلزم من الطالب اتقان ما درسه على الشيخ واستيعابه وتفهمه وحفظه في بعض الأحيان فإذا ما أتم ذلك استوجب أن يمنح إجازة بتدريس كتاب ما أو الإفتاء في مذهب من المذاهب الفقهية .

« وقد ظل هذا التقليد ذائعاً ومرعياً طيلة هذه الفترة»<sup>(١)</sup> وكانت الدروس الدينية في مقدمة هذه الدروس التي يتلقاها الطلاب، وأهمها فقه المذاهب الأربعة فأصولها ويليها في الأهمية دروس الحديث، ثم دروس التفسير، ثم دروس الوعظ والكلام والتصوف، ثم دروس النحو والصرف وقد عني بغير تلك الدروس عناية فرعية كعلوم الطب والفلك والأدب والهندسة والتاريخ والتقويم والرياضة ولعل الهندسة كانت أحظاها بالعناية للحاجة إليها في البناء»<sup>(٢)</sup> « أما وظيفة التدريس بالمدارس المشهورة فكانت جليلة القدر بخلع السلطان على صاحبها في كثير من الأحيان؛ أي أن تعيين المدرس لا يتم إلا بموافقة وعلم السلطان نفسه» «نعلم أن السلطان كان يعين لكل مذهب شيخاً<sup>(٣)</sup> فمن المراسيم الصادرة والمسجلة في الكتب بكتاب من السلطان؛ أن ذلك ما ورد في تقليد الملك المنصور لبعض العلماء وقد إختارنا لكل مذهب إماماً وقدمناه إماماً وقلدناه أحكاماً واحكامنا أمر توليه أحكاماً»<sup>(٤)</sup> .

(١) المصدر السابق ص ٥٨ .

(٢) مصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، محمود رزق سليم. ج-٢ ص ٧٥ .

(٣) دراسة وثيقة للتاريخ الإسلامي ومصادره . د/ محمد ماهر جاد . مؤسسة الرسالة . بيروت، ص ٤٠٢ ط ١ عام ١٤٠٨ هـ .

(٤) تاريخ ابن الفرات ، ناصر الدين محمد عبدالرحيم بن الفرات ، (٢٨/٨) . منشورات كلية العلوم والآداب . بيروت .

ومن أبرز المدرسين في تلك الفترة شيخنا الحافظ الذهبي والإمام ابن تيمية<sup>(١)</sup> وقاضي القضاة صدر الدين الأوزاعي صاحب الجامع الصغير والعماد ابن كثير<sup>(٢)</sup> والنوري وابن صالح والحافظ جلال الدين المغربي<sup>(٣)</sup>، صدر دمشق، ومن علماء الطب بن أصبغ صاحب تاريخ الأطباء ومهذب الدين بن الحاجب ونجم الدين اللبودي وموفق الدين بن المطران ومن علماء العقليات والرياضيات محمد بن أبي الحكم الباهيري وعز الدين السويدي البغدادي وغيرهم<sup>(٤)</sup>.

- 
- (١) هو الإمام تقي الدين أبو العباس أحمد عبد العليم بن الإمام مجد الدين أبي البركات عبد السلام بن أبي محمد بن عبد الله القاسم بن تيمية الحراني . ولد بحران يوم الإثنين العاشر من شهر ربيع الأول سنة ٦٦١هـ الموافق ٢٢ يناير سنة ١٢٦٢م قال عنه الذهبي في تذكرة الحفاظ ج٢ ص ١٤٧٦: «كان علمه بالحديث ورجاله وعلومه لا يجاريه فيه أحد من أهل زمانه، حتى قال فيه معاصروه: كل حديث لم يحفظه ابن تيمية فليس بصحيح، وله خبرة تامة بالرجال وجرحهم وتعديلهم وطبقاتهم.» أ. هـ .
- (٢) هو اسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير بن زرع البصري ثم دمشقي الشافعي المعروف بابن كثير عماد الدين أبو الفداء، ولد سنة (٧٠٠هـ) وتوفي سنة (٧٧٤هـ) . محدث مؤرخ مفسر، فقيه . (انظر تذكرة الحفاظ ج١ ص ١١ ، البدر الطالع ج١ ص ١٥٢ ، الدرر الكامنة ج١ ص ٢٧٣ .
- (٣) انظر ترجمته في الدارس في تاريخ المدارس للنعيمي ج٢ ص ١٣٦ .
- (٤) منتخبات التواريخ لدمشق، محمد أديب، ص ٩٢١ .



# المطلب الثالث

## نشاط العلماء ومجالات التأليف

شهد هذا العصر مجموعات من الكتب القيمة التي ألفت به في كل ناحية من نواحي المعرفة منها التاريخ ومنها ما يتصل به من تراجم وسير وكتب عن المدن والامصار والخطط، وهناك ما ألفت في فقه المذاهب الأربعة وفي التصوف والعقائد وما ألفت في القراءات والنحو والصرف والعلوم العربية وفي العلوم الكونية ثم ما ألفت من كتب جامعية<sup>(١)</sup> وسوف أحاول القاء الضوء على بعض منها قد استطاعتي :

### كتب التاريخ :

كان التاريخ في مقدمة العلوم التي سعدت بالناية في هذا العصر، ومن مزايا هذه الكتب التاريخية أنها تضم بين ثناياها ضروباً أخرى من أقوال تاريخية وأنباء تتوارد في سياق الموضوعات الرئيسية التي تكلفت الحديث عنها كذكر مؤلفات العلماء وحوادث الأعلام وأخبار المناظرات وما وضع بينها من الرسائل والمقالات والبحوث الفقهية وغيرها وتسجيل الطرق الأدبية والحوادث الفكاهية وما إلي ذلك مما يعين الباحث على فهم النزاعات الاجتماعية والعادات والتقاليد المرعية<sup>(٢)</sup>، ومن أهم الكتب التي ظهرت في هذا العصر، تاريخ ابن تيمية وتاريخ الإسلام . البداية والنهاية لابن كثير « كتب التاريخ كثيرة» ومؤلفات الذهبي في التاريخ كثيرة أيضاً . مقدمة ابن خلدون وكتاب تاريخ الإسلام للإمام الذهبي<sup>(٣)</sup> المختصر في أخبار البشر - للملك المؤيد ابن الفداء ، والخطط والآثار . للمقريزي .

(١) عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي. محمود رزق سليم ج٢ ص ١٩٠ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق ص٩٢ . وانظر د. محمد كمال الفقي ، الأدب العربي في العصر المملوكي ص٥٧ ط ١٤٠٤هـ .

(٣) سياستي الكلام عنه في مبحث جهود الإمام الذهبي في التأليف .

## التراجم ،

وقد لا نجد في عصر من العصور السابقة ولا اللاحقة مجموعات من كتب التراجم شبيهة بما وضع منها في هذا العصر وأجمل ما يميزها عناية المترجمين بترجمة أعلام العصر نفسه المعاصرين لهم وغير المعاصرين، ويعتبر كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان من أهم الكتب التي ظهرت في التراجم وبه أكثر من ثمانمائة مترجم ، وقد وضع ابن شاكر الكتبي ملحقاً لهذا الكتاب سماه فوات الوفيات، وكذلك وضع صلاح الصفدي كتابه الجامع المسمى الوافي بالوفيات<sup>(١)</sup> .

وقد بلغت مؤلفات شيخنا الذهبي في التاريخ والتراجم خمسة عشر كتاباً أهمها تاريخ الإسلام ذكر فيه طبقات المشاهير والأعلام وهو تاريخ كبير نحو اثني عشر مجلداً رتبته على السنين من أول الإسلام حتى سنة ٧٠٠هـ وجمع فيه الحوادث والوفيات ومن أهم مؤلفاته :

- ١ - التجريد في أسماء الصحابة وهو معجم كبير في أربعة مجلدات .
- ٢ - العبر في أخبار البشر ممن غبر وهو مختصر من تاريخ الإسلام .
- ٣ - معجم الأشيا الذي ترجم فيه لنحو من ١٢٠٠ من أشياخه على حروف الهجاء .
- ٤ - المشتبه في الأسماء والأنساب وفيه تراجم لكثير من الرجال والنساء الذين تشابهت ألقاب اسمائهم أو كناهم أو أنسابهم مرتباً ترتيباً أبجدياً .
- ٥ - ميزان الاعتدال في نقد الرجال جمع فيه أسماء الرواة من كتب الحديث والسنة وزاد عليهم . وهو في نحو ثلاثة مجلدات .

أما كتب السيرة النبوية التي كتبت في هذا العصر فمنها عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير في غزوات سيد ربيعة ومصر وفي شمائله إذ هي اشرف شمائل البشر لمؤلفه فتح الدين البعمري الأندلسي المشهور بابن سيد الناس ، وهناك كتاب الزهر الباسم

(١) عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، محمود رزق سليم ج٣ ص ١٠١.

في سيرة ابن القاسم لابي بن عبدالله مغلطاي<sup>(١)</sup> وعموماً فكتب السيرة لم يكن للمؤلفين في ذلك العصر منهج مختلف عن سابقهم في تأليف أمثال هذه الكتب<sup>(٢)</sup> .

ومن كتب الأدب المستطرف للأبشيهي ، وثمرات الأوراق وتأهيل الغريب لابن حجة الحموي ومن كتب التفسير « البحر المحيط » لابن حيان المغربي ، ومن كتب الفقه « الكفاية » لابن الرافعة « والمجموع » للنووي ، والفتاوى لابن تيمية في فقه الحنابلة، وقد كثرت الكتب الدينية والمؤلفات في التفسير والحديث حيث كانت الغيرة الدينية التي تفيض في صدور العلماء حافزاً لهم على أن يكتبوا من التأليف في علوم القرآن فكانت له نهضة ظاهرة ونخيرة قيمة وثروة نفيسة، ويزرع الإهتمام والتقدير التي حثت علماء هذا العصر على تفسير القرآن الكريم كان تناولهم بما يتصل به من وجوه القراءات وحسن الأداء وتأثر الرسم .

أما الحديث النبوي فكان موضوع احتفائهم إذ ألفوا في تاريخه ومصطلحه وتناوله بالشرح والنقد لكثرة حفاظه والعناية الفائقة بروايته، أما عن علوم اللغة والنحو فقد نهضت في عصر الأيوبيين والمماليك نهضة مابركة لارتباطها ارتباطاً وثيقاً بلعوم الدين التي كانت أجل أهداف النشاط العلمي المنقذ في تلك الحقبة، ففي ذلك العصر عاش كبار النحاة المتأخرين أمثال يحيى بن معطي وعثمان بن عمر بن الحاجب، ومحمد بن عبدالله بن مالك وغيرهم ، كما ظهرت في ذات العصر المنظومات النحوية التي كان أشهرها زلفية ابن معطي وألفية ابن مالك، كما ظهرت مؤلفات نحوية عديدة ظل كثير منها محور آراء هؤلاء الأعلام، ومؤلفاتم هي التي أقامت صرح مدرسة مصر والشام في النحو<sup>(٣)</sup>، وفي العلوم الأخرى نبغ عدد أقل من علماء الدين واللغة فنبت في الطب والهندسة والفلك علماء بارزون ، حيث كان

(١) السلوك للمقريزي، ١٠٦/٣ .

(٢) الأدب العربي ، د. الفقي ص ٦٠ .

(٣) المصدر السابق ص ٥٦ .

العصر من العصور الذهبية في تاريخ فن الهندسة العربي وما أمتزج به ، وذلك لعناية السلاطين والأمراء بإنشاء ما يخلد ذكركم من مساجد ومدارس وقناطر وربط وخوانق ونحو ذلك<sup>(١)</sup> .

### السمات العامة للتأليف والمؤلفات في ذلك العصر :

من الممكن أن ترصد ملاحظات عامة على حركة التأليف والمؤلفات في ذلك العصر منها :

#### ١ - الإتجاه الموسوعي :

اتجه المؤلفون إلى وضع موسوعات علمية تجمع أشتاتاً من علوم مختلفة ويستطرد المؤلف منها إلى كثير من الميادين حسب المناسبات : فنرى فيها التقويم والتاريخ والأدب شعراً ونثراً إلى جانب الفكاة والحديث عن الحيوان والنبات أو الحديث في الطب، وهي في جملتها تقي بجميع المعلومات المختلفة والنصوص المتباعدة المبعثرة التي تجمعها أدنى جامعة ، ويربط بينها رباط يبدوايها ويظهر بها الاستطراد والتسلسل من موضوع إلى موضوع ويدل وضع هذه الموضوعات على سعة علم مؤلفيها ومقدار اطلاعهم الواسع وصبرهم على تدوين ما لديهم من العلوم وتنسيقه .

وإن كان يؤخذ على هذه الطريقة الخلط بين المواد العلمية المختلفة وقلة العناية بوحدة الموضوع، فإننا لا نستطيع أن ننكر ما لها من فوائد في حفظ هذه العلوم والأفكار من الضياع، ولعل الدافع إلى وضع هذه الموسوعات والإكثار منها هو شعور علماء العصر بمسئولياتهم تجاه المسلمين في المشرق والمغرب بعد سقوط بغداد وضياع كثير من كنوزها العلمية على أيدي التتر<sup>(٢)</sup> .

(١) عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، محمود رزق سليم ، ج٣ ص ٨٠ .

(٢) المصدر السابق ج٣ ص ١٤٦ .

## ٢ - ظاهرة التقليد :

إن كثرة المؤلفات التي وضعت في هذه الحقبة ونبوع شهرة بعضها جعلت الكثير من المؤلفين يتجون إلى تقليد ما أشتهر منها لدى أسيانهم . ولهذا التقليد في التأليف صور عديدة : فقد ترى التقليد في تسمية الكتاب أو في أسلوب التأليف . وأحياناً النقل بون تصرف أو بالنص .

## ٣ - ظاهرة المتون والشروح :

فقد إتجه الشيوخ تيسيراً على طلابهم إلى وضع المتون التي تجمع مسائل الموضوعات في قليل من اللفظ، حتى يتسنى لطالب العلم أن يستوعبها بأيسر طريق في زمن قليل . وقد غلا بعضهم في الإيجاز، وفي ضغط العبارة في هذه المتون حتى بلغت هذه الرموز درجة عالية من الصعوبة . فاستغلق بذلك فهمها على الطلاب، واحتاجت إلى شروح فوضعت لها كتب شارحة، ثم وضعت كتب أخرى أكثر تفسيراً تشرح الكتب الشارحة ومن ثم تعددت الشروح التي تتناول المتن الواحد وهكذا امتلا العصر بالمتون والشروح نثراً أو نظماً<sup>(١)</sup> .

## ٤ - الإكالات والتذييلات :

وهي ظاهرة شاعت في مؤلفات ذلك العصر لاسيما في كتب التراجم والتاريخ وقد أفادت هذه الظاهرة العلم بأن وصلت حلقات الزمن المختلفة وحفظت لنا الكثير مما كان مهدداً بالضياع<sup>(٢)</sup> .

## ٥ - تنظيم العلوم واستقرار المصطلحات :

نلاحظ فيما أنتجه العصر من مؤلفات ظاهرة واضحة تبدو في جميع ميادين البحث

(١) أبو حيان النحوي ، د. خديجة الحديثي من ٧٥ .

(٢) المصدر السابق، ص ٧٦ .

تقريباً فهناك أولاً محاولات لتنظيم العلوم وتقسيمها والتعريف بها وبمصطلحاتها وقد ألفوا في ذلك مؤلفات كان هدفها أن تتيح للمتخصصين من أبناء كل علم أن يلموا بأطراف من العلوم الأخرى، وأن يعرفوا عنها ما يريدون معرفته في وقت يسير، ويمكن إدراك ذلك مثلاً في علم النحو وبمقارنة ما وضع في ذلك العصر من كتب نجد أن المصطلحات النحوية لا تتغير بين نحوي وآخر فهي مستقرة متعارف عليها لديهم<sup>(١)</sup> .

لعل صورة الحياة العلمية في العصر الذي عاشه شيخنا الذهبي قد اتضحت مما تقدم ، ولعلها تكون نافذة نطل منها على حياته ، مولده ونشأته وشيوخه وتلاميذه .

---

(١) المصدر السابق ص ٨٠ .

# الفصل الثاني

## السيرة الذاتية للإمام الذهبي

وفيه ثلاثة مباحث ،

المبحث الأول : مولده ونشأته .

المبحث الثاني : شيوخه وتلاميذه .

المبحث الثالث : وفاته وثناء الناس عليه .

## تمهيد :

تعددت المصادر التي ترجمت للإمام الذهبي، وتنقسم هذه المصادر بإعتبار أهميتها إلى أربعة أقسام :

١ - مصادر كتبها الذهبي بنفسه وهي من تأليفه ومعاجم شيوخه، وهذه المصادر تمدنا بالكثير عن حياته الخاصة، وأغناها مطلة معاجم الشيوخ .

٢ - مصادر كتبت في العصر الذي عاش فيه الذهبي، كتبها شيوخه ورفاقه وتلاميذه ومعاصروه منهم البرزالي في معجم شيوخه وابن الوردي في تاريخه، وصلاح الدين الصفدي في الوافي بالوفيات، وفي نكت الهميان وابن شاكر في الوافي بالوفيات والحسيني في ذيل طبقات الحفاظ والسبكي في طبقات الشافعية ومعيد النعم للسبكي وابن كثير في البداية والنهاية . وهذه المصادر تصف لنا الذهبي وتذكر لنا أخباره وتعرفنا بنظرة أهل العصر إليه وتوضح آراءه وميوله .

٣ - مصادر كتبت بعد عصر الذهبي . منها ابن الجزري في «طبقات الفراء» وابن ناصر الدين في «التبيان لبديعة البيان عن موت الأعيان» وابن قاضي شهبه في طبقات الشافعية وابن حجر في « الدرر الكامنة وابن ثقري بردي في المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي » والسيوطي في « ذيل طبقات الحفاظ والنعيمه في تنبيه الطالب وإرشاد الدارس إلى أحوال القرآن والحديث والمدارس » وابن العماد في شذرات الذهب في أخبار من ذهب .

وقد حفظت هذه المصادر بعض النصوص المفقودة ولم تصف شيئاً جديداً .

٤ - مصادر معاصرة حيث ترجم للذهبي بعض الكتاب المعاصرين ، منهم حسام المقدسي في مقدمة «تاريخ الإسلام» ، وسعيد الأفغاني في مقدمة نشرته لسيرة ابن حزم، وتكلم بروكلمان في تاريخ الأدب العربي وعن ترجم للذهبي وسرد بعض ما



عرف من مخطوطات مؤلفاته وكذلك وستنقلد في كتابه عن المؤرخين العرب<sup>(١)</sup>.  
ولكانة الإمام الذهبي هذا العالم الفذ وما تركه من إنجازات عظيمة، كان محرر  
دراسات علمية في مجالات مختلفة ، فقد تحدث عنه الدكتور بشار معروف في مجال  
التاريخ وكان ذلك من خلال رسالته العلمية «الذهبي ومنهجه في كتابه تاريخ  
الإسلام» وقد أجاد فيها وأبدع وأوفى حيث لم يبق - جزاء الله خيراً - لمن بعده  
بإضافة المزيد إلا القليل .

وفي مجال الحديث كان الإمام الذهبي موضوعاً لرسالتين علميتين إحداهما ما كتبه  
الدكتور محمد شوقي خضر في رسالته الذهبي المحدث والأخرى كانت لقاسم بن علي  
بن سعد حيث كتب رسالته العلمية « منهج الذهبي في ميزان الاعتدال » .  
أما في مجال العقيدة فقد تحدث عنه الباحث سعيد الزهراني في رسالته العلمية  
«الذهبي ومنهجه في العقيدة وردده على المبتدعة» كما تحدث عنه مريباً الدكتور  
عبد الرحمن النحلوي في كتابه أعلام التربية في تاريخ الإسلام «سلسلة» - الإمام  
الذهبي دراسة موضوعية تحليلية تربوية .

---

(١) أعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب، د. صلاح الدين المنجد ص ٩٩ وما بعدها ط دار الكتاب  
الجديد بيروت . لبنان بتصريف.

# المبحث الأول

## مولده ونشأته

ويتكون من سبعة مطالب :

المطلب الأول : اسمه ونسبه ولقبه وكنيته .

المطلب الثاني : مولده واسرته .

المطلب الثالث : نشأته .

المطلب الرابع : تكوينه الثقافي .

المطلب الخامس : رحلاته في طلب العلم .

المطلب السادس : صلته الشخصية، وأثرها في تكوينه الفكري .

# المطلب الأول

اسمه ونسبه:

هو محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز بن الشيخ عبدالله التركماني الفارقي الأصل<sup>(١)</sup> ثم الدمشقي الشافعي<sup>(٢)</sup>.

وقد عُرف بابن الذهبي بسبب اشتغال أبيه بصناعة الذهب المدقوق، فالذهبي - بفتح الذال المعجمة وفي آخرها الباء المنقوطة بواحدة - نسبة إلى الذهب، وصنَّاعُه كانوا يخلصونه من النار ليخرجوا الغش منه، وبعضهم كان يعمل خيوط الذهب التي لها زركشة<sup>(٣)</sup> لذا عرف شيخنا محمد بابن الذهبي نسبة إلى صناعة أبيه<sup>(٤)</sup>. وقد عُرف عند بعض معاصريه بالذهبي مثل صلاح الدين الصفدي<sup>(٥)</sup>. وتاج الدين السبكي<sup>(٦)</sup> والحسيني<sup>(٧)</sup> وعماد الدين بن كثير<sup>(٨)</sup> وغيرهم .

وكنيته أبو عبدالله كنيته غلبت عليه منذ إنجابه لأبناؤه وسماه بهذا الإسم<sup>(٩)</sup>.

- (١) الفارقي نسبة لميارفارقين وهي من أشهر مدن ديار بكر، معجم البلدان للحموي ج٤ ص ٧٠٢ ط ليبزج ١٨٦٦م وانظر صبيح الاعشى للقلقشندي (٢٢٣/٤-٢٢٤) دار الكتب العلمية ١٤٠٧هـ.
- (٢) المعجم المختص بالمحدثين، الذهبي ص ٩٧.
- (٣) لأبي سعيد عبدالكريم التميمي الأنساب ج٤ ص ٢٨، ٢٩ ط بيروت ١٤٠٠هـ.
- (٤) معجم شيوخ الذهبي، تحقيق د. روية السيوفي ص ٢ ط دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان بتصرف يسير .
- (٥) في نكتب الهمان ص ٢٤١ المطبعة الجمالية بمصر ١٩١١م.
- (٦) في طبقات الشافعية الكبرى ج٩ ص ١٠٠ ط دار المعرفة بيروت.
- (٧) في ذيل تذكرة الحفاظ ، ص ٢٤ ط دمشق ١٢٤٧هـ .
- (٨) البداية والنهاية، ج ١٤ ص ٢٢٥ .
- (٩) الدر الكامنة ، ابن حجر العسقلاني ج ٢ ص ٣٩٤، ط حيدر آباد بالهند سنة ١٩٥٠م.

## المطلب الثاني

### مولده .

ولد الإمام الذهبي في الربيع الأخير من القرن السابع الهجري، وبالتحديد في الثالث من شهر ربيع الآخر سنة (٦٧٣هـ - ١٢٧٤م) وكان مولده بدمشق<sup>(١)</sup> .

### أسرته .

ينتمي شيخنا الذهبي لأسرة تركمانية الأصل، تنتهي بالولاء لبني تميم، سكنت مدينة ميفارقين بديار بكر، وجدة قايماز قضى حياته فيها ، وتوفي سنة (٦٦١هـ) وقد جاوز المائة، وقد ذكر الذهبي في كتابه «أهل المائة فصاعدا بقوله» قايماز ابن الشيخ عبدالله التركماني الفارقي جد أبيه قال لي ابن عم والدي فارس النجار : توفي جدنا عن مائة وتسع سنين، قلت عمر وأضر بآخره وتوفي سنة إحدى وستين وستمائة<sup>(٢)</sup> .

### جده .

كان جده هو فخر الدين أبو أحمد عثمان أمياً لم يصب حقاً من علم، قد اتخذ من التجارة صنعة له، وكان رجلاً حسن اليقين بالله<sup>(٣)</sup>، ويبدو أنه هو الذي قدم دمشق وأخذها مسكناً له، وتوفي بها بعد ذلك سنة (٦٨٢هـ) وهو في عمر السبعين .

### والده .

أما والده فهو شهاب الدين أحمد ، ولد سنة (٦٤١هـ) وعُدل عن صنعة أبيه «التجارة» إلى صنعة الذهب الدقوق فبرع بها وتميز وعرف بالذهبي، وطلب العلم فسمع صحيح

(١) تاريخ الإسلام للذهبي ، أحمد شاكر تحقيق ترجمة الإمام أحمد ص ٨ ط بيروت ١٣٩٥هـ ومحمد الميادينني تحقيق ذكر من تعلم وهو موثوق للذهبي ص ٩، ط مكتبة المنار، الأردن ١٤٠٦هـ .

(٢) أهل المائة فصاعداً ص ١٣٧ ، ط بغداد ١٩٧٣م .

(٣) معجم شيوخ الذهبي . ص ٢٤٦ . بتصريف .

البخاري من المقداد القيسي، وحج في أواخر عمره، وكان ديناً يقوم الليل، وقد يسرت له صنعته رخاءً وغنى، فاعتق من ماله خمس رقاب من بينه امرأتان من أسر الفرنجة في مكة، وتزوج من ابنة رجل موصلية الأصل، وهو علم الدين أبو بكر سنجر بن عبالله وكان عاقلاً مديراً للمناشير بديوان الجيش .

وخلف شهاب الدين أحمد خمسة عشر ألفاً من الدنانير، وأحله علمه وغناه ومروته مكانة جعلت خلقاً من أهل دمشق يشيعونه يوم وفاته في آخر جمادى الأولى سنة (٦٩٧هـ) يؤمهم قاضي القضاة عز الدين بن جماعة الكناني<sup>(١)</sup> .

#### خاله :

خاله هو علي بن سنجر بن عبدالله الموصلية ولد سنة (٦٥٨هـ) وسمع من أبي بكر الأنطاقي، وبهاء الدين أيوب الحفني وست العرب الكندية، وسمع مع شيخنا الذهبي ببعلبك من التاج عبدالخالف وجماعة من العلماء وكان كما وصفه الذهبي: ذا مروءة وكد على عياله وخوف من الله<sup>(٢)</sup> .

#### عمته :

هي ست الأهل بنت عثمان بن قايماز عبدالله ، ولدت في ذي العقدة سنة (٦٥٣هـ) وهي أمه من الرضاة وقد طلبت الحديث فأجاز لها ابن أبي اليسر وجمال الدين بن مالك وزهير بن عمر الزعي وغيرهم وسمعت من عمر بن القواس وغيره، وأقعدت مدة ثم توفيت سنة تسع وعشرين وسبعمائة<sup>(٣)</sup> من الهجرة .

---

(١) المنهل الصافي لابن شغري بروي ج١ ص ٣٦٦، ط دار الكتب المصرية ، وانظر د. بشار عواد . مقدمة تحقيق سير أعلام النبلاء للذهبي ص ١٥ ، ١٦ ط مؤسسة الرسالة . بيروت ١٩٨٢م وانظر معجم شيوخ الذهبي ص ٧٥ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٦٧ .

(٣) معجم شيوخ الذهبي ص ٢٢٨ . بتصرف .

## أمه .

أم أعثر في ترجمات الذهبي على كثرتها على أية أخبار عن أمه، ولم يترجم لها الذهبي في معجمة . مما يجعلني أظن أن شيخنا نشأ يتيم الأم، وقد رأينا فيما سبق أن عمته ست الأهل هي التي أرضعته وقال عنها: أمي من الرضاعة وسكوت جميع المترجمين للذهبي عن ذكر أمه يؤكد أنهم لم يعرفوا عنها شيئاً حتى من الذهبي نفسه الذي لم يذكرها في معجمه في حين ذكر أناساً كثيرين ممن كثر حظهم من العلم أو قل أو حتى انعدم كما قال عن جده عثمان: «كان رجلاً حسن اليقين بالله»<sup>(١)</sup>، فلو أن الذهبي رأى أمه لذكرها في معجمة بأية عبارة لأنها ابنة رجل من علماء العصر، وأخت رجل ممن يطلب الحديث .

ويقول الدكتور بشار عواد: « يبدو أن الذهبي كان وحيد أبيه أو كان هو البارز في ابنائه على الأقل، بحيث كان يخاف عليه الخوف كله، فلم نقف على أخ لمحمد بن أحمد الذهبي في جميع الكتب المطبوعة والمخطوطة التي اطلعنا عليها مع أن الذهبي كثير العناية بذكر أقربائه»<sup>(٢)</sup> .

وربما جاز القول بأن الحياء هو الذي أسكت الذهبي عن ذكر أمه فلم يرد أن يشيع عنها شيئاً، واكتفى بالآخرين في معرفته لتحفظ على أن يدلي بمعلومات عنها زيادة في برها لكن ذلك لا يلغي احتمال أن الذهبي فقد أمه صغيراً .

وفي ترجمته لشيخه أبي الفرج عبد الرحمن بن عبد اللطيف بن محمد البغدادي الحنبلي شيخ المستنصرية يقول الذهبي: « همت بالرحلة إليه ثم تركته لمكان الوالد»<sup>(٣)</sup> .

فنرى هنا أن الذهبي ترك الرحلة إرضاء لوالده، ولم يقل لوالديه مع أن الأم في

(١) معجم شيوخ الذهبي ص ٢٤٦ . تحقيق د. روحية السيوفي دار الكتب العلمية بيروت .

(٢) المرجع السابق ص ٢٤ ، ٢٥ .

(٣) معجم شيوخ الذهبي ص ٢٩٢ .

الغالب تكون أكثر خوفاً على الأبناء من السفر ومخاطرة، فتكوينها العاطفي وفطرتها تجعلان خوفها على أبنائها أضعاف خوف الأب .

ومما سبق يمكن القول إن الذهبي فقد أمه في مرحلة الطفولة المبكرة، بل في مرحلة الرضاع، فأرضعته عمته ست الأهل وأن أباه لم ينجب غيره - والله أعلم - لذلك كان حريصاً على زلا يرحل في طلب العلم إلا بعد أن يدخل في مرحلة الشباب، شريطة أن يكون في صحبة أمنة .

## المطلب الثالث

نشأته .

نشأ الإمام الذهبي في بيئة علمية دينية ، ورعة تخاف الله تعالى وتحرص على تربية أبنائها التربية الدينية ، فهو يرى أباه يحب الدين ويلتزم بأوامره ويتقرب إلى الله تعالى ، فيقوم الليل ويعتق الرقاب ويراقب خاله الذي وصفه بالمرومة ومخافة الله ، « ويسمع جبه عثمان يردد ، يا مديري ولم أدر»<sup>(١)</sup> وهذا القول يدل على يقين قائله ، وعمق إيمانه بالله تعالى، وإن لم تجذبه النهضة العلمية واستمر أمياً وقنع بالتجارة مريباً أبنائه على حب العلم وأهله .

فوالده لا يتخلى عن طلب العلم بل يجمع بينه وبين مهنته، وكذلك عمته التي أرضعته وكأنه استقى منها حبها لسماع الحديث والبلاغة ونما ذلك معه ، وشاركه في ذلك أخوه في الرضاعة الذي حرص على أن يساعد الذهبي ويساهم في توجيه ميوله، فبين أكناف تلك الأسرة المحبة للعلم والمقبلة عليه نشأ الذهبي محباً للعلم شغوفاً بطلبه منذ نعومة أظفاره ويبدو أن أسرته قد توسمت فيه ذلك من أول أمره، فسارع أخوه بالرضاعة علاء الدين علي أبو الحسن بن إبراهيم بن داود بن العطار فأستجاز له مجموعة من مشايخ عصره منهم أحمد بن عبدالقادر أبو العباس العامري، وابن الصابوني ، وأمين الدين ابن عساكر وجمال الدين ابن الصيرفي، ومن مكة الإمام محب الدين الطبري محدث الحرم ومفتيه ومن المدينة كافور بن عبدالله الطواشي، وغيرهم<sup>(٢)</sup>، ويعترف الذهبي بهذه العناية، حين علق في ترجمته الفضل الهمذاني<sup>(٣)</sup>، قلت : « لو كان له من يعتني به لأخذ له إجازة القاضي أبي الفصل الأرموي وطبقته»<sup>(٤)</sup> .

(١) معجم الشيوخ ، الذهبي ص ٢٤٦ بتصريف .

(٢) الدرر الكامنة ، ابن حجر العسقلاني ج ٢ ص ٤٢٦ ط حيدر آباد ١٩٥٠م .

(٣) انظر مقدمة تمقيق د. بشار عواد لسير أعلام النبلاء ص ٢٤ . ٢٥ ط مؤسسة الرسالة بيروت ١٤١٠هـ .

(٤) معجم شيوخ الذهبي ص ٢٨٥ .



وقد هيا الله تعالى له أن يتفرغ لطلب العلم لأهم له إلا الإلمام بالعلوم الشرعية، فقد عاش في كنف والده الميسور الحال ومن المعلوم أنه رذا توفرت الحالة المادية للفرد يكون أكثر اشتغالاً بطلب العلم، إذا لا شغل له تقريباً إلا ذلك.

# المطلب الرابع

تكوينه ،

لا نستطيع أن نغفل تلك الغرسات التي تلقاها الذهبي في سنوات عمره الأولى فأنثرت في بنائه، وكانت هذه الغرسات هي التي نمت بعد ذلك وترعرت بتصميم وعزم الشباب فكان هذا الإمام العالم الفذ الداعية إلى الله تعالى .

إذن لابد من تقسيم التكوين الثقافي للإمام الذهبي إلى مرحلتين :

**أ - مرحلة الطفولة والصبا ،**

في طفولته المبكرة أمضى الذهبي أربع سنوات في مكتب الشيخ علاء الدين علي بن محمد الحلبي المعروف بالبصيص<sup>(١)</sup>، وكان من أحسن الناس خبرة بتعليم الصبيان، وفي تلك الأثناء كان جده عثمان يمرنه على النطق بالراء، يقوم بذلك لسانه، وأراد الذهبي بعد ذلك أن يحفظ القرآن الكريم، فتوجه إلى الشيخ مسعود بن عبدالله الصالحي<sup>(٢)</sup>، فلقنه جميع القرآن وقرأ عليه نحواً من أربعين ختمة، ومن حينها بدأ الذهبي يحضر مجالس الشيوخ ليسمع كلام بعضهم، وكان الذهبي يستغل كل الفرص لتلقي العلم، فها هو يذهب إلى الشيخ عز الدين الفاروئي حينما قدم إلى دمشق وحدثه، مما يدل على حبه للعلم والعلماء منذ صغره<sup>(٣)</sup>، ومالت نفس الذهبي إلى جمع القراءات ، فوجد بغيته عند الشيخ ابن جبريل المصري نزل دمشق، فقرأ ع ليه ختمه جامعة لمذاهب القراء السبعة، بما اشتمل عليه كتاب «التيسير» للداني وكتاب «حز الأمانى» للشاطبي<sup>(٤)</sup> .

(١) معجم شيوخ الذهبي من ٢٨٥ .

(٢) السابق من ٦٦٦ .

(٣) مقدمة تحقيق سير أعلام النبلاء للذهبي، د. بشار عواد من ١٩ .

(٤) ذيل الطبقات، الحسيني، من ٣٦ ط دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان .

وهكذا عرفنا أن الإمام الذهبي في هذه المرحلة تميز بعقل كان مثل أرض خصبة لبذر البذور الطيبة فيها، وبتوفيق من الله تعالى وبما رزقه الله من ذكاء وفطنة استطاع سقي هذه البذور .

ب - مرحلة الشباب :

شرع الذهبي في الاشتغال بالعلم والاعتناء به عناية مكثفة عندما بلغ الثامنة عشرة من عمره<sup>(١)</sup> فلزم أكثر شيوخ عصره وأخذ عنهم شتى فنون الثقافة مع حرصه الشديد على المتابعة الشخصية، فكانت حياته العلمية ذات وجوه ثلاثة بدأ بالقراءات، ثم أقبل على الحديث، وأخيراً أنتج في التايخ<sup>(٢)</sup> وسوف أفصل الحديث عنها على النحو التالي :

١ - القراءات :

اهتم الذهبي بقراءة القرآن الكريم فتوجه سنة (٦٩١هـ) هو رفقته إلى شيخ القراء أبي إسحاق إبراهيم بن داود العسقلاني ثم الدمشقي المعروف «بالفاضلي» فشرع عليه بالجمع الكبير<sup>(٣)</sup>، وكان الذهبي يجلس إليه في تربة أم الصالح، لكن الفاضلي أصيب بطرف من الفالج<sup>(٤)</sup> فكان يقرئ في بيته، ثم ازداد الفالج على الفاضلي فمنع الطلبة من الدخول عليه حتى مات سنة (٦٩٢هـ) فظلت قراءة الذهبي عليه ناقصة، بيد أن الذهبي من شدة حرصه كان في الوقت نفسه يقرأ بالجمع الكبير عن المقرئ الدمشقي الشيخ جمال الدين أبي إسحاق إبراهيم بن غالي وقرأ ختمة جامعة لذهب القراء السبعة<sup>(٥)</sup> وقبل أن يتعدى الذهبي الشعرين من عمره أصبح على معرفة جيدة بالقراءات وأصولها ومسائلها، فأجاز له

(١) المغني في الضعفاء للذهبي، تحقيق نور الدين منتر من ١، ط دار إحياء التراث العربي - بيروت .

(٢) أعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب. د. صلاح المنجد من ١١٧ بتصريف يسير .

(٣) غاية النهاية في طبقات القراء، ابن الجوزي ج٢ من ٧١ ط مصر ١٣٥١هـ .

(٤) شلل يصيب أحد الجسم طولاً. الفالج، انظر لسان العرب مادة فلج .

(٥) ذيل تذكرة الحفاظ، الحسيني من ٣٦ ط دار الكتب العلمية - بيروت .

شيخه قاضي القضاة شهاب الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن خليل الدمشقي الشافعي بعد أن سألته عن عدة مسائل في القراءات فأجابته<sup>(١)</sup> .

واستمر الذهبي في تحصيل هذا الفن حتى ألف في ذلك الكتب فكتب في سنة (٦٩١هـ) المقدمة في التجويد . عن مؤلفها المقرئ المجود أبي عبدالله محمد بن جوهر التلعفري، وتلاختمه للسبعة على مجد الدين أبي بكر محمد المرسي نزيل دمشق ، وجمع الختمة على شيخ القراء بعلبك موفق الدين المتوفي سنة (٧١٨هـ) وقرأ بالسبع أيضاً على المقرئ شمس الدين أبي عبدالله محمد بن منصور الحلبي المتوفي سنة (٧٠٠هـ) وقرأ كتاب المبهج في القراءات السبع لسبط الشيخ أبي منصور الخياط البغدادي والسبعة لابن مجاهد على شيخه أبي حف عمر القواس المتوفي سنة (٦٩٨هـ) وسمع الشاطبية من غير واحد من القراء<sup>(٢)</sup> .

٢ - الحديث :

في هذه المرحلة اتجه الذهبي إلى طلب الحديث بشكل أكثر غزارة فاعتنى به عناية فائقة<sup>(٣)</sup> وانطلق في هذا العلم حتى طغى على كل تفكيره واستغرق كل حياته بعد ذلك ، فسمع ما لا يحصى كثرة من الكتب والأجزاء ، ولقى كثيراً من الشيوخ وأكرمه الله بالشفغف في سماع الحديث وقراءه، ورافقه ذلك طيلة حياته حتى كان يسمع من أناس قد لا يرضى عنهم، ففي معجم شيوخه يذكر الذهبي بعض من سمع منهم وهو غير راض عنهم، مثل بن يحيى التميمي الدمشقي الذي كان «سبيء الحال سفيهاً»<sup>(٤)</sup>، ومثل علاء الدين أبي الحسن على بن مظفر الاسكندراني شيخ دارالحديث النفيسية، الذي قال عنه في ترجمته: « لم يكن

(١) معجم شيوخ الذهبي ص ٤٥٩ .

(٢) مقدمة تحقيق سير أعلام النبلاء، د. بشار عواد ص ٢٢ .

(٣) طبقات الشافعية، السبكي ج ٩ ص ١٠٢ .

(٤) معجم شيوخ الذهبي ص ٦١٤ .

عليه ضوء في دينه، حملتني الشدة على السماع من مثله، والله يسامحه كان يخل بالصلوات ويرمي بعظائم الأمور<sup>(١)</sup>، بل كان الشدة يبلغ به حد السماع من مثله العامة فيقول في ترجمة الشيخ محمد بن النصير المؤذن: شويخ عامى، سمعنا منه ولم يكن بذاك<sup>(٢)</sup> بل يتجاوز به الشدة ذلك الحد إلى القراءة على الصم، أنه قرأ بأعلى صوته في أذن شيخه محمود بن محمد الخرائطي الصالحي<sup>(٣)</sup>.

### ٣ - التاريخ :

ونجده في تاريخه جماعاً ، فنرى الكتب التي اختصرها الذهبي من أهم مصادر ثقافته كمؤرخ فيما بعد ، فقد اختصر تاريخ بغداد للخطيب ، وتاريخ مصر لابن يونس ، وتاريخ دمشق لابن عساكر وذييل الطبري للسمعاني ، وتاريخ نيسابور للحاكم وغيرها ، ليصبح « الذهبي في التاريخ جماعاً كبيراً شأنه شأن ابن عساكر والبرزالي والصفدي والمهم أنه يعرف ما ينتقى ، وفي تراجمه لمن سبقه ومن عاصره يحاول أن يقدم ترجمة واضحة شاملة فيها ما يوجد في كتب كثيرة مفرقاً ، واختياره الأخبار يدل علم وفهم وضبط»<sup>(٤)</sup>.

---

(١) المرجع السابق ص ٣٨٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٥٨١ .

(٣) المرجع السابق ص ٦١٢ .

(٤) أعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب ، د. صلاح المنجد . ص ١٢٢ .

# المطلب الخامس

## رحلاته في طلب العلم .

تكاد تكون الرحلة في تاريخ التربية الإسلامية من شروط استكمال الريادة والقيادة التربوية ، لما فيها من زيادة علم وصقل خبرة ودمائة خلق<sup>(١)</sup> . لذلك كان الذهبي حريصاً على الرحلة إلى البلدان الأخرى لما لها من أهمية بالغة في تحصيل علوم الإسناد وقدم السماع ولقاء الحفاظ والمذاكرة لهم والاستفادة عنهم<sup>(٢)</sup> ، إلا أن والده لم يشجعه على الرحلة ، بل منعه في بعض الأحيان وقد ذكر الذهبي ذلك في تراجم بعض الشيوخ ، فقال في ترجمة شيخه أبي الفرج عبدالرحمن بن عبداللطيف البغدادي شيخ المستنصرية، وقد همت بالرحلة إليه ثم تركته لمكان الوالد<sup>(٣)</sup> ، ويبدو أن تحسر الذهبي على عدم الرحلة لهذا الشيخ كان شديداً، لذلك نراه يذكر تحسره مرة في ترجمة نفس الشيخ في كتابه معرفة القراء الكبار على الطبقات والإعصار قائلاً عنه (وانفرد عن أقرانه وكنت أتحصر على الرحلة إليه وما أتحسر خوفاً من الوالد، فإنه كان يمنعني)<sup>(٤)</sup> .

ولم يكن الذهبي ابناً عاقاً يخالف إرادة والده، لا سيما أن آداب طلب العلم تقتضي استئذان الأبوين في الرحلة ووجوب طاعتها وبرهما وترك الرحلة إذا كرها ذلك<sup>(٥)</sup> . وقد منَّ الله تعالى على الذهبي بالقيام بعدد من الرحلات في طلب العلم كان منها ما كان في البلاد الشامية ومنها ما كان خارجها .

(١) دراسة موضوعية، د. عبدالرحمن النحلوي للامام الذهبي. ص ١١ ط دار الفكر . دمشق . سوريا .

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي . مقدمة ص ٢٤ .

(٣) معجم شيوخ الذهبي ص ٢٩٢ .

(٤) الذهبي ، معرفة القراء ص ٥٥٦ ط القاهرة ١٩٦٩م .

(٥) مقدمة . تحقيق سير أعلام النبلاء .

## ١ - رحلاته الداخلية في الشام :

حينما بلغ الذهبي العشرين من عمره، سمح له والده برحلات قصيرة لا يقيم في كل منها أكثر من أربعة أشهر ويرافقه فيها بعض من يعتمد عليه، فرافقه أبوه بنفسه في رحلته إلى حلب سنة (٦٩٣هـ) وقد سمع معه فيها من بعض شيوخ حلب وكان رفيقه في رحلاته خاله علي بن سنجر بن عبدالله الموصلية<sup>(١)</sup> .

وقد بدأت رحلاته العلمية بالتجول في بلاد الشام نفسها، فكانت أولى رحلاته سنة (٦٩٣هـ) إلى بعلبك وفيها قرأ القرآن الكريم جمعاً على الشيخ الموفق النصيبى<sup>(٢)</sup> وسمع من الإمام أبي أحمد المغربي ثم البعلبكي<sup>(٣)</sup> ورحل بعد ذلك إلى حلب وأكثر فيها عن علاء الدين أبي سعيد سنقر بن عبدالله الأرمني ثم الحلبي<sup>(٤)</sup> . وسمع من جماعة من شيوخها وتشير المصادر إلى أنه قد سمع ببلدان عديدة منها حمص وحماة وطرابلس والكرك والمعرة وبصرى ونابلس والرملة والقدس وتبوك<sup>(٥)</sup> .

## ب - رحلاته الخارجية :

وأمتد طموح الذهبي وازداد شراهة في طلب العلم، فرحل إلى مصر يرافقه أخوه من الرضاع داود بن ابراهيم بن داود بن العطار وهو أكبر من الذهبي بثمانية أعوام. وفي مصر سمع الذهبي من أشهر علمائها مثل أبي المعالي أحمد بن إسحاق بن محمد الأبرقوهي<sup>(٦)</sup>، وشيخ الإسلام تقي الدين أبي الفتح محمد بن علي بن دقيق العيد القشيري<sup>(٧)</sup> .

(١) معجم شيوخ الذهبي ص ٣٦٧ .

(٢) غاية النهاية في طبقات القراء . ابن الجوزي ج ٢ ص ٧١ ط مصر ١٣٥١هـ .

(٣) طبقات الشافعية ، السبكي ، ج ٩ ص ١٢ ط دار المعرفة بيروت .

(٤) معجم الشيوخ للذهبي ص ٢٢١ .

(٥) مقدمة . تحقيق سير أعلام النبلاء .

(٦) معجم شيوخ الذهبي ص ٢٦ .

(٧) تذكرة الحفاظ ، الذهبي ج ٤ ص ١٤٨ .

وشرف الدين عبدالمؤمن بن خلف الدمياطي<sup>(١)</sup> وغيرهم .

ثم قصد الأسكندرية للقاء الشيخ أبي الحجاج يوسف بن الحسن التميمي فسمع منه التجويد<sup>(٢)</sup>، كما قرأ جزءاً من القرآن على إمام أهل القراءات شرف الدين أبي الحسن يحيى بن أحمد بن عبدالعزيز بن الصواف الجذامي الأسكندراني وكان شيخاً مسناً في السابعة والثمانين، وقد أضر وأصم فكان الذهبي يدخل عليه بمشقة ويمنع من الدخول أحياناً، فإذا دخل عليه قرأ ربع حزب فقط ثم ينقطع صوته لما كان بالشيخ من صمم، فزهد فيه الذهبي وتركه خوف ضياع الوقت<sup>(٣)</sup>، كما ختم القرآن بقراءة ورش وحفص على الإمام صدر الدين أبي القاسم عبدالرحمن بن عبدالحليم بن عمران الكالي الملقب سُحُنُون<sup>(٤)</sup>، في سنة (٦٩٨هـ) أي بعد وفاة والده، سافر الذهبي وحج، وقال في حوادث هذه السنة من تاريخ الإسلام: وجاء نبأ الأمير شمس الدين العينتابي، وكان يرافقه في حجة جماعة من أصحابه وشيوخه، منهم شيخ الحديث بالمدرسة المستنصرية العالم المسند أبو عبدالله محمد بن عبدالمحسن المعروف بابن الخراط الحنبلي، فسمعت منه بالعلی ومعاني كتاب الفرج بعد الشدة<sup>(٥)</sup> .

كما سمع بمكة وعرفه ومنى والمدينة من مجموعة كبيرة من الشيوخ<sup>(٦)</sup> .

---

(١) المرجع السابق ج٤ ص ١٤٠٧ .

(٢) معجم شيوخ الذهبي ص ٦٥٤ .

(٣) طبقات القراء للذهبي ص ٥٥٨ ط القاهرة ١٩٦٩م .

(٤) معجم شيوخ الذهبي ص ٢٨٩ .

(٥) المرجع السابق ص ٥٢٤ .

(٦) مقدمة تحقيق سير أعلام النبلاء . د. بشار عواد ص ٣١ .



# المطلب السادس

## صلاته الشخصية وأثرها في تكوينه الفكري

اتصل الذهبي اتصالاً وثيقاً بثلاثة من شيوخ ذلك العصر وهم جمال الدين أبو الحجاج يوسف بن عبدالرحمن المزي الشافعي وتقي الدين أبو العباس أحمد بن عبدالحليم المعروف بابن تيمية الحراني وعلم الدين أبو محمد القاسم بن محمد البرزالي، وترافق معهم طيلة حياته، وكان أصغرهم سناً، في حين كان المزي أكبرهم، وكان بعضهم يقرأ على بعض، فهم شيوخ وأقران في الوقت نفسه، وقد ساعد على شد أواصر هذه الرفقة اتجاههم نحو طلب الحديث منذ فترة مبكرة وميلهم إلى آراء الحنابلة ودفاعهم عن مذهبهم .

هذه الصلة بين الرفقة وما اختطوه لأنفسهم ومالوا إليه من آراء الحنابلة قد أدت ف كثير من الأحيان إلى إيذائهم والتحامل عليهم بما ليس فيهم. وقد أؤذي المزي بسبب ذلك .

حينما وقعت المناظرة بين ابن تيمية والشافعية فقرأ المزي فصلاً في الرد على الجهمية وغضب بعض الفقهاء الحضارين وشكاه إلى القاضي الشافعي ابن صغرى وهو من أعداء ابن تيمية فأمر بسجن المزي<sup>(١)</sup> .

وهكذا فإن الذهبي منع من تولي مشيخة أكبر دار للحديث بسبب ميله لآراء الحنابلة وبسبب علاقته بابن تيمية<sup>(٢)</sup> .

ثم أثرت صلة الذهبي بابن تيمية فيما اختصر أو الف من كتب وفي بلورة بعض آرائه وحيه للحنابلة وموقفه من بعض المتصوفة . فقال في ترجمة شيخه بهاء الدين أبي المحاسن عبدالمحسن بن محمد المعروف ابن العديم المتوفي سنة (٧٠٤هـ) وكان يدخل في ترهات

(١) البداية والنهاية . ابن كثير جـ ١٤ ص ٣٧ .

(٢) الدرر الكامنة . ابن حجر جـ ٥ ص ٢٣٤ ط الهند ١٩٥٠ .

الصوفية، وكذلك في ترجمة ثعلب بن جامع الصعيدي الأحمدي البارزدار<sup>(١)</sup>: كان من كبار الأحمديّة وله اتباع ثم أنه تاب وترك تلك الرعونات<sup>(٢)</sup>.

ثم يتكلم الذهبي عن المنطق فيقول: «نفعة قليل وضرره وبيل وما هو من علوم الإسلام» ويقول عن الفلسفة: «الفلسفة الإلهية ما ينظر فيها من يرجى فلاحه ولا يركن إلى اعتقادها من يلوح نجاحه، فإن هذا العلم في شق وما جاءت به الرسل في شق، ولكن ضلال من لم يدر ما جاءت به الرسل كما ينبغي بالحكمة أشرم ممن يدرى، وأغوثاه بالله، إذا كان الذين قد انتدبوا للرد على الفلاسفة قد حاروا ولحقتهم كسفة فما الظن بالمرئود عليهم»<sup>(٣)</sup>.

كانت رفقته لابن تيمية مثار الطعن بعض الناس في كتاباته بسبب اعتقادهم بتحيزهما<sup>(٤)</sup>.

وهكذا نرى أن البيئة التي نشأ فيها الذهبي بيئة محبة للعلم تشجع أبنائها على طلبه وتيسر لهم سبله، ثم نرى البيئة الثانية التي إختارها الذهبي لنفسه من رفاق يجمع بينهم حب العلم والإصرار على طلبه، هذه البيئة التي يؤثر فيها الذهبي بقدر ما يتأثر قد أهلته بعد البيئة الأصلية ليكون واحداً من كبار علماء عصره.

«ومع أن كثيراً من الانتقادات التي وجهت إلى الذهبي بسبب العقائد كان يغلب عليها طابع التحامل والتعصب، إلا أننا في الوقت نفسه يجب أن نعترف بأن تكوينه الفكري العام قد ارتبط ارتباطاً شديداً بالحديث والمحدثين ونظرتهم إلى العلوم والعلماء وفلسفتهم تجاه العلوم العقلية»<sup>(٥)</sup>.

(١) طبقات الشافعية، السبكي ج٦ ص ١٧٠ ط الحسينية المصرية ١٠٤.

(٢) الذهبي ومنهجه في كتابه «تاريخ الإسلام» د. بشار عواد معروف ص ١٠٤ ط عيسى البابي الحلبي.

(٣) بيان زغل العلم. الذهبي ص ٢٤. ٢٥. ٢٦ ط مطبعة التوفيق بدمشق.

(٤) معيد النعم ومبيد النقم. السبكي ص ٧٤ مطبعة بريل ١٩٠٨م.

(٥) الذهبي ومنهجه في كتابه «تاريخ الإسلام» د. بشار عواد ص ١٠٥.

# المبحث الثاني

## شيوخه وتلاميذه

ويتكون من ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : شيوخه .

المطلب الثاني : رفاقه .

المطلب الثالث : تلاميذه .

# المطلب الأول

## شيوخه :

حرص الذهبي على أن يسجل أسماء مشايخه الذين أخذ عنهم العلم وساهموا في تكوينه الثقافي ، وقد ترجم في معجمه لعدد كبير من الشيوخ بلغ ألفاً وثلاثة وأربعين شيخاً ، ممن لقيهم أو كتبوا له بالاجازة في صغره أو أجازوا له في الكبر دون أن يلقاهم . وسوف أقتصر هذا على ذكر شيوخه الذين كان لهم أثر في نشأته العلمية وتكوينه الفكري ، متتبعين ذلك في سيرته مبتدئين بأول طلبه للعلم :

- ١ - الشيخ علي بن محمد الحلبي ، علاء الدين البصيص الذي أقام الذهبي في مكتبه أربعة أعوام ، فتأدب عنده وأعجب بخطه وخبرته في تعليم الصبيان ، وكان الذهبي إذا ذكره يقول مؤدبنا . قدم البصيص سنة تسعين وستمئة عن نو من ثمانين سنة<sup>(١)</sup> .
- ٢ - الشيخ مسعود بن عبد الله الأغرازي<sup>(٢)</sup> ، وكان من القراء لأبي عمر علي الشيخ زين الدين الزاوي ، وقد قرأ عليه الذهبي نحواً من أربعين ختمة . وقد ذكره الذهبي في معجمه بقوله : (لقنني جميع القرآن ، وكان خيراً متواضعاً لقن خلقاً وكان إمام مسجد بالشغور وكان لا يضرب صبيانه)<sup>(٣)</sup> .
- ٣ - إبراهيم بن داود بن ظافر ، جمال الدين أبو إسحاق العسقلاني<sup>(٤)</sup> . ولد في صفر سنة اثنتين وعشرين وستمئة ، وسمع من الزبيدي وابن اللثي ومكرم والأربلي وصحب الشيخ علم الدين السخاوي مدة ، جمع عليه بالسبع وانتفع به

(١) معجم شيوخ الذهبي ص ٢٨٥ .

(٢) معجم شيوخ الذهبي ص ٦١٦ ، وانظر ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٥ ص ١١٩ مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد . الهند ١٣٤٨هـ .

(٣) معجم شيوخ الذهبي ص ٦١٦ بتصريف .

(٤) معجم شيوخ الذهبي ص ١٠٦ ، وانظر ابن الجزري : غاية النهاية في طبقات القراء ج ١ ص ١٤ ، ط مكتبة الخانجي بمصر ١٩٢٣ م .

وتصدر للإقراء بالتربية الصالحة، ثم حصل له فالج وكان يقرئ بمنزله. وقد قصده  
الذهبي وشرع في الجمع الكبير فانتهى عليه إلى أواخر القصص. وأجاز للذهبي  
مروياته<sup>(١)</sup>.

٤ - الشيخ إبراهيم بن غالي بن شاور البديوي، الحميري الشافعي<sup>(٢)</sup>، شيخ الإقراء بالتربية  
الإشرافية، جمع بجماعة كتب على أبي إسحاق ابن فارس، وبالسبع على أبي محمد  
الزواوي، وحفظ التنبيه والفتية ابن معط، وقد لازمه الذهبي، وشرع عليه في الجمع  
الكبير وقال عنه في معجمه: «كان حسن التعليم، أخذ عنه جماعة»<sup>(٣)</sup>.

٥ - محمد بن أحمد خليل الخويي ثم الدمشقي الشافعي<sup>(٤)</sup>، ولد سنة عشرين وستمئة،  
«وسمع مع ابن اللتي والسخاوي وابن الصلاح وغيرهم، وأجاز له خلق كثير»<sup>(٥)</sup>، وقد  
جلس الذهبي بين يديه فسأله عن غير مسألة من القراءات فأجابته فأجاز له مروياته<sup>(٦)</sup>

٦ - محمد بن منصور بن موسى، الحلبي الحاضري الشافعي<sup>(٧)</sup>، لازم ابن مالك وأخذ عنه  
جملة من العربية، وكان أحد المقصودين للإقراء بالمدرسة العادلية والجامع الأموي  
وقد قرأ عليه الذهبي بالسبع<sup>(٨)</sup>.

٧ - عمر بن عبد المنعم بن عمر، أبو القاسم الطائي الدمشقي بن القواس<sup>(٩)</sup>، ولد سنة

---

(١) معجم الشيوخ للذهبي ص ١٠٦ بتصريف.

(٢) معجم الشيوخ ص ١١٨، وانظر ابن الجوزي: غاية النهاية في طبقات القراء ج ١ ص ٢٢ ط  
الخانجي بمصر ١٩٣٣م.

(٣) معجم الشيوخ ص ١١٨.

(٤) معجم الشيوخ ص ٤٥٩، وانظر ابن العماد العكري العنبري: شذرات الذهب ج ٥، ص ٤٢٣، ط  
دار الكتب العلمية - بيروت.

(٤) معجم الشيوخ ص ٤٥٩-٤٦٠.

(٥) المرجع السابق نفس الصفحة بتصريف.

(٦) معجم الشيوخ ص ٥٧٨، وانظر ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة ج ٥ ص ٣٦.

(٧) معجم الشيوخ ص ٤٠٢، وانظر ابن ثفري بردي: النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٨٩.

(٨) معجم الشيوخ للذهبي ص ٤٠٢.

خمس وستمائة ، وسمع من ابن الحرستاني وأبي يعلى وأحمد بن عبدالله العطار وأبي نصر الشيرازي وابن البخاري، وأجاز له الكندي وابن ملاعب وعبد الجليل بن مندوبه وخلق سواهم، وتفرد في زمانه وتكاثر عليه الطلبة ، خرج الذهبي له مشايخه، وقرأ عليه المبهج في القراءات السبعة لابن مجاهد والكفاية في القراءات الست، وسمع منه نحواً من ثمانين جزءاً. وقال عنه الذهبي في معجمه: « ونعم الشيخ كان ديناً وتواضعاً وإطفاً وحسن الأخلاق ومحبة للحديث»<sup>(١)</sup> .

٨ - محمد بن عبدالعزيز ، الدمياطي ثم الدمشقي الشافعي<sup>(٢)</sup> ولد سنة عشرين وستمائة، «وتلا بالسبع على السخاوي وسمع منه وخدمه ولازمه وسمع من أبي الوفاء بن الحنبلي والتاج القرطبي»، وقد أكمل عليه الذهبي القراءات وقال عنه : « كان حسن الأخلاق، طويل الروح ، نزل لي عن حلقة في مرضه ومات بحصر البول رحمه الله»<sup>(٣)</sup>

٩ - علي بن مظفر بن إبراهيم الكندي الاسكندراني ثم الدمشقي<sup>(٤)</sup>، شيخ دار الحديث النفيسية ، ولد سنة أربعين وستمائة وتلا بالسبع على علم الدين الأندلسي وشمس الدين أبي الفتح ، وسمع من إبراهيم بن خليل وابن خطيب القرافة والبكري والذين بن عبد الدائم، فأكثر ونسخ شيئاً كثيراً، وعنى بالرواية ثم بدع في معاني الإنشاء وجود خطه وتقدم في النظم والنثر وكتب للدولة بالحصون زماناً ثم أقام بدمشق ولم يرضى الذهبي عن دينه ولكن شرهه في طلب العلمي حمله على السماع منه، فقال عنه في معجمه : « لم يكن عليه ضوء في دينه، حملني الشره على السماع من مثله، والله يسامحه كان يخل بالصلوات ويرمي بعظام الأمور»<sup>(٥)</sup> .

(١) معجم شيوخ الذهبي ص ٤٠٢ .

(٢) معجم الشيوخ ص ٥١٨، وانظر الصفدي، الوافي بالوفيات ج ٢ ص ٢٥٦ ط الهاشمية بدمشق .

(٣) معجم الشيوخ ص ٥١٩ .

(٤) معجم الشيوخ ٢٨٩، وانظر ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ج ٦ ، ص ٣٩ .

(٥) معجم الشيوخ ص ٢٨٩ .

- ١٠- غازي بن عبدالرحمن بن أبي محمد الدمشقي<sup>(١)</sup>، كان كاتباً بارعاً، كتب على ابن النجار وغيره، وأتقن كتابة الرقاع لكنه كان ذا سيرة غير محمودة<sup>(٢)</sup>. ويبدو أن شره الذهبي في طلب العلم حمله على السماع منه أيضاً وقد مات في شوال سنة تسع وسبعمائة وله خسم وثمانون سنة<sup>(٣)</sup>.
- ١١- محمود بن محمد بن محمود الصالحي الخرائطي الأصم<sup>(٤)</sup>، سمع الرشيد ابن مسلمة والمرسي والبلخي، وقد بلغ من شدة شغف الذهبي أنه قرأ عليه في أذنه بأقوى صوته ثلاثة أحاديث<sup>(٥)</sup>.
- ١٢- محمد بن أبي العلاء بن علي بن المبارك، موفق الدين النصيبي شيخ القراء ببعلبك<sup>(٦)</sup>، ولد سنة سبع عشرة وستمائة وتلا بالسبع على ابن عمرو وابن الحاجب، وقد جمع الذهبي عليه الختمة وسمع منه الحاجبية في النحو، ومات في ذي الحجة سنة خمس وتسعين وستمائة<sup>(٧)</sup>.
- ١٣- سنقر بن عبدالله الأرمني<sup>(٨)</sup> سمع القاضي بهاء الدين بن شداد والموفق عبداللطيف ويحيى بن جعفر وابن الزبيدي وابن روزيه وغيرهم وتفرد بأشياء كثيرة وحدث من بعد سنة ستين وستمائة، وقد ذكره الذهبي بقوله: «رحلت إليك وأكثرت منه، ونعم الشيخ كان ديناً ومروءة وعقلاً وتعفاً كل من يعرفه يثنى عليه»<sup>(٩)</sup>.

(١) معجم الشيوخ من ٤١٩، وانظر ابن حجر: الدرر الكامنة ج ٢ من ٣٩٣.

(٢) معجم الشيوخ من ٤١٩.

(٣) المرجع السابق من ٤١٩.

(٤) المرجع السابق من ٦١٢.

(٥) المرجع السابق نفس الصفحة.

(٦) المرجع السابق من ٦٠٤، وانظر ابن العماد العنبري: شذرات الذهب ج ٥ من ٤٣٣.

(٧) معجم الشيوخ من ٦٠٤.

(٨) معجم الشيوخ من ٢٢١، وانظر الصديقي: الوافي بالوفيات ج ١٥ من ٤٩٦ ط الهاشمية بدمشق

(٩) معجم الشيوخ من ٢٢١.

١٤- أحمد بن محمد بن عبدالله، الحلبي الظاهري<sup>(١)</sup>: ولد في شوال سنة ست وعشرين وستمائة واشتغل وقرأ بالسبع على ابن عبدالله الفاسي وسمع من ابن اللتي والإربيلي والموفق وابن رواحه وغيرهم من دمشق ومصر وماردين وحران وخرج بنفسه الأربعين البلدية، والموفقات وأنتقى على عدد من الشيوخ ونسخ شيئاً كثيراً وعنى بفن الرواية، وقال عنه الذهبي في معجمه: «كان تام الشكل منور الشيبة مقصوداً بالزيادة والتبرك محبباً إلى الناس، كَيْسَ الجملة»<sup>(٢)</sup> وقد تميزت مجموعة من شيوخ الذهبي عن يرمهم في عطائهم العلمي، وبذلك كانوا أكثر أثراً في تكوين ثقافته، وكان من أبرزهم:

أ - الإمام العالم محمد بن علي بن وهب بن مطيع، تقي الدين أبو الفتح، والمعروف بابن دقيق العيد<sup>(٣)</sup>، الذي سمع من الكثير وولى القضاء ثمانين سنين، وكان علامة في المذهبين «المالكي والشافعي» عارفاً بالحديث وفنونه، سارت بمصنفاته الركبان وكان مولده في شعبان سنة خمس وعشرين وستمائة وتوفي في صفر سنة اثنتين وسبعمائة<sup>(٤)</sup>.

ب - عبد المؤمن بن خلف بن أبي الحسن، الدمياطي التونسي الشافعي ولد سنة ثلاث عشرة وستمائة، واشتغل بدمياط وأتقن الفقه ثم طلب الحديث سنة ست وثلاثين وستمائة ورحل وسمع من جماعة، وتحدث في معجمه على ألف ومائتين وخمسين شيخاً. وله تصانيف متقنة في الحديث والعوالي واللغة والفقه وغير ذلك، وله السيرة النبوية في مجلد ومات فجأة في ذي القعدة سنة خمس وسبعمائه بالقاهرة، ومحاسنه جملة<sup>(٥)</sup>.

(١) معجم شيوخ الذهبي ص ٧٢، وانظر ابن الجزي: غاية النهاية ج ١ ص ١٢٢.

(٢) معجم الشيوخ الذهبي ص ٧٢.

(٣) معجم الشيوخ ص ٥٤٤، وانظر ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ج ٦ ص ٥.

(٤) معجم شيوخ الذهبي ص ٥٤٤.

(٥) معجم شيوخ الذهبي ص ٣٣٧.



ج - عبدالرحمن بن عبدالحليم بن عمر الفقيه المقرئ الملقب بسحنون<sup>(١)</sup>، ولد سنة ست عشرة وستمائة، وكان مفتياً محدثاً مقرئاً نحوياً جم الفضائل، سمع مناين الظاهري والمزي وغيرهم، وتلا بالسبع على أبي القاسم الصفراوي وتلا عليه الذهبي ختمه بورش وحفص<sup>(٢)</sup>.

د - علي بن أحمد بن عبدالمحسن، الهاشمي الحسيني الواسط الغدامني ثم الإسكرائي، شيخ دار الحديث النبوية بالثغر<sup>(٣)</sup>، ولد سنة ثمان وعشرين وستمائة، وسمع من جمع كثير منهم العلم السخاوي وابن القاسم بن راحة، خرج له عنهم جزء، وخرج هو بنفسه، وأكثر عنه الحالة من المشاركة والمغاربة<sup>(٤)</sup>.

هـ - محمد بن عبدالمسح بن أبي الحسن بن عبد الغفار بن الخراط الأزجي والحنبلي ولد سنة ثمان وثلاثين وستمائة وسمع من جماعة، وتفرد في زمانه وولى مشيخة المستنصرية، وقدم دمشق سنة ثمان وتسعين وستمائة ووعظ بها، وقد رافقه الذهبي في الحج وسمع منه بالعلو ومعاني كتاب الفرج بعد الشدة<sup>(٥)</sup>

و - محمد بن إبراهيم بن النحاس الحلبي، ولد سنة سبع وعشرين وستمائة، وسمع ابن اللتي وابن راحة والموفق، وتخرج به أئمة وكان حسن الخلق مطرح التكلف، وكان من أذكيا العلم، ويعرف المنطق، وكان مشهوراً بديانة وخير وقد توفي في جماد الأول سنة ثمان وتسعين وستمائة<sup>(٦)</sup>.

(١) معجم الشيوخ ص ٢٨٩، وانظر السيوطي: حسن المحاضرة ج ١، ص ٥٠٥، ط مطبعة الموسوعات بمصر.

(٢) معجم الشيوخ ص ٢٨٩.

(٣) معجم الشيوخ ص ٣٥٦، وانظر ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة ج ٣، ص ٨٥.

(٤) معجم الشيوخ ص ٣٥٦-٣٥٧.

(٥) معجم الشيوخ ص ٥٢٤، وانظر ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٢٧٤. طبعة مصورة عن دار الكتب. وزارة الثقافة والإرشاد. المؤسسة المصرية العامة.

(٦) معجم الشيوخ ص ٤٥٣، ٤٥٤، وانظر ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ج ٥ ص ٢٤٢.

## المطلب الثاني

رفاقه ،

لقد كان في سعي الذهبي لطلب العلم وحرصه على حضور مجالسه والسماع من الشيوخ فرصة كبيرة للتعرف على الكثيرين من طلاب العلم منهم الذين في مثل سنه أو ممن يكبرونه أو يصغرونه ليصبحوا رفاقاً في طلب العلم ، ثم يصطفي منهم الذهبي مجموعة يجد بينه وبينهم تجواًباً فكرياً وميلاً واحداً نحو مذهب معين فيخص نفسه بهم ويخصهم بنفسه وتكثر بينهم المجالس والمناقشات العلمية التي تؤدي بطبيعة الحال إلى حدوث التزئير والتزئير ، فيتأثر ، ببعض آرائهم ويتأثرون ببعض آرائه .

« اتصل الذهبي اتصالاً وثيقاً بثلاثة من شيوخ هذا العصر وهم : جمال الدين أبو الحجاج يوسف بن عبد الرحمن المزني الشافعي وتقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم المعروف بابن تيمية الحاني وعلم الدين أبو محمد القاسم بن محمد البرزالي وترافق معهم طيلة حياتهم وكان الذهبي أصغر رفاقه سناً وكان أبو الحجاج المزني أكبرهم وكان بعضهم يقرأ على بعض ، فهم شيوخ وأقران في الوقت نفسه»<sup>(١)</sup> :

١ - جمال الدين أبو الحجاج يوسف بن عبد الرحمن المزني الشافعي<sup>(٢)</sup> : ولد بظاهر حلب سنة أربع وخمسين وستمائة ، ونشأ بالمزني ، وقراء القرآن وتفقه ثم بدأ يطلب الحديث سنة خمس وسبعين وستمائة ، قال الذهبي : « فما ونى وما فتر ولا لها ولا قصر وعني بهذا الشأن أتم عناية وقرأ العربية وأكثر من اللغة والتصريف وصنف وأفاد سوسمع ابن - وابن أبي علان والشيخ شمس الدين والقاسم والأربلي والعز والحرائي وغازي الحلوي وخلانق ، وكتب الكثير ورواه مع السمعت الحسن والاقصتاد والتواضع والحلم وعدم الشر»<sup>(٣)</sup> .

(١) الذهبي ومنهجه في كتابه تاريخ الإسلام ، د. بشار عواد معروف . ص ٩٩ .

(٢) معجم شيوخ الذهبي ص ٦٥٧ ، وانظر الدرر الكامنة ، ج ٥ ص ٢٣٣ .

(٣) معجم شيوخ الذهبي ص ٦٥٧ .

وقد وجد فيه الذهبي العالم الكبير المتواضع، وتمنى لو أنه لازمه وانقطع له، وقال عنه في تذكرة الحفاظ: «كان خاتمه الحافظ وناقد الأسانيد والألفاظ وهو صاحب معضلاتنا وموضع مشكلاتنا، حفظ القرآن في صباه وتفقه للشافعي مدة وله معرفة بشيء من الأصول وكتابتة حلوة، وفيه حياءٌ حلم وسكينة وصبر على ما يؤذيه وقلة كلام إلا أن يسأل فيفيد، وما علمته خرج لنفسه عوالي ولا موافقات ولا معجماً، وكنت ألومه على ذلك فيسقط ولو كان لي رأي للزمته أضعاف ما جلست، فإبني أخذت عنه هذا الشأن بحسبي لا بحسبه، كان لا يكاد يعرف قدره إلا من أكثر مجالسته إلى أن قال: ترافق هو وابن تيمية كثيراً في السماع للحديث وفي النظر للعمل، فكان يقرر طريقه السلف في الفقه وبعض ذلك بمباحث نظرية وقواعد كلامية، وجرى بيننا معارضات ومجادلات في ذلك تركها أولاً وأسلم، توفي رحمه الله سنة ٧٤٢هـ»<sup>(١)</sup>.

٢ - القاسم بن محمد البرازلي الأشبيلي الأهل الدمشقي الشافعي<sup>(٢)</sup>: ولد سنة خمس وستين وستمادة وأجاز له ابن عبدالدائم والنجيب وابن عمرو وابن علان وخلق كثير وسمع في سنة ثلاث وسبعين وستمادة من أبيه فأكثر عنه ومن الشيخ شمس الدين وابن علان والعز الحرائي وعدة من أصحاب حنبل وابن طبرز والكندي، وعلى خلق من أصحاب السلفي وابن عساكر، ثم على خلق من أقرانه والفضلاء بالحرمين ومصر ودمشق والقدس وحلب وحماة والأسكندرية وعدة مدان، فمسيخته بالإجازة والسماع فوق الثلاثة آلاف، وكتبه وأجزأه الصحيحة في عدة أماكن، وهي مبنولة للطلبة، وقراءته المليحة الفصيحة الصحيحة مبنولة لمن قصده وتواضعه وبشره مبنولان لكل غني وفقير، وقد توفي في ثالث ذي الحجة سنة تسع وثلاثين وسبعمئة<sup>(٣)</sup>.

وفي تذكرة الحفاظ يقول عنه الذهبي: «هو الذي هيا لي طلب الحديث» فقد رأى خطي

(١) تذكرة الحفاظ للذهبي ج٤ ، ص ٢٨١ ، ط الهند .

(٢) معجم الشيوخ ص ٤٢٥ ، وانظر شذرات الذهب ج٤ ، ص ١٢٢ .

(٣) معجم الشيوخ الذهبي ص ٤٢٥ .

فقال : خطك يشبه خط المحدثين فزتر قوله في ، وسمعت منه وتخرجت به في أشياء<sup>(١)</sup> .  
٣ - أحمد بن عبدالحليم بن عبد السلام بن بعدالله بن أبي القاسم بن تيمية الحراني<sup>(٢)</sup> ،  
ولد في العاشر من ربيع الأول سنة إحدى وستين وستمئة بحران وتحول إلى دمشق  
سنة سبع وستين ، فسمع من خلق كثير وعنى بالرواية وسمع الكتب والمسند والمعجم  
الكبير ، وسمع الذهبي جملة من مصنفاته وقال عنك ( ولم يخلق بعده مثله ، من العلم  
ولا من يقاربه . وقال أيضاً : « ما رأيت أسرع انتزاعاً للآيات الدالة على المسألة التي  
يوردها منه ، ولا أشد استحضاراً للمتون وعزوها منه كأن السنة نصبت أمام عينيه  
وعلى طرف لسانه بعبارة رشيقة » ) .

« أما ابن تيمية فكانت شخصيته قد اكتملت منذ أن كان الذهبي شاباً في أول طلبه  
للعلم ، وكان قد زصبح مجتهداً له أراؤه الخاصة التي تقوم في أصلها على اتباع آراء  
السلف ، وابتدأ منذ عام ٦٩٨ هـ يدخل في خصومات عقائدية حادة مع علماء عصره  
من المخالفين له ، ويقيم الحدود بنفسه ويطلق رؤوس الصبيان ويحارب المشعوذين من  
أدعياء التصوف ويمنع من تقديم النذور ، ويدور هو وأصابه على الخمارات والحانات  
ويريق الخمر ويقاتل بعض من يعتقد فساد عقيدته ويشتط على القضاة ، بل بلغ الأمر  
به في إحدى المرات أن يدخل السجن وأخرج رفيقه المزني منه بنفسه<sup>(٣)</sup> .  
فأحب الذهبي شيخه ورفيقه ابن تيمية ، وأعجب به إعجاباً شديداً وتأثر به تأثراً  
بالغاً . كما كان للذهبي رفاق كثيرون وإن لم يكونوا قريبين من نفسه قرب الرفاق  
الثلاثة السابقين ، منهم .

(١) انظر تذكرة الحفاظ للذهبي ج ٤ ص ٢٨٣ .

(٢) معجم الشيوخ الذهبي ص ٤١-٤٢ ، وانظر محمد بن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ج ١ ، ص ٣٥ ،  
ط مصر ١٩٣٣ م .

(٣) الذهبي ومنهجه في كتابه تاريخ الإسلام ، د . بشار عواد معروف ص ١٠١ .

- ٤ - أحمد بن أيوب الحسامي الدمياطي<sup>(١)</sup>: ولد سنة سبع مائة وسمع من أخدم بن عبد الرحيم، وحسن بن عمر الكردي وغيرهما، واشتغل بنفسه وقرأ وانتفى وذيلى على ذيل الوفيات التي جمعها المنذري ثم الحسيني، ورحل إلى دمشق فسمع بها وظهرت فضائله، وقد انتخب عليه الذهبي جزءاً من حديثه وسمع منه، كما سمع من الذهبي. وقد مات الحسامي في الطاعون الذي أصاب مصر سنة ٧٤٩هـ<sup>(٢)</sup>.
- ٥ - عبد الرحمن بن محمد البعلبكي<sup>(٣)</sup>، ولد سنة (٦٨٥هـ) وقال عنه الذهبي « صديقنا ورفيقنا تفقه وطلب هذا الشأن وارتحل فيه مرات وكتب العالي والنازل من سنة خمس وسبع مائة (٧٠٥) وهلم جرا، وخرج وأفاء الخاصة والعامة، سمع مني وسمعت منه، توفي في ذي القعدة سنة اثنتين وثلاثين وسبع مائة (٧٣٢) »<sup>(٤)</sup>.
- ٦ - عبدالله بن عبد المؤمن بن عبدالله بن علي بن المبارك<sup>(٥)</sup>: ولد سنة (٦٧١هـ) بواسط وقرأ القراءات على جماعة بتلك البلاد، وقدم دمشق وقرأ بها وقد ترجم له الذهبي في طبقات القراء قائلًا: « أخذ عني وأخذت عنه وأقرأ الناس ببغداد وواسط والبصرة والبحرين ومكة والشام وغيرهما من البلاد، وقد توفي في شوال سنة (٧٤١هـ) »<sup>(٦)</sup>.
- ٧ - محمد بن علي بن أبي بكر الفاخوري، ثم الدمشقي الشافعي المعروف بابن العديسة: ولد سنة (٦٧٣هـ) وحفظ القرآن وجوده، والتنبيه والتحصيل للأرموي، وحضر المدارس مدة ثم ترك، وقرأ للناس على الكراسي واصطحب الذهبي مدة وسمع معه من ابن القواس والعز بن العماد<sup>(٧)</sup>.

(١) الدرر الكامنة، ابن حجر ج ١ ص ١٠٨.

(٢) الدرر الكامنة (١٠٨/١).

(٣) معجم شيوخ الذهبي ص ٣٠٠، والدرر الكامنة ج ٢، ص ٣٤٢.

(٤) الشيوخ الذهبي ص ٣٠٠، وانظر الذهبي: تذكرة الحفاظ ج ٤ ص ٢٨٩.

(٥) معجم الشيوخ الذهبي ص ٢٦٢، وانظر ابن الجزري: غابة النهاية ج ١ ص ٤٢٩.

(٦) الدرر الكامنة ابن حجر ج ٢، ص ٢٧١.

(٧) معجم الشيوخ الذهبي ص ٥٤٥، وانظر ابن حجر: الدرر الكامنة ج ٤ ص ١٧٨.

- ٨ - محمود بن أبي محمد بن حامد التنوخي الأرموي ثم الشافعي الصوفي<sup>(١)</sup> : ولد سنة (٦٤٧هـ) وسمع من الكثير ثم قرأ الكثير بقراءة فصيحة صحيحة متقنة إلى حدود سنة تسعين وستمئة، عن الطلب ولزم الوحدة وغلبت عليه السوداء وأقبل على اللغة فجمع فيها الكتب الثلاثة الصحاح والمحكم والتهذيب ، وألفها كتاباً واحداً وقد سمع منه الذهبي جزء ابن عرفة ، ومات بالبيارستان ودفن بباب الصغير في جمادى الآخر سنة (٧٢٣هـ) .
- ٩ - هلال بن أحمد بن محمد المقرئ ، أبو محمد البصري العتبي<sup>(٢)</sup> : سمع صحيح مسلم وعدة كتب وفيه دين وتقوى وحب للسنة ، قد ولد سنة اثنتين وتسعين وستمئة، وتوفي في شوال سنة سبع وعشرين وسبعمائة ، وقال عنه الذهبي في معجمه: « سمعنا منه ، رافقني إلى مكة عاماً فما أنصفته رحمه الله»<sup>(٣)</sup> . ونظن أن الذهبي يقول : فما أنصفته ، لأنه أوجز في ترجمته كثيراً ولم يورد مما سمعه منه شيئاً .
- ١٠ - شهاب الدين أبو العباس أحمد بن المظفر بن بدر بن بكار النابلسي، الدمشقي الشافعي، ولد سنة (٦٧٥هـ) قال عنه الذهبي : « له فهم ومعرفة وحفظ على شراسة أخلاقه، والله يصلحه فعليه مأخذ دينه ثم أنه صلح وسكنت نفسه، وفضائله كثيرة»<sup>(٤)</sup> .
- ١١ - عبد الكريم بن عبد النور بن منير المقرئ الحلبي<sup>(٥)</sup> ، ولد سنة (٦٦٤هـ) وسمع من العز الحرائي والفخر بن البخاري وخلق كثير بالحرمين ومصر والشام، وقال عنه الذهبي (هو دين خير متواضع مجموع الفضائل، سمعت منه بمنى من جزء الغطريف من أوله، وقد إلى بمردياته، وله تواليف مفيدة، توفي سنة (٧٣٥هـ)<sup>(٦)</sup> .

(١) المرجع السابق ص ٦١٣، وانظر ابن حجر : الدرر الكامنة ج٤ ص ١٠٣ .

(٢) المرجع السابق ص ٦٣٣، وانظر ابن حجر : الدرر الكامنة ج٥ ، ص ١٧٨ .

(٣) المرجع السابق ص ٦٣٣ .

(٤) تذكرة الحفاظ للذهبي ج٤ ، ص ٢٨٦، وانظر معجم الشيوخ ص ٨١ .

(٥) معجم الشيوخ ص ٣٢٧، وانظر تذكرة الحفاظ ج٤ ، ص ٥٠٢ .

(٦) المرجع السابق ص ٣٢٧ .

١٢- محمد بن إبراهيم الوافي<sup>(١)</sup>: ولد سنة (٦٨٤هـ) وختم القرآن صغيراً ثم طلب العلم وسمع من الكثير، وكتب العالي والنازل، وأظهر شيوخاً ومروبات وأفاد وخرج وحج وجاور ورحل إلى مصر ثلاث رحلات وقد انتقى له الذهبي جزءاً حدث به غير مرة<sup>(٢)</sup>.

١٣- محمد بن أحمد عبد الهادي بن يوسف بن محمد بن قدامه المقدسي<sup>(٣)</sup>: ولد سنة (٧٠٥هـ) تردد إلى ابن تيمية ومهر في الحديث والأصول العربية وغيرهما، درس بالدرية والضيائية وتصدر، قال عنه الذهبي: « ما اجتمعت به قط إلا استفدت منه وكثر التأسف عليه لما مات. مات رحمه الله في عاشر جمادي الأولى سنة (٧٤٤هـ).

وهناك رفاق كثيرون للذهبي لا يتسع المقام لذكرهم جميعاً، وإنما ذكرت بعضهم على سبيل المثال لا الحصر.

ويتضح من كثرة رفاق الذهبي أنه كان يكثر من مجالس العلم والرحلة في طلبه، مما هيا له أن يلتقي بكل هؤلاء الرفاق فيسمع منهم ويسمعون منه، ويتأثر بهم ويتأثرون به.

ولا شك أن كثرة شيوخ الذهبي ورفاقه قد عبرت عن تأثره بهم ونقله عنهم، فقد كانت تمثل الروافد التي استقى منها ثقافته التي تعددت فروعها بتعدد كثرة اطلاعه على هذه الفروع أيام طلبه للعلم، ثم كثرة تصانيفه بعد أن نضج واتجه إلى الجمع والتصنيف.

---

(١) المرجع السابق ص ٤٥٤.

(٢) المرجع السابق ص ٤٥٥.

(٣) الدرر الكامنة، ابن حجر ج ٢، ص ٣٣١.

## المطلب الثالث

### تلاميذه ،

وكما تأثر الذهبي بمشايقه ودرس عليهم وأخذ عنهم ، تراه أثر في تلاميذه ، فقد كان له تلاميذ متعددون أخذوا عنه وقرروا عليه وتأثروا بمؤلفاته ورووا كتبه وشرحوا بعضها ومن أهم تلاميذه وأنجبهم :

١ - عبدالوهاب بن علي السبكي : ولد سنة (٧٢٧هـ) قدم دمشق مع والده فسمع بها وقرأ بنفسه على المزي ، ولزم الذهبي وأمعن في طلب الحديث ، وكتب الأجزاء والطبقات ، مع ملازمته الاشتغال بالفقه والأصول العربية ، وانتشرت تصانيفه في حياته ، وعمل الطبقات الكبرى والوسطى والصغرى ، وأذن له ابن النقيب بالإفتاء والتدريس ، ودرس في غالب مدارس دمشق وولى الحديث في الأشرافية بتعين أبيه وانتهت إليه رياسته والمناصب بالشام .

وربما تتحدد العلاقة بين السبكي وأستاذه الذهبي من خلال ما قاله السبكي عن شيخه «وهو الذي خرجنا في هذه الصناعة، وأدخلنا في عداد الجماعة، وهو شيخنا وأستاذنا، والحق أحق أن يتبع»<sup>(١)</sup> .

وقد قال عنه الذهبي عندما رفض والده أن يكتبه مع المزي من الطبقة العليا وطلب أن يكتبوا اسمه مع المبتدئين « والله هو فوق هذه الدرجة وهو محدث جيد » فضحك والده وقال : يكون مع المتوسطين<sup>(٢)</sup> .

٢ - خليل بن أيك الصفدي : ولد سنة (٦٩٦هـ) وقد أحب الأدب ولع به وكتب الخط الجيد وطلب العلم بنفسه ، ثم أخذ في التأليف وأفرد منه أهل عصره في كتاب سماه ، أعوان النصر في أعيان العصر ويتحدث الصفدي عن الذهبي قائلاً : « اجتمعت به وأخذت عنه وقرأت عليه كثيراً من تصانيفه ، فقرأت عليه من تاريخ الإسلام المغازي والسيرة النبوية إلى آخر أيام الحسن ، وجميع الحوادث إلى سنة ٧٠٠هـ ، وطبقات

(١) طبقات الشافعية ، السبكي ج ٥ ص ١٧١ ، ط الحسينة المصرية .

(٢) المرجع السابق ص ٢١٦ .



لاقراء تناولته منه وأجازني روايته ، وفتح المطالب في أخبار علي بن أبي طالب قرأته عليه من أوله إلى آخره، والثلاثين البلدانية وجزء من تكلم فيه وهو موثق كتبتهن بخطي وقرأتهن عليه»<sup>(١)</sup> .

- ٣ - محمد بن علي الحسيني : ولد بدمشق سنة (٧١٥هـ) وسمع جماعة من الأعيان منهم المزي والذهبي والبرازلي وخلائق ، يجمعهم معجمه الذي خرج له لنفسه، وصنف التصانيف ، وخطه معروف حلو ، كان سريع الكتابة، نسخ كتاب العبر للذهبي في خمسة أيام، وله مؤلفات حسنة ما بين مطول ومختصر أكثر من تعاليق أو زيول على مؤلفات شيخه الذهبي منها التعليق على ميزان الاعتدال ، وذييل العبر ، وذييل طبقات الحافظ وتوفي الحسيني بدمشق سنة (٧٦٥هـ)<sup>(٢)</sup> .
- ٤ - أحمد بن علي العريان الشافعي : ولد سنة (٧١٨هـ) وحصل الكتب والأجزاء ودرس الحديث بالمنكوتيرية وولى خانقاه الطويل ، وكان محمود الخصال، توفي في جمادي الآخرة سنة (٧٨٨هـ)<sup>(٣)</sup> .
- ٥ - أحمد بن علي بن عيسى الكركي : ولد سنة (٧٣٦هـ) وتفقه ومهر وحفظ المناهج وطلب الحديث، وتوفي الكركي سنة (٧٥٩هـ)<sup>(٤)</sup> .
- ٦ - أحمد بن محمد بن عبدالله الاسكندراني المالكي : رحل إلى دمشق فأخذ عن الذهبي وجماعة ثم عاد إلى الأسكندرية فولى القضاء بها وتوفي في رجب سنة (٧٥٩هـ)<sup>(٥)</sup> .
- ٧ - محمد بن موسى المصري المعروف بابن سند : ولد في ربيع الآخر سنة (٧٢٩هـ) ولى مشيخة الحديث بعدة أماكن، وقد وصفه الذهبي باليقظة وحلاوة الخط وانطلاق اللسان، وقال ابن حجر عنه : « ذيل على العبر للذهبي بعد ذيل الحسيني رزقته بخطه ، وذييل فيه إلى قرب الثمانين فقط ، وخرج لنفسه أربعين حديثاً متباينة الإسناد وخرج

---

(١) الوافي بالوفيات ، الصفدي ج٢ ص ١٦٣، ونكت الهيمنان في نكت العميان له أيضاً ص ٢٤٢، ط الخانجي .

(٢) الدرر الكامنة، ابن حجر ج٤ ص ٦١ .

(٣) المصدر السابق نفسه ج١ ص ٣٦٤ .

(٤) المصدر السابق نفسه ج١ ص ١٦٨ .

(٥) المصدر السابق نفسه ج١ ص ٢٧٦ .

- لغيره، توفي رحمه الله في صفر (٧٩٢هـ)<sup>(١)</sup> .
- وتزخر الكتب التي ترجمت لعلماء القرن الثامن الهجري بأسماء كثيرة تلقت العلم على الإمام الذهبي نذكر منهم على سبيل المثال :
- ١- محمد بن الحسن الألفي : ولد سنة (٧١٣هـ) وطلب الحديث وعني به ولازم الذهبي وقرأ عليه الكثير ، ثم ولى قضاء المالكية بحلب سنة (٧٦٩هـ) بعد وفاة قاضيها ، ووصفه الذهبي بأنه (كان عادلاً في أحكامه ويحفظ كثير من الفوائد الحديثية والأدبية - توفي رحمه الله سنة «٧٨٦هـ»)<sup>(٢)</sup> .
  - ٢- إبراهيم بن عثمان البرهان المقدسي : ولد سنة بضع عشرة وسبعمائة ومات سنة ثمان وأربعين وسبعمائة. وذكر الذهبي في المعجم المختص<sup>(٣)</sup> .
  - ٣- أحمد بن عمر بن شيب البالسي المصري : توفي سنة (٧٢٤هـ)<sup>(٤)</sup> .
  - ٤- حسين بن علي بن عبد الكافي السبكي : ولد سنة (٧٢٢هـ) وتوفي سنة (٧٥٥هـ)<sup>(٥)</sup> .
  - ٥- محمد بن يوسف الغامري المغربي : ولد سنة (٦٩٠هـ) وتوفي سنة (٧٣٨هـ)<sup>(٦)</sup> .

وإذا كان أحد تلاميذ الذهبي وهو الحسيني قد قال عنه : « حمل عنه الكتاب والسنة خلائق<sup>(٧)</sup> فإنه من الصعب أن نحصر جميع من تلقوا العلم عن الإمام الذهبي، وإنما اكتفيت بأشهرهم أو أكثرهم اقترباً منه ولزوماً .

- 
- (١) الدرر الكامنة ، ابن حجر ج ٤ ص ٢٧٠ .
  - (٢) شذرات الذهب ، ابن العماد ج ٦ ص ٢٩٢ .
  - (٣) المعجم المختص للذهبي ص ٦٥ ، ط مكتبة الصديق الطائف ١٤٠٨هـ .
  - (٤) المعجم المختص ص ٣١-٣٢ .
  - (٥) المعجم المختص ص ٨٨ .
  - (٦) المعجم المختص ص ٢٦٨ .
  - (٧) ذيل تذكرة الحفاظ ، الحسيني ص ٣٦ ، ط دار احياء التراث العربي - بيروت .

# المبحث الثالث

## وفاته وثناء الأئمة عليه

وفيه ثلاثة مطالب .

المطلب الأول : وفاته .

المطلب الثاني : أولاده .

المطلب الثالث : ثناء الأئمة عليه .

# المطلب الأول

## وناته .

ذكر الذين ترجموا للذهبي أنه توفي رحمه الله تعالى سنة ثمان وأربعين وسبعمائة (٧٤٨هـ-١٣٢٧م)<sup>(١)</sup> أيا السلطان حسن بن الناصر محمد بن قلاوون<sup>(٢)</sup> في يوم الإثنين<sup>(٣)</sup> وقيل بعد العشاء وقبل نصف الليل في ليلة الإثنين الثالث من ذي القعدة، وذلك أصح لموافقة ابن كثير في هذا القول وهو المعاصر له<sup>(٤)</sup> .

لقي الذهبي ربه بمسكنه بتربة أم الصالح . وقد استكمل آنذاك من العمر خمسة وسبعين سنة وستة أشهر، وصلى عليه صلاة الظهر في جامع دمشق ، ودفن في مقابر الباب الصغير بتربة أم الصالح<sup>(٥)</sup> ، وحين بلغ خبر وفاته أهل حلب تأسفوا عليه وصلوا عليه صلاة الغائب<sup>(٦)</sup> ، وكان رحمه الله تعالى قد فقد بصره قبل وفاته بأربع سنوات تقريباً ، وكان يغضب إذا قيل له : لو قدحت عينيك لأبصرت لأنه كان نزل فيها ماء- ويقول أليس هذا بماء وإنما أنا أعرف بنفسي لأنني مازال بصري ينقص قليلاً إلى أن تكامل عدمه<sup>(٧)</sup> .

- 
- (١) فوات الوفيات والذيل عليها، محمد بن شاكر الكتبي ، تحقيق د. إحسان عباس م ٢ ص ٢١٧ ط دار صادر بيروت ١٩٧٤م.
  - (٢) البداية والنهاية ، ابن كثير ج ١٤ ص ٢٤٢ .
  - (٣) طبقات الحفاظ، مراجعة لجنة من العلماء ، السيوطي ط ١ دار الكتب العلمية ، بيروت . لبنان ١٩٨٣م.
  - (٤) البداية والنهاية ، ابن كثير ج ١٤ ص ٢٤٣ .
  - (٥) المصدر السابق ، نفس الصفحة، وانظر طبقات الشافعية ، الأسنوي (٥٥٩/١) .
  - (٦) طبقات الشافعية ، السبكي . ج ٥ ص ٢١٧ ط الحسينية وتاريخ ابن اللوردي ، ج ٢ ص ٤٩٥ . وانظر تنمة المختصر أخبار البشر لذين الدين عمر بن الورده إشراف وتحقيق أحمد رفعت البدر اوي ج ٢ دار المعرفة بيروت - لبنان الطبعة الأولى ١٣٨٩هـ - ١٩٧٠م .
  - (٧) الدرر الكامنة . ابن حجر العسقلاني ج ٢ ص ٣٢٨ ط دار الجيل بيروت، وانظر الصفدي : الوافي بالوفيات ج ٢ ص ١٦٥ ط الهاشمية .

عاش الذهبي حتى جاوز السبعين وهو مشغول بالحديث يدرس ويؤلف ويجمع ويختصر وينتقي . حتى وافاه الأجل المحتوم بعد أن ملأ الدنيا علماً وساهم في نشر دين الإسلام تدريساً ووعظاً وتأليفاً، فملأ الساحة العلمية بمصنفات مبسطة ومختصرة دلت على حياة نؤوية عاكفة على خدمة أظهر طريق وأنقى علم وقد رثاه المحبون بأبيات يعبرون فيها عن إحساسهم بحبهم نحوه وفضله عليهم، فهذا تاج الدين السبكي يرثيه متأثراً فيقول له :

مَنْ للحديث والسايرين في الطلب	من بعد موت الإمام الحافظ الذهبي
مَنْ للرواية للأخبار ينشرها	بين البرية من عجم ومن عرب
مَنْ للدراية والآثار يحفظها	بالنقد من وضع أهل العن والكذب
ثبت صدقو خبير حافظ يقظ	من النقل أصدق أنباء من الكتب <sup>(١)</sup>

وقال فيه شمس الدين بنالموصلي يشير إلى عمله وغزارته :

ما زلت بالسمع أهواكم وما ذكرت	أخباركم قط إلا ملت من طربي
ولست من عجب إن ملت نحوكم	فالناس بالطبع قد مالوا إلى الذهبي

وقال في نفس ذلك المعنى بدر الدين ابن حبيب :

شمس علوم أشرقت أنوراه	يحببه أهل التقى والأدب
وأي ذي فهم إليه لم يمل	وكيف لا يميل نحو الذهب <sup>(٢)</sup>

(١) طبقات الشافعية، السبكي، ج ٥ ص ٢١٨ ط ٢ دار المعرفة بيروت .

(٢) تاريخ ابن قاضي شعبة، تقي الدين أبو بكر بن أمد بن قاضي شعبة، تحقيق عدنان درويش ٢٣ ص ٥٢٢ المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق ١٩٩٤م

## المطلب الثاني

### أولاده .

ترك الذهبي ثلاثة من الأبناء ، ذكرين وأنثى ، وقد ورثوا حب العلم عن أبيه حتى عرفوا به ، وهم :

- ١ - أبو الدرداء عبدالله ، ولد سنة ٢٠٨هـ ، وأسمعه أبوه من خلق كثير وحدث ومات في ذي الحجة ٧٥٤هـ<sup>(١)</sup> .
- ٢ - شهاب الدين أبو هريرة عبدالرحمن ، ولد سنة ٧١٥هـ ، وسمع من والده أجزاء حديثية كثيرة، وسمع من عيسى المطعم الدلال، وخرج له أبوه أربعين حديثاً من نحو المائة نفس، وحدث منذ سنة ٧٤٠هـ وتأخرت وفاته إلى ربيع الآخر سنة ٧٩٩هـ . وخلف ولداً اسمه محمد سمع من جده وأجاز له جده رواية كتابة تاريخ الإسلام<sup>(٢)</sup> .
- ٣ - أمة العزيز ، وقد أجاز لها شيخ المستنصرية رشيد الدين أبو عبدالله محمد بن عدالله البغدادي، وغيره من الشيوخ باستدعاء من والدها وقد أنجبت ولداً اسمه عبدالقادر، سمع مع جده من أحمد بن محمد المقدسي وأجاز له جده رواية كتابه تاريخ الإسلام<sup>(٣)</sup> .

---

(١) الدرر الكامنة ، ابن حجر المسقلاني ج ٢ ص ٣٩٢ .

(٢) مقدمة سير أعلام النبلاء ، بشار عواد . ص ٧٤ .

(٣) المرجع السابق ص ٦٨ .

## المطلب الثالث

بناء الناس عليه .

حظى الإمام الذهبي بمكانة علمية عالية لحمله العلم الشرعي وإبلاغه للناس قاصداً بذلك وجه الله تعالى ورضاه، ورأى الناس فيه شاهداً له يوم القيامة بإذن الله، كما ورد في صحيح مسلم: « عن أنس بن مالك . قال : "مر بجنازة فائتى عليها خيراً ، فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم وجبت وجبت وجبت " ، ومر بجنازة فائتى عليها شراً ، فقال : نبيير الله صلى الله عليه وسلم : " وجبت وجبت وجبت " قال عمر : فدى لك أبي وأمي مرُ بجنازة فائتى عليها خيراً فقتل : وجبت وجبت وجبت . ومرُ بجنازة فائتى عليها شراً فقتل : وجبت وجبت وجبت ؟ فقال رسول الله ﷺ : « من أثنتم عليه خيراً وجبت له الجنة . ومن أثنتم عليه شراً وجبت له النار ، أنتم شهداء الله في الأرض ، أنتم شهداء الله في الأرض . أنتم شهداء الله في الأرض»<sup>(١)</sup> .

وقد شهد له علماء عصره بالصلاح وأداء الأمانة، ففيه يقول أحمد بن شاکر الكتبي في فوات الوفيات : « أتقن الحديث ورجاله ونظر عمله وأحواله، جمع الكثير ونفع الجم الغفير وأكثر من التصنيف ووفر بالاختصار مؤنة التطويل في التأليف»<sup>(٢)</sup> .

وقال عنه شمس الدين محمد بن علي الحسيني: « الشيخ الإمام العلامة، شيخ المدثين، قدوة الحفاظ والقراء ، محدث الشام ومؤرخه .

كان أحد الأذكياء المعدودين والحفاظ المبرزين، حمل عنا الكتاب والسنة خلانق، والله تعالى يغفر له»<sup>(٣)</sup> .

(١) باب فيمن يثنى عليه خيراً أو شراً من الموتى .

(٢) فوات الوفيات، ابن شاکر الكتبي. ج٢ ص ١٨٣ ط دار صادر بيروت ١٩٧٤م.

(٣) ذيل تذكرة الحفاظ . الحسيني ، ص ٢٤ ط دمشق ١٣٤٧هـ .

وقال عنه السبكي : « محدث العصر وخاتم الحفاظ القائم بأعباء هذه الصناعة، وحامل راية أهل السنة والجماعة، إمام العصر حفظاً وإتقاناً ، وفرد الدهر الذي يدعن له أهل عصره، ويقولون: لا ننكر أنك أحفظنا وأتقانا شيخنا وأستاذنا ومخرجنا ، هو على الخصوص سيد ومعتدي وله على من الجميل ما أخرج وجهي وملايدي، جزاه الله عني أفضل الجزاء، وجعل حظه من غرفات الجنان أفضل الجزاء .. لا زال يخدم هذا الفن حتى رسخت فيه قدمه، وتعب الليل والنهار، وما تعب لسانه وقلمه حتى ضرب بسمه الأمثال وسار اسمه مسير الشمس، إلا أنه لا يتقاصر إذا نزل المطر، ولا يغيب عند إقبال الليل . كنز هو الملجأ إذا نزلت المعضلة، إمام الوجود حفظاً وذهب العصر معنى ولفظاً وشيخ الجرح والتعديل ورجل الرجال في كل سبيل ، كأنما جمعت الأمة في صعيد واحد فنظرها ثم أخذ يخبر عنها إخبار من حضرها»<sup>(١)</sup> .

ووصفه الصفدي بالرونة وحسن التفقه فقال عنه : « أخذت وقرأت عليه كثيراً من تصانيفه وكتبه ولم أجد عنده جمود المحدثين ولا كودنه النقلة بل هو فقيه النظر له درية بأقوال الناس ومذاهب السلف وأرباب المقالات»<sup>(٢)</sup> .

وأثنى عليه ابن كثير مؤرخاً وحافظاً فقال : « الشيخ الإمام الحافظ الكبير، مؤرخ الإسلام وشيخ المحدثين، وقد ختم به شيوخ الحديث وحفاظه ، رحمه الله»<sup>(٣)</sup> .

وصفه بالورع والزهد ابن قاضي شهبه في تاريخه : « أقبل على صناعة الحديث فأتقنها، ودخل في أبوابها وخرج ونصف في أنواعها مع الدين المتين والورع والزهد»<sup>(٤)</sup> .

---

(١) طبقات الشافعية، السبكي ج٩ ص ١٠١ .

(٢)

(٣) البداية والنهاية، ابن كثير ج١٤ ص ٢٤٣ .

(٤) تاريخ ابن قاضي شهبه ، تحقيق عدنان درويش م٢ المعهد العلمي دمشق ١٩٩٤م .



وفي طبقات الحفاظ يجعله جلال الدين السيوطي من المراجع الأساسية لكل المحدثين حيث قال : « إن المحدثين عيال الآن في الرجال وغيرها من فنون الحديث على أربعة : المزي والذهبي والعراقي وابن حجر»<sup>(١)</sup> .

وهذا ابن إياس وهو من المؤرخين وأعلم بأحوالهم يثني على ثقته في هذا المجال ويقول «وكان من ثقة المؤرخين .. صحيح النقل عن الأخبار الواردة عنه في تاريخه رحمه الله عليه»<sup>(٢)</sup> .

وعن أخلاقه وعبادته يصفه تلميذه تقي الدين بن رافع السلامي بقوله : « كان خيراً متواضعاً صالحاً، حسن الخلق، حلواً المحاضرة ، غالب أوقاته في الجمع والاختصار والاشتغال بالعباد، له ورد بالليل ، وعنده مروءة وعصية وكرم»<sup>(٣)</sup> .

وفي الرد الوافر وصفه ابن ناصر الدين بقوله : « الحافظ الهمام ، مفيد الشام ومؤرخ الإسلام»، وفي «عقد الجمان» وصفه بدر الدين العيني بأنه « الشيخ الإمام العالم العلامة الحافظ المؤرخ شيخ المحدثين»<sup>(٤)</sup>، وذكره سبط بن حجر في «رونق الألفاظ» فقال : « الشيخ الإمام العالم العلامة، حافظ الوقت الذي صار هذا اللقب علماً عليه .. فله دره من إمام محدث.. فكم دخل في جميع الفنون فهو الإمام سيد الحفاظ إمام المحدثين قدوة الناقدين»<sup>(٥)</sup> .

---

(١) طبقات الحفاظ، السيوطي ص ٥٢٢ ط دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٣ .

(٢) بدائع الزهور في وقائع الدهور ج١ ق ١ ص ٥٠٠ . تحقيق محمد مصطفى - الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

(٣) في مقدمة سير أعلام النبلاء، بشار عواد ص ٦٨ .

(٤) عن المصدر السابق ، ص ٧١ .

(٥) السابق نفسه .

# الفصل الثالث

## جهود الإمام الذهبي في التدريس والتأليف

ويشتمل على

المبحث الأول : جهود الإمام الذهبي في التدريس .

المبحث الثاني : جهود الإمام الذهبي في التأليف .

# المبحث الأول

جهود الإمام الذهبي في التدريس

## تعريف الجهد :

قال ابن منظور في لسان العرب : « الجهد والجهد ، تقول : أجهد نفسه ، أجهد جُهدك وقيل الجُهد : الشقة، والجُهد : الطاقة وفي التنزيل العزيز : ﴿والذين لا يجدون إلا جهدهم﴾ وقال الغراء : الجهد في هذه الآية الطاقة تقول : هذا جهدي أي طاقتي»<sup>(١)</sup> .

ومن هنا نعلم أن مادة «جهد» تدور حول المشقة وبذل الطاقة إلى حد التعب، من أجل القيم بعمل ما وعلى هذا يكون الجهد هو القيام بعمل أو قول يباليغ فيه صاحبه إلى حد التعب ويبذل في ذلك طاقته ووسعه .

أما عن مادة درس في اللغة، فدرس الكتاب ونحوه، درسه ، ودرس البعير: راضه، ودرست الحوادث فلاناً أي أدرته إياه، وتدارس الكتاب : درسه وتهده بالقراءة والحفظ لئلا ينساه، وتدارس الطلبة الكتاب : درسه كل منهج على الآخر، والمدرس : كثير الدرس والتلاوة في الكتابة، والمدرس : المعلم<sup>(٢)</sup>. ودرست الكتاب أدرسه درساً : أي ذلته بكثرة القراءة حتى خف حظه علي، وأصل الدراسة الرياضه والتعهد للشيء<sup>(٣)</sup> .

من خلال هذين المعنيين يكون مقصودي بجهود الإمام الذهبي في التدريس، هي الأعمال التي قام بها في هذا المجال من اشتغال بدور العلم، ومن رئاسة لدور تولى مشيختها إلى جانب الأقوال التي أثرت عنه في هذا المجال . وهذه الجهود كان الهدف منها خدمة كتاب الله وسنة رسوله - ﷺ - .

ولقد جدُّ الذهب رحمه الله تعالى في تحصيل العلوم معرفتها ، حتى اتقن جملة من العلوم إتقاناً بلغة الإمامة فيها . وأدرك أنه لزاماً عليه تعليمه للناس تبعاً لقوله تعالى : ﴿إن

(١) (١٣٣/٣ . ١٣٤) مادة جهد ، دار صادر بيروت - بدون .

(٢) د. إبراهيم بيومي: المعجم الوسيط ، نشر مجمع اللغة العربية جا ١ من ٢٨٩ .

(٣) انظر لسان العرب (٧٩/٦ . ٨٠).

الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ﴿١﴾ .

وكان يعرف أن العالم الذي لا يبذل علمه للناس ليستفيدوا منه معرض نفسه لنقصان هذا العلم، لأن زكاة العلم بذله للناس<sup>(٢)</sup> كما أنه بذلك شابه أعداء الإسلام من اليهود والنصارى، وخاصة اليهود الذين يعرفون الحق ولا يبذلونه لغيرهم من باب الحسد<sup>(٣)</sup> . قال تعالى : ﴿ إن الذين تكتُمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً أولئك ما يآكون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يذكهم وهم عذاب أليم ﴾<sup>(٤)</sup> .

وعلى أثر ذلك ساهم الذهبي رحمه الله في نشر ما تعلمه وخاض مجال الدعوة وبعده طرق من أهمها التدريس ويمكننا أن نتصور ضخامة جهود الإمام الذهبي في التدريس إذا تأملنا قول تلميذه صلاح الدين الصفدي : « حمل عنه الكتاب والسنة خلايق<sup>(٥)</sup> »، فهذه العبارة تعطينا صورة مجملية لشخصية الذهبي كمدرس يقصده الطلاب من كل حدب وصوب طلباً للعمل والتخرج على يديه . يؤيد ذلك تلميذه السبكي بقوله « وأقام بدمشق يدخل إليه من سائر البلاد وتناديه السؤالات من كل ناد<sup>(٦)</sup> » . وقد شدهم بسعة علمه وغزارة حفظه وعلو مكانته التي تبوأها وتميز بها كمحدث ومؤرخ وعالم بالقراءات حتى ليصدق فيه القول المأثور بأن المورد العذب كثير الزحام .

وهكذا أمضى الذهبي حياته مؤدياً نوره كداعية في مجال التعليم عن طريق الإقراء

(١) سورة البقرة آية ١٥٩ .

(٢) أدب الدنيا والدين - الماوردي . ص ٨٧ - مطبعة دار الكتب العلمية . الطبعة الرابعة - ١٣٩٨ هـ .

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم - ابن تيمية (٧١/١) مطبعة العبيكان - مكتبة الرشد ، طبعة أولى ١٤٠٤ هـ .

(٤) سورة البقرة آية ١٨٤ .

(٥) صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات ج ٢ ص ١٦٣ ط الهاشمية بدمشق .

(٦) طبقات الشافعية الكبرى . ج ٥ ص ٢١٧ . دار المعرفة . بيروت - الطبعة الثانية . بدون .

والخطابة والتدريس . وكان أول عمل قام به في خدمة الدعوة الإسلامية هو «علم القراءة»  
هو علم يبحث فيه عن صور نظم كلام الله تعالى حيث وجوه الاختلافات المتواترة .

مبادئه : مقدمات تواترية أي مقدمات مشهورة أو مروية عن الأحاد الموثوق بهم وله أيضاً  
المستمدات من العلوم العربية .

الغرض منه : تحصيل ملكة ضبط الاختلافات المتواترة .

فأئدته : صون كلام الله تعالى عن تطرق التحريف والتغيير .

وقد يبحث فيه أيضاً عن صور نظم الكلام من حيث الاختلافات غير التواترة الواصلة  
إلى حد الشهرة<sup>(١)</sup> .

كان الهدف الأول للذهبي من تعلم هذا العلم هو صيانة كتاب الله عن التحريف  
والغيير وليس هذا بمستبعد وقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾  
وصيانيته ونشره عن طريق معرفة الأحكام واجتناب غريب الأحسان التي تبعد عن معاني  
آيات الرحمن .

ولشدة إهتمامه تعلم الذهبي علوم العربية المؤهلة لكيفية حفظ كتاب الله؛ لذا نجد  
الذهبي وسنه « لم يتجاوز السادسة والعشرون من عمره حتى تولى حلقة الاقراء بجامع  
دمشق في أول رواق زكريا عوضاً عن شمس الدين العراقي<sup>(٢)</sup> بل أن الذهبي حين ترجم له  
ذكر وفاته في سنة ثلاث وتسعين وستمائة وقال «ولما أنس من نفسه، نزل لي عن حلقة<sup>(٣)</sup> أي  
أن الذهبي تولى الاقراء وعمره لايتجاوز العشرين عاماً . وليس بالقليل أن يتصدر للقراء في  
جامع دمشق وهو في مقتبل عمره فذاع صيته ولم يمنعه .

كان لابد من أن يمارس الذهبي مهام أخرى، يبلغ من خلالها « عن طريقها» العلم

(١) حاجي خليفة. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ١٣١٧/٢ ط دار الفكر ١٩٨٢م/٢/١٤٠هـ.

(٢) ابن حجر العسقلاني. الدر الكامنة ٤٢٧/٣، مطبعة دار الكتب الحديثة بالقاهرة .

(٣) معرفة القراء (٧٠٩/٢) تحقيق د. بشار عواد ، مؤسسة الرسالة .

وانظر. معجم الشيوخ (٥١٩) .

الذي ملاكيانه إلى الناس ليؤدي زكاة هذا العلم مستجيباً لأمر النبي - ص - «بلغوا عني ولو آية . فرب مبلغ أوعى من سامع». وهكذا لمنزلته ومكانته العلمية رُشح لأن يكون خطيباً .

والخطابة هي «الفن الكلامي الذي يُعد أقرب الفنون لقوة الإرادة وألصقها بها لأن الإقناع والتأثير اللذين يعتمد عليهما الخطيب يعملان عملهما في تفكير الجمهور وعواطفه ويدفعان الإرادة إلى العمل الحاسم»<sup>(١)</sup> .

ولما للخطابة من هذا الدور الإيجابي في حركة حياة الناس ومعاملاتهم كانت هي «أداة الدعوة إلى الرأي والعقيدة في الشؤون المختلفة سياسية واجتماعية واقتصادية ودينية، ولها المحل الأول في تربية النفوس أيام السلم وتنشيطها للقتال أيام الحرب، الضغائن، وتهدى إلى الخير، وتحق الحق وتبطل الباطل»<sup>(٢)</sup> . ولم يكن شغل الذهبي بهذا الفن إلا تأثيراً على دوره التربوي والأخلاقي ورغبة في تعلم الدين وغرس القيم والمبادئ الأخلاقية الإسلامية؛ لذا نجد الذهبي حرص على الخطابة في قرية كفر بطنا<sup>(٣)</sup>، وهي من قرى غوطة دمشق<sup>(٤)</sup> وأقام بها<sup>(٥)</sup> . واتخذ الذهبي لنفسه حلقة إلقاء واستمر بها يقرأ له يوقراً عليه<sup>(٦)</sup> . «وقد كانت الدعوة الإسلامية من أعظم البواعث عن انطلاق الألسنة من عقالها فئاتر الخطابة من مكنها وأغررت وفتحت العقول بأحكامها فتفنن خطباء الإسلام فيها

---

(١) د. محمد طاهر درويش الخطابة في صدر الإسلام ج١ ص ١٠٤ . ط دار المعارف بمصر ١٩٦٥م/١٣٨٥هـ

(٢) المرجع السابق نفسه .

(٣) بين منيه وحلب . مراجيد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع - ابن عبدالحق ، صفى الدين أبو الفضائل (٢٠٤/١) .

(٤) محمد كرد علي : غوطة دمشق من ١١٩ . د. حسن شمساني ، الحافظ شمس الدين الذهبي ص ٤٦ . الكتب العلمية بيروت ط أولى ١٤١١هـ .

(٥) البداية والنهاية (٣١/١٤) . وانظر العبر للحسني (١٤٨) .

(٦) د. صلاح الدين المنجد . أعلام التاريخ والجغرافيا . ص ١١١

واختلبوا الأبواب بسحر بيانها فوق ما كانت عليه في جاهليتها<sup>(١)</sup> . وهي ليست بالأمر الهين، فكم منعالم إذا واجه الناس تلعثم ، وحر لا يدري ما يقول، لا لنقص في علمه، ولكن لأنه لم يقدر على مواجهة الناس، منصتين منتظرين الكلمية يخرج من فيه، إلا أن الذهبي كان كفوء لها . فتفوق خطيباً واستمر في الخطابة قرابة عشرين عاماً من سنة ثلاثة وسبعمئة حتى سنة تسع وعشرين وسبعمئة من الهجرة وللأسف لم يتركها حتى بعد أن قام بالتدريس . الشديد لم تصل إلينا هذه الخطب الجيلة القدر العظيمة النفس .

### التدريس :

وهكذا يتدرج الذهبي من الاقراء ثم الخطابة حتى تحنك في طرق توصيل العلم وتصحيح الخطأ وتثبيت الحق، وهكذا أصبح مهيناً لأن يحتل منصباً أكبر له أهميته في تبليغ دعوة الحق . وإذا عرفنا أن جلوس الطالب أمام شيخه يتلقى منه العلم أعظم خطراً من جلوس المصلي في المسجد أمام الخطيب يتلقى منه الموعظة والعبرة، أدركنا أن ممارسة الذهبي للخطابة في مسجد كفر بطنا مدة لا تقل عن خمسة عشر عاماً قبل التدريس، قد أهله تأهيلاً جيداً مناسباً لتولي رئاسة دار من أكبر دور الحديث .

ففي سنة ٧١٨هـ<sup>(٢)</sup> جمع مع الخطابة في كفر بطنا التدريس في مدرسة هي من كبيرات المدارس، فكان انتقال الذهبي من خطيب بمسجد كفر بطنا إلى تدريس الحديث ورئاسة المدرسة الصالحة أيضاً، انتقالاً من مرحلة هامة إلى مرحلة أكثر أهمية .

وتربية أم الصالح واحدة من أكبر دور الحديث بدمشق في تلك الفترة، وواقفها هو

(١) المرجع السابق نفسه .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ج٤ ص٩٦ .



الصالح إسماعيل بن الملك العادل سيف الدين أبي بكر<sup>(١)</sup>، وقد ولى الإمام الذهبي مشيختها بعد وفاة شيخها كمال الدين أحمد بن محمد بن أحمد بن الشريشي الوائلي، وكان وكيلاً لبيت المال، وقد عده الذهبي من شيوخه فقد سمع منه نسخة ابن عرفة عن النجيب، وترجم له في معجم شيوخه بقوله «العلامة كمال الدين أبو العباس الشافعي ابن شيخنا الإمام الكبير جمال الدين، وكيل بيت المال وشيخ دار الحديث، روى لنا نسخة بن عرفة عن النجيب. كان فاضلاً يقطاً قوي المشاركة من نبلاء الرجال، يذكر للقضاء والخطابة»<sup>(٢)</sup> وقد ظل الشريشي شيخاً لتربة أم الصالح ثلاثة وثلاثين سنة، قال ابن كثير: «وفي يوم الاثنين، العشرين من ذي الحجة باشر الشيخ شمس الدين محمد بن عثمان الذهبي المحدث الحافظ بترمة أم الصالح عوضاً عن كمال الدين بن الشريشي والتي كان له في مشيختها ثلاث وثلاثون سنة، وحضر عند الذهبي جماعة من القضاة<sup>(٣)</sup> تبين لنا مدى براعة الذهبي وتميزه في التدريس، فلم تكن حلقات علمه تنعقد لطلاب العلم المبتدئين فقط، وإنما كان يحضرها أيضاً القضاة وكبار العلماء .

وقد امتدت شهرة حلقات علمه حتى ملأت الأفاق فرغب في لقائه أكابر عصره، وحينما قدم العلامة أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالكريم الموصللي الأصل إلى دمشق سنة ٧٣٤هـ درس على الذهبي في تلك السنة وقال فيه :

مازلت بالسمع أهواكم وما ذكرت أخباركم قط إلا صلت من طوبى  
وليس من عجب أن صلت نحوكم فالناس بالطبع قد مالوا إلى الذهب<sup>(٤)</sup>

ولم يترك الذهبي الخطابة بكفر بطنا إلا بعد أن ولى دار الحديث الظاهرية التي

(١) عبدالقادر النعيمي : تنبيه الدارس إلى ما في دمشق من المدارس جا ص٢١٦ ط دمشق ١٣٧٠هـ وانظر منتخبات التواريخ لدمشق ص٩٤٦ .

(٢) معجم الشيوخ ، ص٦٧ .

(٣) البداية والنهاية (٩٦/١٤) .

(٤) تاريخ ابن قاضي شهبه - ٢م جا ص٥٢٢ . حققه عدنان درويش .

أسسها الملك الظاهر بيبرس البندقداري سنة ٦٩٦هـ، والتي حيلت دار كتب وعرفت بدار الكتب الظاهرية<sup>(١)</sup>. وقد وليها الذهبي بعد الشيخ شهاب الدين أحمد بن جهبل<sup>(٢)</sup>، ونزل عن خطابة كفر بطنا. وكان ذلك في يوم الأربعاء السابع عشر من جمادى الآخرة سنة ٧٢٩هـ<sup>(٣)</sup>.

وقد ترك الذهبي الخطابة في مسجد كفر بطنا ليتفرغ للتدريس في تربة أم الصالح وفي دار الحديث الظاهرية، فلم تذكر المصادر أنه ترك تربة أم الصالح بعد أن ولي دار الحديث الظاهرية .

وبعد عشر سنوات من توليه التدريس في الظاهرية خلا منصب إمام المدرسة النفيسية<sup>(٤)</sup> بعد وفاة شيخها علي الدين البرزالي، رفيق الإمام الذهبي وشيخه ولأن مجي العلم عرفوا مكانة الذهبي العلمية أمثلوا عليه يرشحونه لتولي المدارس الكبرى. ففي سنة ٧٢٩هـ تولى الذهبي تدريس الحديث بالمدرسة النفيسية وإمامتها عوضاً عن البرزالي، وكتب له تلميذه صلاح الدين الصفدي توقيعاً بذلك جاء فيه: «رسم بالأمر العالي، لازالت أوامره المطاعة تطلع في آفاق المدارس شمساً، ونزير بمن توليه عن المشكلات لبساً، أن يرتب المجلس السامي لشيخه في كذا وكذا علماً بأنه علامة وحافظ، متى أطلق هذا الوصف كان علماً عليه، وعلامة متبحر أشبه بالبحر أطلعه والدر كلامه، ومترجم رفع لمن ذكره في تاريخ الإسلام أعلامه. والرواية حقيقته ومعرفته بالرجال مجازها، ويتكلم عن الأسانيد ففي بعض الطرق ظلم وظلام، ويورد ما عنده من الجرح والتعديل؛ إن بعض الكلام

(١) غوطة دمشق - محمد كرد علي - ص ١٨٥ .

(٢) شهاب الدين أحمد بن يحيى بن تاج الدين بن طاهر بن نصر الله بن جهبل العلبي الأصل كان من أعيان الفقهاء باشر المشيخة لعدة مدارس ولم يأخذ مقابل ذلك شيئاً. توفي سنة ٧٣٣هـ وكانت جنازته حافلة .

انظر البداية والنهاية (١٧٨/١٤).

(٤) انظر البداية والنهاية (١٧٨/١٤) .

(٥) انشأها النفيس اسماعيل الحرائي ثم الدمشقي ناظر الأيتام وتوفي سنة ٦٩٦هـ محمد أديب : منتخبات التواريخ لدمشق ص ٩٤١ المطبعة الحديثة دمشق ١٣٩٩هـ .

فيه كلام، ويوضح أحوال الرواة الذين سلفوا وليس ذلك بعيب، وما لجرح بميت ايلام، ويتم بما إطلع عليه من تدليسهم، فما أحسن روضة هو فيها غمام، ويسرد تراجم من قضى من القرون انقضت فكانها وكأنهم أحلام، ويحرص على اتصال السند بالسماع، ولا يدع لفظه توهم إشكالاً فالشمس تمحو جندس<sup>(١)</sup> الأوهام، فأنت نو الصفات التي إشتهرت والفضائل التي بهرت والدربة التي اقتدرت على هذا الفن ومهتت والفوائد التي ملأت الأمصار وظهرت، والحجج التي غلبت لخصوم وقهرت، لم تضيع وقتاً من زمانك، إما أن تسمع أو تلقي أو تنتقي... وأنت أدري بشروط الواقف رحمه الله؛ فارعها واتبع أصلها وفرعها وأهد الدعاء له عقب كل ميعاد، وأشركه مع المسلمين في ذلك، فأنوار الرحمة تلمع على هذا السواد، وأذكر من تقدمك فيها بخير فضله وأسأل له الجنة من الله... والوسايا كثير فمترك لا ينبه ولا يقاس بغيره ولا يشبه، وملاك الأمور تقوى الله تعالى وقد سلكت فيها المحجة وملكت بها الحجة، فلا تعطل منها جهدك الحالي وارو ما عندك منها سندك فيها عالي والله يمدك بالاعانة ويوفقك للإنبابة والإبانة بمنه وكرمه<sup>(٢)</sup>.

كان أول من تولى مشيخة دار الحديث والقرآن التنكزية مما يدل على مكانة الذهبي العلمية وحرص القائمين على التعليم من الاستفادة من علم الذهبي وخبرته في هذا المجال فبعد الإنتهاء من تعميدها مباشرة سنة ٧٣٩هـ تولى الذهبي مشيخة الحديث بها . وهي مدرسة كبيرة الشأن حيث أعتنى بها مؤسسها الأمير تنكز<sup>(٣)</sup> فقرر لها عدد كبير من المحدثين والقراء نكرها بن كثير فقال «وما حدث في هذه السنة - أي سنة ٧٣٩هـ - إكمال دار الحديث السكرية<sup>(٤)</sup> وياشر مشيخة الحديث بها الشيخ الإمام الحافظ مؤرخ الإسلام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي . وقرر فيها ثلاثين محدثاً ، وقرر فيها ثلاثين

(١) الجندس : الظلام .

(٢) انظر صلاح الدين الصفدي . الوافي بالوفيات ج٢ ص١٦٦ ط الهاشمية بدمشق ١٩٥٣ م .

(٣) نائب السلطنة في الشام «ت ٧٤١هـ» منتخبات التواريخ لدمشق ص ٩٤٢ .

(٤) أوردها ابن كثير باسم السكريه . وصححها بشارعواد إلى التنكزية . انظر الذهبي ومنهجه في كتابه تاريخ الاسلام ص(١٠٧-١٠٩) . الحلبي - القاهرة .

نقرأ يقرأون القرآن، لكل عشرة شيخ، ولكل واحد من القراء نظير ما للمحدثين ورتب لها إماماً وقارئاً حديث ونواباً<sup>(١)</sup> .

وقد تولى الذهبي أيضاً مشيخة الحديث في دار الحديث الفاضلية وكان موقعها بجانب الجامع الأموي، وقد أنشأها القاضي الفاضل وزير السلطان الملك الناصر صلاح الدين<sup>(٢)</sup> .

كما تولى الذهبي مشيخة دار الحديث العروبة (مشهد عروبة) وكانت تقع بالجانب من الجامع الأموي قبالة الطيبة المعروفة قديماً بمشهد علي، وسميت بذلك لأن أول من فتحها بعد أن كان مسجوناً بالحواصل شرف الدين بن عودة الموصلية وبنى بها البركة وعمل لها المحراب والخذانتين ووقف فيها كتباً وجعلها دار حديث ومات سنة (٦٢٠هـ) وهي لصيقة بالجامع الأموي من جهة باب القيمرية وقد صارت داراً وتكيسة لكل من يتولى ذكر النقشبندية<sup>(٣)</sup> .

وفي سنة (٧٤٢هـ) خلا منصب مشيخة أكبر دار للحديث بدمشق وهي دار الحديث الأشرافية، بعد وفاة شيخها المزي رفيق الذهبي وشيخه، فرشح تقي الدين السبكي الإمام الذهبي لمشيختها، لكن بعض العلماء احتجوا على ذلك ورفضوا الإقرار بالمشيخة لأن الذهبي لم يكن أشعرياً، وأن المذي ما يليها إلا بعد أن كتب بخطه وأشهد على نفسه بأنه أشعري، فلما اتسع الحزف قام نائب الشام بجمع العلماء وشاورهم الأمر، فأشار السبكي على يقين الذهبي وأصر العلماء على رفضهم ولم ينته الأمر إلا بتوليته السبكي نفسه<sup>(٤)</sup> .

(١) البداية والنهاية ج٤ ص ٢٠١ .

(٢) انظر منتخبات التواريخ لدمشق - محمد أديب من ٩٤٤٩٤ .

(٣) المرجع السابق . ص ٩٤ .

(٤) انظر - تنبيه الدارس ، النعيمي ج١ ص ٩٤ .

ويبدو أن الذهبي دُرُس بمدارس غير المدارس المذكورة غير أنها لم تُذكر فمثلاً سجل كتاب معجم السماعات الدمشقية مجلس للذهبي في المدرسة الصورية « يوم الجمعة الرابع عشر من ربيع الآخر سنة أربعين وسبعمئة. المكان الصدرية ، المسمع : محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي القارئ والكاتب : أحمد بن عبدالله بن المحب . عدد الحضور : ٧»<sup>(١)</sup>

### وهذه المدرسة لم تذكر في الكتب المترجمة للذهبي .

والحقيقة التي لا منحنى عنها والتي نستفيد منها من تنقلات الذهبي بين رياض هذه المدارس لتكون بمثابة إجماع من علماء الأمة وحكامها وقضاتها على أن الذهبي من أعلم علماء عصره وأشدهم ورعاً وإخلاصاً واهتماماً بالعمل وأقدرهم على التدريس<sup>(٢)</sup> . لأنه أدرك أهمية التعليم من مستلزمات الدعوة لتحقيق التربية الصحيحة التي تخدم الإسلام وهذا هو هدف النبي - ﷺ - من نشر التعليم بين المسلمين وهو أن يتمنى لهم لحمل أعباء الدعوة الجديدة<sup>(٣)</sup> .

وقد خرج حقاً تلميذهم علماء أجلاء استطاعوا حمل الراية بعد وفاته وهم مؤهلون للتدريس في أكبر دور الحديث بدمشق آنذاك فقد خلفه تلميذه تقي الدين أبو المعالي محمد بن رافع بن هجرس السلامي في دار الحديث الفاضلية وكان من تلاميذ الذهبي المقربين، وقد ترجم له الذهبي في معجمه المختص بالمحدثين. وقال عنه وصار ذا معرفة<sup>(٤)</sup> .

(١) انظر حجم السماعات لمأمون الصاغري وآخرين من ٤٥.

(٢) انظر الذهبي من أعلام التربية للخلاوي ، ص ٢٣١ دار الفكر للطباعة ، دمشق الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

(٣) انظر رسالة المسجد في الإسلام، د. عبدالعزيز محمد الميلم من ١٢٥، مؤسسة الرسالة . بيروت ، الطبعة الأولى. ١٤١٣هـ-١٩٩٢م .

(٤) انظر المعجم المختص من ٢٢٩، مكتبة الصديق، الطائف ١٤٠٨هـ.

كما خلفه تلميذه عماد الدين أبو الفداء بن كثير في دار الحديث الصالحية وكان الذهبي يقربه ويُسميه « الفقيه المفتي المحدث » وذكره في تذكرة الحفاظ بهذه الألقاب فقال : (وسمعت مع الفقيه المفتي المحدث ذي الفضائل عماد الدين اسماعيل بن عمر بن كثير البصري الشافعي، ولسد بعد السبعمئة أو فيها وله عناية بالرجال والمتوف والفقه خرج وألف وناظر وصنف وفسر وتقدم)<sup>(١)</sup>.

ويروي ابن كثير في حوادث سنة (٧٤٨هـ) : « وفي يوم الأحد سادس عشر من ذي القعدة حضرت تربة أم الصالح - رحم الله واقفها - عوضاً عن الشيخ سمش الدين الذهبي، وحضر جماعة من أعيان الفقهاء وكان درساً مشهوداً ولله الحمد والمنة »<sup>(٢)</sup>.

وخلفه في دار الحديث المروية شرف الدين بن الواني الحنفي<sup>(٣)</sup> وكذلك دار الحديث النفيسية فقد نزل الذهبي عنها إلى الشيخ شرف الدين نفسه في مرض موته، أما دار الحديث النفيسية فقد درس فيها بعده الإمام صدر الدين سليمان بن عبد الحكيم المالكي<sup>(٤)</sup>.

ولأن الذهبي يعرف أن لكل مرحلة من مراحل العمر عوامل تؤثر بها وأساليب تنفع في تقويمها.. فقد أهتم بتربية النشئ منذ الصغر حتى الشباب ومن بين أسطر كتبه بعض الوصايا إما للاهتمام بهذا النشئ أو لطلاب العلم أنفسهم بعد أن أدركوا وبدأوا طريق العلم، فنجد في كتاباته موجهاً ومرشداً ومربياً ومعلماً .

---

(١) انظر تذكرة الحفاظ (١٥٠٨/٤) ط الهند .

(٢) انظر البداية والنهاية (٢٤٣/١٤).

(٣) شرف الدين عبدالله بن محمد الوافي دمشقي الحنفي ولد في (٧١٦هـ) طلب العلم بنفسه وقرأ ثم أفتى ودرس - انظر المعجم المختص (١٢٣ . ١٢٤) .

(٤) الذهبي ومنهجه في كتابه التاريخ ص ١٠٩-١١٠.

## أولاً ، وصاياه للآباء في مجال التربية :

- ١ - يجب الإهتمام بتعليم الأطفال حيث يقول «على الوالدين تعليم الأولاد والأطفال أولاً فأولاً ما يجب اجتنابه ويلزم فعله واعتقاده»<sup>(١)</sup> فهو يعرف منهج التربية الإسلامية وأنه يعني بالعقل ويدرك بأن العلم من أهم الوسائل المعينة على تغذية العقل<sup>(٢)</sup> .
- ٢ - الإهتمام بماهية العلم الذي يؤخذ منذ الصغر وكميته :  
« فيذكر الأب ولده شأن التوحيد وأن الله رب العالمين وخالف الأشياء ورازق الأحياء وأن محمداً نبيه ، وأن الإسلام دينه»<sup>(٣)</sup> .  
فيحرص على تأسيس الطفل على أساسيات العقيدة السليمة دون شوائب، فتربية وجدان الطفل وضرورة ارتباطه بالله تعالى اهتم به منهج التربية الإسلامية أيضاً عن طريق توجيه المتعلم إلى حب الله وخشيته بمعرفة أن الله هو الخالق والرازق أي الذي بيده كل شيء فالحبة والخشية هما « الخيطان اللذان يربطان القلب البشري بالله»<sup>(٤)</sup> .
- ٣ - التدرج في التعليم وضرورة الحرص على تحقيق هذا العلم حتى يآلفه الصبي ويرسخ في طبعه فإذا ميز علمه الوضوء والصلاة.<sup>(٥)</sup>
- ٤ - حماية الطفل من المحيط الخارجي بتحذيره من الأمور السيئة فلا يتركه هشاً فيستجيب للمنكر ليس له قواعد تنهيه وحذره من الذنا والسرقه والكذب وأكل الحرام والدم والميتة ونحو ذلك ، وأن ببلوغه يجري عليه القلم<sup>(٦)</sup> .  
ويهتم الذهبي بإيقاظ الضمير عند الطفل بتبليغه أنه سيحاسب ، فهذا البناء العلمي له

(١) انظر مسائل في طلب العلم. الذهبي ص ٢٠٤.

(٢) انظر منهج التربية الإسلامية، د. علي مذكور ص ٢٦٠.

(٣) انظر مسائل في طلب العلم ص ٢٠٤.

(٤) انظر منهج التربية الإسلامية د. علي مذكور ، ص ٢٦٠.

(٥) انظر مسائل في طلب العلم الذهبي ٢٠٤ .

(٦) انظر مسائل في طلب العلم الذهبي، ص ٢٠٤.

الأثر بل ويحدد مجالات التطبيق وطبيعة الممارسة السلوكية في ضوء الظروف المحيطة بالواقع الذي يتعايش فيه الإنسان وهذا البناء يعمل على إثراء وتنمية القيم الايجابية لدى الذات المسلمة<sup>(١)</sup> .

٥ - الاهتمام بالناحية النفسية أثناء تربية الأطفال ، فقد نقد الذهبي أسلوب استخدمه والد مع ولده اعتقاداً منه أنه يحسن أسلوب التربية ولكن الذهبي علق بعد أن رواها في المسير (سمعت عبدالرحمن بن بشر<sup>(٢)</sup> يقول احتلمت فدعا أبي عبدالرزاق وأصحاب الحديث الغرباء، فلما فرغوا من الطعام ، قال : اشهدوا أن النبي قد احتلم ، وهوذا يسمع عن عبدالرزاق وقد سمع من سفيان بن عيينه قلت : هذا الأعلام إيلام للصبي وتخجيل له «<sup>(٣)</sup> . ويدرك الذهبي أنه لن يفيد صاحب الدواية ولكنه يعلق توجيهاً للأباء بالأفعال ذلك وأن يهتموا بما يؤثر على نسبة أبنائهم .

٦ - القدوة : اهتم الذهبي بتربية الآباء على أن يكونوا قدوة بدورهم لأبنائهم ويطبق ذلك حيث يأخذ أبنائه لحلقات العلم منه ولا يكتفي بذلك بل يشجعهم على طلب العلم مثله ويقول عن ولده عبدالرحمن « سمعت منه مع ولدي عبد الرحمن<sup>(٤)</sup> وهو عندما نبأه على اجتناب أعياد النصارى، اهتم أولاً بأن يبدأ الأب بنفسه ثم يصون أولاده فقال « فنبغي لكل مسلم أن يجتنب أعيادهم ويصون نفسه وحريمه وأولاده عن ذلك<sup>(٥)</sup>» فهو يعرف أهمية كسب الطفل ثروة من القيم والمبادئ الإسلامية عن طريق

---

(١) انظر الأصول التربوية لبناء الشخصية المسلمة د. عبدالودود مكرم تقديم د. عبدالرحمن الخطيب، دار الفكر العربي ، القاهرة ، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م .

(٢) عبدالرحمن بن بشر بن الحكم بن حبيب بن مهران، المحدث اللثقة توفي ٢٦٠هـ السيد (٣٤٢/١٢).

(٤) سير أعلام النبلاء (٣٤٢/١٢) .

(٥) انظر معجم الشيوخ ص ٤٨٠ عند ترجمته لمحمد بن أحمد بن أبي المعالي الجريوي الصالحي الحنبلي .

(٦) انظر تشبيه الحسيس بأهل الخميس ص ٣٢ .



عملها أمامه<sup>(١)</sup> .

٧ - تقوية الإدارة والتمسك بالدين الإسلامي وقوة الروح الإسلامية في نفس الآباء وخاصة أمام رغبات الأطفال فنجدّه يطلق صفة الجهل على من يضعف أمام المنكرات والعلة إدخال السعادة في قلوب الأطفال فيقول ( ولا يقول جاهل «أفرح أطفالي» بل يرد عليه بقوله :«أسوأ الناس حالاً من أرضى أهله وأولاده بما يسخط الله عليه»<sup>(٢)</sup> ) .

فعليه تقوية إرادته فإن قوة الإرادة هي الوسيلة الوحيدة في يد الإنسان لتحقيق الأهداف والوصول بها إلى الغايات ، فقل من يفكر في الانحراف والوقوع في الرذيلة لكن لضعف الإرادة يفشل الإنسان في تحقيق أهدافه العليا ويقع في الرذيلة<sup>(٣)</sup> .

٨ - على المربين تطبيق الأمر الواجب عليهم نحو أبنائهم ألا وهو أمور بالمعروف ونهيهم عن المنكر فيفسر قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً... ﴾<sup>(٤)</sup> ومعناه : علموهم وأدبوهم وأمروهم بالمعروف وأنهؤم عن المنكر لتتقوا النار التي من صفتها أنها توقد بالناس والحجارة، قيل : حجارة الكبريت أجارنا الله منها<sup>(٥)</sup> .

### ثانياً ، من وصايا الذهبي لطلاب العلم ،

وهي المبادئ الدعوية التي سار على نهجها في دعوته، اهتم الذهبي بطلبه العلم اهتماماً بالغاً لأنهم علماء الغد ودعاة وأمل المستقبل فلم يبخل عليهم من النصيح إما مشافهة من خلال حلقات العلم التي كان يعقدها مؤدياً نوره كمعلم وشيخ لعدد كبير من الطلبة، وهذه النصائح والتوجيهات لم نحضرها ولكن نلمسها من وصول تلاميذه للمراتب العلمية الكبيرة، وخدمتهم للدعوة إلى الله تدریساً وتأليفاً كما فعل هو رحمه الله تعالى .

(١) انظر كيف تربى ولدك المسلم، شقير حمود العتيبي من ٩٧-١٠٢، دار طيبة، الرياض ١٤١٥هـ

(٢) انظر تشبيه الخسيس بأهل الخميس من ٣٦-٣٧.

(٣) انظر اهداف التربية الإسلامية وغايتها د. مقداد يالجن ، دار الهدى ، الرياض ، ط٢ ، ١٤٠٩هـ ، ١٩٨٩م .

(٤) التحريم آية «٦» .

(٥) انظر تشبيه الخسيس بأهل الخميس من ٣٦ .

أو من خلال مؤلفاته فيفرد لهم الوسائل ليسقيهم خبرته ويدلهم إلى الطرق السليمة محذراً مما قد يغير عليهم طريق الخير ويخاطبهم بقسوة خوفاً عليهم من الضياع، كما أنه لا ينساهم في باقي مؤلفاته فهو يبيث لهم وصاياهم وتحذيراته في ثنايا كتبه ليتخللهم بالموعظة كما فعل النبي - ﷺ - مع الصحابة رضوان الله عليهم « حديث الصحابي الذي يذكر فيه أن الرسول - ﷺ - كان يتخللهم بالموعظة خوف السادة»<sup>(١)</sup> . وكان من أهم الوصايا :

١ - الاخلاص في طلب العلم وقد أوردته من الكبائر كبيرة التعليم للدنيا وكذلك ضمنه كبيرة البيان لأنه من أوجب الواجبات إخلاص الطلب لله تعالى وتنقية النفس من أي شوائب تعتبر أهداف أخرى فيقول « وإن كان يُقرره لتحصيل الوظائف وليقال ... فهذا من الويال وضرب من الخيال»<sup>(٢)</sup> فهو يصفهم بنقص في عقولهم لعينه العاقل الذي لا يرضي لنفسه هذه الكلمة .

---

(١) تخريج الحديث .

(٢) أنظر بيان زغل العلم والطلب ص ٢١ .

## المبحث الثاني

جهود الإمام الذهبي في التأليف

## تهييد .

رأينا من دراستنا للجالية العلمية لعصر الإمام الذهبي أن هذا العصر شهد مجموعات من الكتب الضخمة التي وضعت في كل ناحية من نواحي المعرفة، وقد غلب على حركة التأليف الإتجاه الموسوعي حيث اتجه المؤلفون إلى وضع موسوعات علمية تجمع اشتاتاً من علوم مختلفة، منها التاريخ وما يتصل به من تراجم وسير، فلا نجد في عصر من العصور السابقة ولا اللاحقة مجموعات من كتب التراجم شبيهة بما وضع منها في هذا العصر، وهذا خدموا الدعوة الإسلامية خدمة جلية حيث أكثروا من تأليف الكتب الشارحة للإسلام الذي هو موضع الدعوة وركنها الركين، كما كثرت الكتب الدينية والمؤلفات في التفسير والحديث حيث كانت الغيرة الدينية التي تفيض في صدور العلماء حافزاً لهم أن يكتبوا من التأليف ف علوم القرآن وما يتصل به من وجوده، كما كان الحديث النبوي موضع عنايتهم واهتمامهم إذا ألفوا في تاريخه ومصطلحه وتناولوه بالشرح والنقد لكثرة حفاظه والعناية الفائقة بروايته ، كما شاعت ظاهرة المتون والشرح حيث إتجه الشيوخ تيسيراً على طلابهم إلى وضع المتون التي تجمع مسائل الموضوعات في قليل من الألفاظ حتى يتسنى لطلال العلم أن يستوعبها بأيسر طريق وفي زمن قليل ، وكذلك شاعت ظاهة الأكمالات والتذييلات لاسيما في كتب التراجم والتايخ مما حفظ لنا كثيراً من ذخائر العلم كانت مهددة بالضياع .

ورأينا كيف كان الإمام الذهبي يقبل على العلوم التي يستوعبها يحفظها وهياً له حبه لطلب العلم - وخاصة الحديث معرفة واسعة جعلته قادراً على تأليف عدد كبير من الكتب في أبواب مختلفة من العلوم كان أهمها العقيدة والحديث والتاريخ .

والمقصود بجهود الإمام الذهبي في التأليف ما قام به من عمل جبار في تأليف الكتب وتقريب العلوم وجمع شتاتها مع تجديد وابتكار، وأبرز مثل على ذلك كتبه التي وصلتنا ومنها المطبوع والمخطوط والمفقود التي وصلت إلينا إشارات عنها في كتبه أو في كتب معاصريه أو من تلاهم من العصور التالية لعصر الإمام الذهبي .

وفي هذا البحث سوف أتكلم عن مؤلفات الإمام الذهبي بما فيها المختصرات والتخاريج ، مقسمة حسب موضوعاتها ومرتبة على حروف المعجم مع الإشارة إلى ما طبع منها وإلى ما ظل مخطوطاً ، أما المفقود الذي لم يصل إلينا فسوف أذكر الكتب التي أشارت إليه .

### أولاً : القراءات :

١ - التلوينات في علم القراءات :

لم يذكر للذهبي في علم القراءات إلا هذا الكتاب . ذكره ابن العماد الحنبلي في «شذرات الذهب»<sup>(١)</sup> وسبط ابن حجر في «رونق الألفاظ»<sup>(٢)</sup> .

### ثانياً : مؤلفات الإمام الذهبي في الحديث :

٢ - الأربعون البلدانية :

وقد خرجها الإمام الذهبي من المعجم الصغير للإمام أبي القاسم الطبراني المتوفي سنة ٣٦٠هـ . وأشار إليها السيوطي في كتابه «الوسائل إلى مسامرة الأوائل»<sup>(٣)</sup>

٣ - الثلاثون البلدانية :

وقد ذكر صلاح الدين الصفدي في كتابه «نكتب الهميان في نكتب العميان»<sup>(٤)</sup> أنه كتبها بخطه وقرأها على الإمام الذهبي .

٤ - طرق حديث «من كنت مولاه فعلى مولاه» أشار الذهبي إلى أنه أفرد كتاباً لطرق هذا الحديث وقال : (وأما حديث من كنت مولاه فله طرق جيدة وقد أفردت ذلك)<sup>(٥)</sup> .

٥ - المستدرك على مستدرك الحاكم :

ويوجد جزء منه بدار الكتب الظاهرية<sup>(٦)</sup> .

(١) شذرات الذهب بدار الكتب العلمية. ج٦ ص ١٥٦ . بيروت .

(٢) رونق الألفاظ، الورقة ١٨٠ - نقلًا عن الشاعر عواد الذهبي ومنهجه في كتابه تاريخ الإسلام ص ١٤٠ هامش «٢» .

(٣) ص ١١٥ بغداد ١٩٥٠م .

(٤) ص ٢٤٢ ط القاهرة ١٩١١م .

(٥) تذكرة الحفاظ ج٢ ص ١٠٤٣ ط دار الكتب العلمية - بيروت .

(٦) برقم (٦٢ مجاميع) .

### ثالثاً : مؤلفات الذهبي في مصطلح الحديث وأدابه :

- ٦ - كتاب الزيادة المضطربة :
- وقد ذكره ابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب<sup>(١)</sup> ولم يصل إلينا .
- ٧ - طرق أحاديث النزول :
- ذكره ابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب<sup>(٢)</sup> ولم يصل إلينا .
- ٨ - العذب السلسل في الحديث المسلسل :
- ذكره في كتابه هدية العارفين<sup>(٣)</sup> ولم يصل إلينا .
- ٩ - منية الطالب لأعز المطالب :
- ذكره البغدادي<sup>(٤)</sup> ولم يصل إلينا .
- ١٠ - الموقظة في علم مصطلح الحديث :
- « وهي رسالة صغيرة في علم المصطلح » توجد محفوظة بدار الكتب الوطنية في باريس<sup>(٥)</sup> .

### رابعاً : العقائد :

- ١١ - أحاديث الصفات :
- ذكره ابن العماد الحنبلي<sup>(٦)</sup> .

---

(١) ص ٢٤٢ ط القاهرة ١٩١١ م .  
(٢) المرجع السابق نفس الصفحة .  
(٣) ج٢ عمود ١٥٤ ط استانبول ١٩٥٥ م .  
(٤) السابق ج٢ عمود ١٥٥ ط استانبول ١٩٥٥ م .  
(٥) برقم ٤٥٧٧ (عربيات) نقلًا عن د. بشار عواد : الذهبي ومنهجه في كتابه تاريخ الإسلام ص ١٤٥ عيسى البابلي الحلبي .  
(٦) شذرات الذهب ج٦ ص ١٥٦ ط ١٣٩٩ .

- ١٢ - الأربعين في صفات رب العالمين :
- ويوجد جزء منه بدار الكتب الظاهرية<sup>(١)</sup> .
- ١٣ - جزء في الشفاعة :
- ذكره ابن العماد الحنبلي<sup>(٢)</sup> ولم يصل إلينا .
- ١٤ - جزء في صفة النار :
- ذكره ابن العماد الحنبلي<sup>(٣)</sup> ولم يصل إلينا .
- ١٥ - الرسالة الذهبية إلى ابن تيمية<sup>(٤)</sup> .
- وهي رسالة تبين عقيدة الذهبي ، وهي مطبوعة<sup>(٥)</sup> .
- ١٦ - الروع والأدجال في نبأ المسيح الدجال :
- ذكره تاج الدين السبكي في طبقات الشافعية<sup>(٦)</sup> وصلاح الدين الصفدي في الوافي بالوفيات<sup>(٧)</sup> وفي نكتب الهميان<sup>(٨)</sup> وابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب<sup>(٩)</sup> .
- ١٧ - العلو للعلی الغفار في صحيح الأخبار وسقيماها :
- وهو كتاب يطبق فيه الذهبي منهج السلف في إثبات العقائد الدينية مثل وجود الله ووجوب صفاته وتنزيهه الله عن مشابهته الحوادث واستوائه تعالى على العرش ونزوله وغير ذلك، والكتاب طبع عدة طبعات<sup>(١٠)</sup> .

- 
- (١) الألباني : فهرس محفظوات الظاهرية ص ٢٨٠ .
- (٢) شذرات الذهب ج٦ ص ١٥٦ ط ١٢٩٩ .
- (٣) السابق نفس الصفحة .
- (٤) سيااتي الكلام عنه تفصيلاً فيما بعد .
- (٥) طبعت في نهاية كتاب زغل العلم والطب ، عنى بنشرهما : القدسي ، دمشق الشام ، مطبعة التوفيق سنة ١٣٤٧هـ .
- (٦) ج٩ ص ١٠٥ ط القاهرة ١٩٦٤م .
- (٧) ج٢ ص ١٦٤ ط بيروت ١٩٧٤م .
- (٨) ص ٢٤٣ ط القاهرة ١٩١١م .
- (٩) ج٦ ص ١٥ ط ١٣٩٩هـ .
- (١٠) منها طبعة مصر ١٣٣٢ .

١٨ - الكبائر :

وهو كتاب يبين الذهبي فيه أن كبائر الذنوب والمعاصي تبلغ سبعين كبيرة ينبغي على المسلم اجتنابها . ويستشهد على ذلك بالكثير من الآيات والأحاديث النبوية الشريفة، ومنها الشرك بالله وقتل النفس وترك الصلاة وعقوق الوالدين وغيرها والكتاب مطبوع عدة طبعات<sup>(١)</sup> وسوف نفضّل القول فيه على الصفحات التالية إن شاء الله .

١٩ - كتاب ما بعد الموت :

ذكره صلاح الدين الصفدي في الوافي بالوفيات<sup>(٢)</sup> وفي نكتب الهميان<sup>(٣)</sup> وابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب<sup>(٤)</sup> ولم يصل إلينا .

٢٠ - مسألة نوام النار :

ذكره ابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب<sup>(٥)</sup> ولم يصل إلينا .

خامساً : مؤلفات الذهبي في الفقه :

٢١ - تحريم أدبار النساء :

ذكره الصفدي في نكت الهميان<sup>(٦)</sup> وفي الوافي بالوفيات<sup>(٧)</sup>، وذكره ابن شاکر الكتبي في فوات الوفيات<sup>(٨)</sup>، كما ذكره الذهبي نفسه في تذكرة الحفاظ<sup>(٩)</sup> قائلاً « ثبت نهي المصطفى - ﷺ - عن أدبار النساء ، ولي فيه مصنف » .

(١) منها طبعة القاهرة ١٣٥٦هـ وسيأتي الكلام عنه تفصيلاً فيما بعد .

(٢) ج٢ ص ١٦٤ ط الأشمية - دمشق .

(٣) ص ٢٤٣ ط القاهرة ١٩١١م .

(٤) ج٦ ص ١٥٦ ط ١٣٩٩هـ .

(٥) السابق نفس الصفحة .

(٦) ص ٢٤٣ ط القاهرة ١٩١١م .

(٧) ج٢ ص ١٦٤ ط الأشمية - دمشق .

(٨) ج٢ ص ١٨٣ ط مصر ١٣٩٩هـ .

(٩) ج٢ ص ٦٦٩ ط دار الكتب العلمية - بيروت .



- ٢٢ - تشبيه الخسيس بأهل الخسيس :
- وفيه يحذر الذهبي المسلمين من التشبيه بأهل الكتاب في أعيادهم، وقد ذكره  
البغدادي في « إيضاح المكنون»<sup>(١)</sup> .
- ٢٣ - جزء في صلاة التسبيح :
- ذكره ابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب<sup>(٢)</sup> . ولم يصل إلينا .
- ٢٤ - حقوق الجار :
- وفيه جمع الذهبي الأحاديث التي توصي بالجار وتوضح بعض حقوقه الفقهية. وهو  
مطبوع<sup>(٣)</sup> .
- ٢٥ - فضائل الحج وأفعاله :
- ذكره ابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب<sup>(٤)</sup> ولم يصل إلينا .
- ٢٦ - كتاب الوتر :
- ذكره البغدادي في كتابه « هدية العارفين»<sup>(٥)</sup> ولم يصل إلينا .
- سادساً : الرقائق :
- ٢٧ - دعاء المكروب :
- ذكره ابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب<sup>(٦)</sup> ولم يصل إلينا .
- ٢٨ - التعزية الحسنة بالأعزة :
- ذكره حاجي خليفة في «كشف الظنون»<sup>(٧)</sup> والبغدادي في هدية العارفين<sup>(٨)</sup> .

(١) ج١ عمود ٢٨٩ ط استانبول ١٩٤٥م.

(٢) ج٦ ص ١٥٦ ١٣٩٩هـ.

(٣) ط « نذكر طبعته التي لدينا »

(٤) ج٦ ص ١٥٦ ط ١٣٩٩هـ.

(٥) ج٢ عمود ١٥٤ ط استانبول ١٩٥٥م.

(٦) ج٦ ص ١٥٦ ١٣٩٩هـ.

(٧) ج١ عمود ٤٢٢ ط استانبول ١٩٤١م.

(٨) ج٢ عمود ١٥٤ ط استانبول ١٩٥٥م.

سابعاً : التاريخ والتراجم :

٢٩ - أخبار السد :

وهو كتاب يتناول القرآن الكريم<sup>(١)</sup> الذي قام ببنائه نو القرنين . وهذا الكتاب ذكره صلاح الدين الصفدي في كتابه « الوافي بالوفيات»<sup>(٢)</sup> وابن شاکر الكتبي في كتابه « فوات الوفيات»<sup>(٣)</sup> ، ولم يصل إلينا .

٣٠ - أخبار قضاة دمشق :

ذكره البغدادي في «هدية العارفين»<sup>(٤)</sup> وحاجي خليفة في «كشف الظنون»<sup>(٥)</sup> وصلاح الدين الصفدي في « الوافي بالوفيات»<sup>(٦)</sup> .

٣١ - أسماء من عاش ثمانين سنة بعد شيخ أو بعد تاريخ سماع :

وهو كتاب أورد فيه الذهبي أسماء الرواة الذين عاشوا ثمانين سنة على الأقل بعد وفاة شيوخهم . والكتاب ما زال محفوظاً<sup>(٧)</sup> .

٣٢ - الإشارة إلى وفيات الأعيان والمنتقى من تاريخ الإسلام :

محفوطة بالمكتبة الأحمدية بطلب<sup>(٨)</sup> .

٣٣ - الأعلام بوفيات الأعلام :

محفوطة بدار الكتب الظاهرية<sup>(٩)</sup> .

أراد الذهبي أن يكون كتابه هذا بمثابة تذكرة للحفاظ والعلماء بسنوات وفيات أهم الأعلام لما في ذلك من العون لهم إذا ما رجعوا إلى تلك المذكرة .

(١) سورة الكهف الآية ٩٣ وما بعدها .

(٢) ج٢ ص ١٦٤ ط الأشمية - بدمشق .

(٣) ج٢ ص ١٨٢ ط ١٣٩٩ هـ .

(٤) ج٢ عمود ١٥٤ ط وكالة المعارف الجليلية . استانبول ١٩٥٥ م

(٥) ج١ عمود ٢٩ ط دار العلوم الحديثة - بيروت .

(٦) ج١ ص ٥٣ المبعة الهامشية - بدمشق .

(٧) مكتبة آياصوفيا (رقم ٢٩٥٣) .

(٨) (رقم ٣٢٨) .

(٩) رقم (١١٧) مجموع .

- منهجه في الكتاب :
- قال الذهبي في أوله : « هذه تذكرة للحفاظ في وفيات الأعلام » .
- طبعات الكتاب :
- طبع أولاً في مكتبتي : دار الفكر المعاصر ببيروت - لبنان .
- ودار الفكر بدمشق . سوريا ١٩٩١م - ١٤١٢هـ .
- وطبع ثانياً في : مؤسسة الكتب الثقافية ببيروت بتحقيق الأستاذين مصطفى بن علي عوض وربيع أبو بكر عبد الباقي ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م .
- ٣٤ - الأمصار نوات الآثار :
- وفيه يتناول الذهبي الأمصار الشهيرة وعلمائها ، مثل مكة وبيت المقدس ودمشق ومصر وغير ذلك وقد ذكره مس الدين والسخاوي في كتابه الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ<sup>(١)</sup> .
- ٣٥ - أهل المائة فصاعداً :
- وفيه ذكر الذهبي المعمرين من الأنبياء ومعاصريهم من الأمم السابقة تم ذكر من صحابة النبي - ﷺ - من جاوزوا المائة وبعض معمرى المشركين ثم التابعين الذين لحقوا الجاهلية ثم غيرهم من معمرى التابعين ، وذكر المعمرين من أهل القرن الثالث وهكذا . والكتاب مطبوع<sup>(٢)</sup>
- ٣٦ - تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام :
- جعله الذهبي في واحد وعشرين مجلداً وتناول فيه الحوادث والتراجم بدءاً من السنة الأولى للهجرة حتى سنة ٧٠٠هـ .
- وقد انتقى فيه من الحوادث ما رآه حرياً بالذكر جديراً بالتدوين وعنى عناية بالغة بتكوين الدولة الإسلامية باعتبارها النموذج الأكمل في الحكم والتنظيم والعدل ، واهتم بالفتوح ودرء المعتدين عن ديار الإسلام لأن الجهاد أساس متين من أسس الإسلام .

(١) ص ٦٦٨ ط بغداد ١٩٦٣م .

(٢) حققه ونشره الدكتور بشار عواد معروف . مجلة المورد البغدادية ، المجلد الثاني . العدد الرابع بغداد ١٩٧٣ (ص ١٠٧ - ١٤٣) .

وانطلق من حبه للسنة وكلفه بها إلى تتبع أخبارها وإجمال أوضاعها وإيراد أخبار  
أحداثها .

أما في التراجم فقد انتقى المشهورين والأعلام فأوردهم وأهل المغمورين فأسقطهم ولم  
يقتصر على نوع معين من المترجمين فأورد المشهورين في كل ناحية من نواحي الحياة وإن  
كان- انطلاقاً من مفهومه- يؤثر المحدثين على من سواهم فاحتلوا الجزء الأعظم من  
الكتاب.

كما اجتهد الذهبي أن يتميز كتابه بالشمول المكاني بإعتباره تاريخاً للعالم الإسلامي  
من كافة الوجوه ، واجتهد أيضاً أن يوازن بين العصور الإسلامية ونجح في ذلك نجاحاً  
كبيراً، كما راعى في تطويل التراجم وتقصيرها في أكثر الأحيان، شهرة المترجم بين أهل  
علمه أو فنه . وكان في كل ترجمة يتناول اسم المترجم ونسبة ولقبه وكنيته ونسبته وتاريخ  
مولده ونشأته ودراسته وإنتاجه وتلاميذه ومكانته العلمية وعقيدته وأراء العلماء فيه ثم يقدم  
الذهبي تقديمه الخاص له ثم تاريخ وفاته. وقد نوع الذهبي موارده ولم يقتصر على المؤلفات  
السابقة بالرغم من تركيزه عليها، فقد أخذ الكثير من مادته عن طريق المشاهدة والملاحظة  
والمشافهة ومساعدة العلماء المتخصصين ومكاتبهم وأفاد من الإجازات الكثيرة التي كتبها  
العلماء للمستجيزين ومن مجاميع الطلبة والشيوخ وكتابات المترجمين أنفسهم .

وقد استعمل الذهبي ألفاظاً للدلالة على النقل من السابقين من غير تصريح به نحو  
قوله : «وثقه فلان» و « كتب عن فلان» و «حكى عن فلان» و « أجاز لفلان » وكان دقيقاً في  
نقل المادة التاريخية ، مشيراً في أكثر الحالات إلى طبيعة نقله وفيما إذا كان باللفظ أو  
بالمعنى ، كما عنى عناية بالغة بالمقارنة بين الروايات وترجيح الصحيح منها معتمداً على  
معرفة الراوي بموضوع الخبر وخبرته به والوقوف على الوثائق والخطوط التي توثق الخبر  
والاستفادة من الوقائع التاريخية الثابتة التي تؤيد خبراً ما أو تنقضه ومسايرة إجماع  
المؤرخين ورده رواية المتفرد<sup>(١)</sup> .

---

(١) الذهبي ومنهجه في كتابه تاريخ الإسلام ، د. بشار عواد معروف . من ص ٢٧٩ إلى ص ٤٦٥  
بتصرف شديد .

٣٧ - التاريخ المتع :

ذكر الذهبي نفسه أكثر من مرة في تذكرة الحفاظ<sup>(١)</sup> .

٣٨ - تذكرة الحفاظ :

وهو كتاب في طبقات الحفاظ ، جعلهم الذهبي فيه واحداً وعشرين طبقة مبتدئاً بالصحابة وهم الطبقة الأولى ، فقدم فيه ألفاً ومائة وستة وسبعين ترجمة تنتهي بترجمة شيخه ورفيقه أبي الحجاج المزني المتوفي سنة ٧٤٢هـ . والكتاب مطبوع طبعا كثيرة<sup>(٢)</sup> .

ونظراً لأهمية الكتاب فقد ذيل عليه الحافظ شمس الدين أبو المحاسن محمد بن عبد الحسن الحسيني الدمشقي ، وزاد على شيخه وأستاذه الذهبي اثنتين وعشرين ترجمة كما ذيل عليه أيضاً الحافظ تقي الدين أبو الفضل محمد بن محمد بن محمد بن فهد الهاشمي المكي فأضاف اثنتين وثلاثين ترجمة<sup>(٣)</sup> .

٣٩ - تراجم رجال روى عنهم محمد بن إسحاق :

والكتاب موضوعه عنوانه . وهو مطبوع<sup>(٤)</sup> .

٤٠ - تسمية رجال صحيح مسلم الذين انفرد بهم عن البخاري : وفيه ترجم الذهبي للرجال الذين انفرد بهم مسلم ولم يخرج لهم البخاري . والكتاب ما يزال محفوظاً<sup>(٥)</sup> .

٤١ - التلويح بمن سبق ولحق :

ذكره ابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب<sup>(٦)</sup> ولم يصل إلينا .

(١) تذكرة الحفاظ ، حقق الذيلين ونشرهما محمد زاهد الكوثري - بدمشق ١٣٤٧هـ .

(٢) منها طبعة حيدر آباد ١٩٥٥م .

(٣) حقق الذيلين ونشرهما محمد زاهد الكوثري - بدمشق ١٣٤٧هـ .

(٤) نشره فيشر في ليدن ١٨٩٠م .

(٥) خزانة كتب لالهلي باستانبول (رقم ٢٠٨٩) .

(٦) ج ٦ ص ١٥٦ ط ١٣٩٩هـ .

٤٢- دول الإسلام :

وهو كتاب يتناول دول الإسلام ، استقى الذهبي مادته من كتابه «تاريخ الإسلام» وأرخ فيه حتى سنة ٧٠٠هـ . والكتاب مطبوع عدة طبعات<sup>(١)</sup> .

« هذا الكتاب من أشهر كتب الحافظ شمس الدين الذهبي ، وقد اختصره من كتابه "تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام " المسمى بتاريخ الإسلام الكبير، وأطلق عليه في بعض الأحيان " التاريخ الصغير" واختصار المؤلف فيه يظهر في عباراته الموجزة عندما يتعرض لسرد الأحداث ثم في اختزاله لأسماء من يترجم لهم في الوفيات أو من يرد ذكرهم ضمن الأحداث وإسقاطه لبعض الأعلام الذين أورد ذكرهم في الوفيات في كتابه الكبير .

وإذا كان كتاب : « العبر في خير من غبر» للمؤلف نفسه قد جرى فيه على نهج «دول الإسلام» إلا أن الاختصار في العبر يختلف عن الاختصار في كتابنا هذا فما يكتبه من أحداث هنا قد يتركها هناك، وما يترجم له في الوفيات هنا قد يتركه هناك أيضاً ، بحيث أصبح كل من الكتابين لا يغني عن الآخر .

وكتاب «دول الإسلامي» يؤرخ للدولة الإسلامية منذ وفاة النبي صلى الله عليه وسلم إلى سنة خمس عشرة وسبعمائة .

جرى فيه المؤلف على التاريخ للأحداث والوفيات سنة بعد سنة، ومنهجه أن يقدم الأحداث في صدر التاريخ للسنة ثم يترجم لمن توفي خلال هذه السنة، وهكذا إلى نهاية الكتاب<sup>(٢)</sup> .

٤٣- ديوان الضعفاء والمتروكين :

وفيه ترجم الذهبي للوضاعين والكذابين والضعفاء والكثيري الوهم والثقات التي يغلب

---

(١) منها طبعة حققها فهيم محمد شلتوت ومحمد مصطفى ابراهيم . الهيئة العامة للكتاب  
١٣٩٤هـ

(٢) نفس الكتاب المذكور ص ٥ .

عليهم اللين، بالإضافة إلى عدد من المجهولين ، والكتاب ما يزال محفوظاً<sup>(١)</sup> .

٤٤- ذكر من يعتمد قوله في الجرح والتعديل :

وفيه يقسم الذهبي علماء الرجال إلى ثلاث طواف: طائفة متشددة في التوثيق تسارع إلى تجريح الراوي إذا غلط مرتين أو ثلاثاً ومن هذه الطائفة يحيى بن سعيد القطان وابن معين، وطائفة تتميز بالاعتدال لا تسارع إلى الجريح ولا تميل إلى التساهل ومنها الإمام أحمد والدارقطني وأبي عدي ، والطائفة الثالثة متساهلة مثل الترمذي وأبي عبدالله الحاكم والكتاب ما يزال محفوظاً<sup>(٢)</sup> .

٤٥- ذيل دول الإسلام :

وهو الذي أشرنا إليه آنفاً عند كلامنا على « دول الإسلام » وينتهي الذيل عند سنة ٧٤٠ هـ وهو مطبوع مع أصل « دول الإسلام »<sup>(٣)</sup> .

٤٦- ذيل كتاب الضعفاء لابن الجوزي :

ذكره الذهبي نفسه في مقدمة كتابه «ميزان الاعتدال في نقد الرجال»<sup>(٤)</sup> كما ذكره السخاوي في كتابه « الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ »<sup>(٥)</sup> ولم يصل إلينا .

٤٧- الرد على ابن القطان :<sup>(٦)</sup> وهو كتاب يرد به الذهبي على كتاب ابن القطان «بيان الوهم والإيهام الواقعين في كتاب الأحكام»<sup>(٧)</sup> وكتاب الأحكام يقصد به «الأحكام الشرعية الكبرى» لعبدالحق بن عبدالرحمن بن عبدالله الأزدي الأشبيلي المعروف بابن الخراط<sup>(٨)</sup> . والكتاب ما يزال مخطوطاً .

(١) دار الكتب الظاهرية (رقم ٣٦٩ حديث) .

(٢) خزانة كتب أيا صوفيا باستانبول (رقم ٢٩٥٢) .

(٣) ط يدر آباد بالهند ١٣٣٧ هـ .

(٤) جا ص ٢ ط القاهرة ١٩٦٣ م .

(٥) ص ٥٨٧ ط بغداد ١٩٦٣ م .

(٦) أبو الحسن علي بن محمد عبدالملك الكناني ت ٦٢٨ هـ .

(٧) هذا الكتاب لأبي الحسن علي بن محمد بن القطان الفاسي المتوفي سنة ثمان وعشرين وستمائة . انظر كشف الظنون لحاجي خليفة جا ص ٢٦٢ .

(٨) ت ٥٨١ هـ .

٤٨- الزلازل :

ذكره ابن العماد الحنبلي في كتابه « شذرات الذهب »<sup>(١)</sup> . ولم يصل إلينا .

٤٩- سير أعلام النبلاء :

وفيه قسم الذهبي نبلاء الإسلام إلى خمس وثلاثين طبقة تقع في ثلاثة عشر مجلداً وقد أفرد المجلدين الأول والثاني للسيرة النبوية وسير الخلفاء الراشدين وتناول في المجلد الثالث العشرة المبشرين بالجنة ثم كبار الصحابة ثم التابعين وهكذا .

وقد التزم فيه الذهبي بمنهج أهل الحديث فكان يردد الخبر بإسناده حرصاً منه على توثيق الروايات والكتاب مطبوع<sup>(٢)</sup> .

وقد خُرج هذا الكتاب موسوعة للرجال إذ إن الذهبي ترجم فيه لعدد كثير من العلماء في شتى العصور والمجالات العلمية وفي مختلف الأقطار ، واختياره لمنهج المحدثين وهو سياق الأخبار بالإسناد، دَفَعَ صلاح الدين الصفدي الذي جاء بعده يحذف هذه الأسانيد لاسيما وأنها تطول أحياناً في كتاب الوافي بالوفيات فاكتفى الصفدي بالراوي الأعلى أو يذكر الصحابي والتابعي فقط .

٥٠- العبر في خبر من غير :

وقد اعتمد فيه الذهبي على كتابه «تاريخ الإسلام» بعد أن أضاف إليه بعض الإضافات من الحوادث والوفيات التي لم يوردها في «تاريخ الإسلام» وقد نيل على العبر محمد بن علي بن الحسن الدمشقي<sup>(٣)</sup> والهافظ عبد الرحيم بن الحسين بن عبدالرحمن العراقي<sup>(٤)</sup> . وكتاب « العبر في خبر من غير » مطبوع<sup>(٥)</sup> .

(١) ج ٦ ص ١٥ ط دار الكتب العلمية - بيروت .

(٢) اشرف علي تحقيقه الأستاذ / شعيب الأرنؤوط . مؤسسة الرسالة - بيروت ط ١٩٨١ م ط ٢٠١٩ م .

(٣) ت ٧٦٥ هـ .

(٤) ت ٨٠٦ هـ .

(٥) تحقيق فؤاد سيد وصلاح المنجد ط الكويت ، وطبعته دار الكتب العلمية ببيروت تحقيق أبوهاجر محمد السعيد زغلول ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .



٥١- المشتبه في الرجال أسمائهم وأنسابهم<sup>(١)</sup> :

قال الذهبي في أوله : « هذا كتاب مبارك جم الفائدة في معرفة ما يشتبه ويتصفح من الأسماء والأنساب والكنى والألقاب مما اتفق وضماً واختلف نطقاً . وقد جعله الذهبي غاية في الاختصار واعتمد القلم في ضبط المشتبه وأحياناً كان يفيد بالحروف إذا خشي الصعوبة والإشكال من الضبط بالقلم .

ويأتي غالباً في الأسماء والأسانيد والرويات . اخترنه وقربت لفظه ، وبالغت في اختصاره بعد أن كنت علقت في ذلك كلام الحافظ عبدالغني بن سعيد الأزدي في المشتبه ، والمختلف ، وكلام الأمير الحافظ أبي نصر بن ماکولا ، وكلام الحافظ أبي بكر ابن نقطه ، وكلام شيخنا أبي العلاء الفرضي وغيرهم .

وأضفت إلى ذلك ما وقع لي أو تنبعت له . فأعلم - أرشدك الله - أن العمدة في مختصري هذا على ضبط القلم إلا فيما يصعب ويُشكل ، وبالله أتأيد وعليه أتوكل .

نظراً لأن الذهبي ابتغى لنفسه منهج الإختصار قيد الله لهذا الكتاب علمين من المعلمين شرحاه أتم شرح وبعبارة مستفيضة وهما :

« ابن حجر العسقلاني في تبصير المنتبه بتحرير المشتبه<sup>(٢)</sup> قال في أوله « أما بعد فإنني لما علقت كتاب المشتبه الذي لخصه الحافظ الشهير أبو عبدالله الذهبي - رحمه الله - وجدت فيه اعوازاً من ثلاثة :

أحدهما : وهو أهمها : تحقيق ضبطه ، لأنه أحال في ذلك على ضبط القلم ، فما شفى من ألم .

ثانيها : إجحافه في الاختصار ، بحيث إنه يعمد إلى الإسمين المشتبهين إذا كثر فيقول في كل منهما : فلان وفلان وفلان وغيرهم . وهذا لا يروى الغلة ، ولا يشفي العلة ، بل يبقى اللبس على المستفيد كما هو ، وكان ينبغي أن يستوعب اقلهما .

(١) منها طبعة حققها علي محمد البجاوي، ط عيسى البابي الحلبي، ١٩٦٢م.

(٢) طبع في سلسلة تراثنا تحقيق محمد علي النجار، وعلي محمد البجاوي .  
وزارة الثقافة والإرشاد القومي . المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة .

وثالثهما : وفيه ما لا يريد عليه إلا أن ذلك من ثمة الفائدة . ما فاته من التراجم السمتقلة التي لم يضيفها كتابه مع كونها في أصل ابن ماكولا ، وذيل ابن نقطة اللذين لخصهما ، وزاد من ذيل أبي العلاء الفرضي وغيره ما استدرك عليهما . فاستخرت الله تعالى في اختصار ما أسهب فيه وبسط ما أجحف في اختصاره بحيث يكون ما اختصر علمية من ذلك أزيد من حجمه قليلاً . فأعان الله على ذلك وله الحمد .

٥٢- معجم الشيوخ الكبير :

وقد اشتمل على شيوخه بالسماع والإجازة إلا أنه لم يستوعبهم ، وخاصة شيوخه بالإجازة إذ ربما أجاز له الرجل ولم يشعر به ، بخلاف من سمع منه فإنه يعرفه معرفة جيدة بسبب اللقاء .

وقد رتب الذهبي معجمه على حروف المعجم في الأسماء والآباء والأجداد ، وعمل إحالات للأسماء والنسب المشهورة وكان منهجه فيه يتلخص في ذكر اسم الشيخ المترجم وشيء من سيرته الحياتية والعلمية ، ثم يورد بعد ذلك حديثاً أو رواية عنه بسنده ، ويتكلم على الأحاديث ويخرجها ثم يورد بعض الكتب والأجزاء التي سمعها منه . والكتاب مطبوع<sup>(١)</sup> .

٥٣- معجم الشيوخ الأوسط :

ذكره الدكتور / بشار عواد في حديثه عن مؤلفات الذهبي<sup>(٢)</sup> ، ولكن الأستاذ/ قاسم علي سعد استدرك ذلك عليه بقوله : « ذكر الدكتور/ بشار للذهبي أربعة معاجم ، كبيرة وأوسط وصغيرة والمعجم المختص ، وقد اطلعت على معاجم الذهبي هذه وعندني صور عن نسخ منها ما عدا المعجم الأوسط ، حيث إنه لا يوجد للذهبي إلا ثلاثة معاجم كبيرة وصغيرة ومختص ، وقد وهم الدكتور/ بشار عواد بجعلها أربعة<sup>(٣)</sup> واستدل الأستاذ/ قاسم علي سعد بأن ابن حجر لم يذكر للذهبي إلا ثلاثة معاجم هي الكبيرة واللطيف

(١) ط دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ١٤١٠هـ بتحقيق د. روحية السيوفي .

(٢) الذهبي ومنهجه في كتابه « تاريخ الإسلام » بشار عواد ص ١٨٥ .

(٣) صفحات في ترجمة العافظ الذهبي ص ٢٣ ط دار البشائر الإسلامية ١٤٠٧هـ .

والمختص بالحدثين، وكذلك عدهم السخاوي، كما أنه لا توجد أية نسخ لذلك المعجم الأوسط<sup>(١)</sup>، ثم قال (المعجم الأوسط عند ابن تغري بردي هو المعجم الصغير، والمعجم الأوسط عند ابن حجر هو المعجم المختص، لأن الأول لم يذكر الصغير والثاني لم يذكر المختص مع شهرتهما، فدل على أنهما قصداً ذلك<sup>(٢)</sup> . وإذا كان الذهبي قد تكلم عن معجمه المختص بالحدثين فيمكن اعتبار المعجم الأوسط هو الصغير كما قال ابن تغري بردي: (وكتاب معجم شيوخه الكبير والمعجم الأوسط والمعجم المختص)<sup>(٣)</sup> .

#### ٥٤- المعجم المختص بمحدثي العصر :

وهو كتاب يختص بطلاب العلم في عصر الإمام الذهبي ، ذكرهم فيه حتى صغارهم . والكتاب مطبوع<sup>(٤)</sup> .

قال في مقدمته : « فهذا معجم مختص بذكر من جالسته من المحدثين أو أجاز لي مروياته من طلبة الحديث وبعضهم أمير في هذا الشأن من غيره كما أنبه عليه بنوعتهم، وإلى الله الملجأ في الإخلاص والتوفيق وبه الإستعانة » أ . ه .

ترجم فيه الإمام الذهبي ستة وتسعين وثلاثمائة علم .

#### ٥٥- معرفة آل مندة :

وهو كتاب اختص به الذهبي آل مندة الأصبهانيين الذين اشتهر منهم عدد كبير في تاريخ الثقافة الإسلامية كأعلام للحافظ وقد ذكره سبط بن حجر في كتابه رونق الألفاظ<sup>(٥)</sup> .

#### ٥٦- عرفة القراء الكبار على الطبقات والإعصار :

وقد قسمه الذهبي إلى سبع عشرة طبقة حسب اللقب مبتدئاً بالصحابه الذين عرضوا على رسول الله - ﷺ - . وإنهاء بعصره . وقد أدرج الطبقة ١٧ في ١٨ ، وجعلها طبقة

(١) السابق نفسه . بتصريف .

(٢) السابق ص ٢٥ .

(٣) ج ٩ ص ١٠٥ نسخة عارف حكمت - بالمدينة المنورة .

(٤) ط مكتبة الصديق . الطائف ١٤٠٨ هـ - بتحقيق د . محمد العبيد الهيلة .

(٥) ورقة ١٨٠ محفوظة بالخالدية بالقدس .

واحدة والذهبي - رحمه الله - لم يعن بتفصيل أخبار المترجمين في هذا الكتاب مما ليس له علاقة بفن القراءة ، وإنما اقتصر على إبراز المهم المتعلق بهذا الأمر ففصله فيه ، وأبان عن دقائقه ونكته ، ولو أراد أن يستقصى أخبارهم لكان كما قال في نهاية الطبقة الأولى .

« واختصرت أخبارهم ، فلو سقتها كلها لبلغت خمسين كراساً » وبما أن الذهبي - رحمه الله - كان كثير التصنيف ، ومن أهل الاستقراء في أخبار الرجال على اختلاف اختصاصاتهم ، فقد كانت تترتجهم ، وتتداخل فرمبا تكررت عليه بعض التراجم كما وقع له في كتابه هذا .

انظر ترجمتي « ٢٥٦ ، ٢٦٢ » لأحمد بن عبد الله بن الحسين الجبي وترجمة « ٢٧٥ ، ٢٨١ » لعلي بن أحمد القزويني .

**قال محققه :**

« مر الإمام الذهبي فنان أصيل ، قل نيره في صياغة الترجمة ، وهضم ما كتب عن المترجم في المؤلفات السابقة ، وتقديم صورة دقيقة مركزة موثقة بقلمه البليغ ، وأسلوبه الواضح ، ورياضته المشرفة ، وما أكثر ما يضمن الترجمة نقداً موفقة ، يكاد يتفرد بها بين المؤرخين ، تبين عن سعة علمه ، ونصاعة حجته ، وبلاغة نقده »<sup>(١)</sup> .

٥٧- المعين في طبقات المحدثين :

وهو كتاب يكاد يقتصر على ذكر أسماء المحدثين ، وما يزال محفوظاً<sup>(٢)</sup> . قال في مقدمته : « ..... فهذه مقدمة في ذكر أسماء أعلام حملة الآثار النبوية ، تبصر الطالب النبيه ، وتذكر المحدث المفيد بن يقبح بالطلبة أن يجهلوهم . وليس هذا كتاب بالمستوعب للكبار ، بل لمن سار ذكره في الأقطار والأعصار ، وبالله أعتصم ، وإليه أنيب »<sup>(٣)</sup> .

(١) ط دار الكتب الحديثة بالقاهرة ١٩٦٩م تحقيق سيد جاد الحق . وطبع في مؤسسة الرسالة بتحقيق بشار عواد معروف ، وشعيب الأرنؤوط . صالح مهدي عباس .

(٢) مكتبة فيص الله باستانبول رقم (١٥٢٨) .

(٣) المعين ص ١٧ طبقة دار الفرقان تحقيق د/همم عبدالرحيم سعيد . طبعة أولى ١٤٠٤هـ .

## مميزات الكتاب :

١ - يعرض الذهبي لطبقات المحدثين وفق التسلسل الزمني، ويجعل الطبقة فيمن مات في ما بين سنة كذا وسنة كذا ، وهي مدة خمس وعشرين سنة والذين يتقارب وفياتهم هم غالباً أبناء جيل واحد وعصر واحد .

٢ - يذكر في كتابه هذا سبعاً وعشرين طبقة، ويدخل في القرن الثامن الهجري إلى حدود سنة سبعمائة وثلاثين . وبذلك يكون الكتاب من أوسع كتب الطبقات ، وقد أحتوى على ألفين وأربعمائة وأربعة وعشرين رجلاً من رجال الحديث .

٣ - لم يعهد الذهبي أسلوب التوزيع على البلاد ، أو على المذاهب الفقهية أو على أهل المشرق وأهل المغرب، بل نراه يذكر الطبقة وفيها المشرقي والمغربي والحنفي والمالكي والشافعي .

٤ - أشار الذهبي في آخر المعين إلى أنه ذكر الطبقات على مر الأعصار، وأنه أراد أن يكون الكتاب مختصراً، ومن أراد التفصيل فإنه يجده في كتابه «تاريخ الإسلام» وبذلك يكون الذهبي قد قدم لطلاب هذا العلم خالصة موجزة توقفهم على الطبقات من أقرب الطرق .

٥ - يُضعف الذهبي في هذا الكتاب ، ويوثق ويعدل ويخرج بعبارات وجيزة ويهتم برجال القرون المتأخرة خاصة، وهذا جهد يحتاجه طلبة العلم، ويوفر عليهم الكثير من البحث.

٣- المغني في الضعفاء :

وهو كتاب ترجم فيه الذهبي للكذابين والضعفاء والكثيري الوهم والذين يغلب عليهم اللين ، وأورد أقوال أئمة الجرح والتعديل فيهم . والكتاب مطبوع<sup>(١)</sup> .

قال في مقدمته :

فهذا كتاب صغير الحجم ، كبير القدرة كثير النفع ، أسأل الله تعالى فيه حُسن النية والقصد ، والعفو عن السهو ، والتجاوز عن تجاوز الحد ، هديئة وقرينة وبالغيب عن اختصاره تيسيراً على طلبة العلم المعتنين بالحديث في معرفة الضعفاء من المحدثين

(١) ط دار المعارف بحلب ١٩٧١م.

والناقلين، ثم على الكثيري الوهم من الصادقين، ثم على الثقات الذين فيهم شيء من اللين، أو تعنت بذكر بعضهم أحد من الحافظين، ثم على خلق كثير من الجهولين، ولم يمكن استيعاب هذا الصنف لكثرتهم في الأولين والآخرين فذكرت منهم من نصب على جمالته أبو حاتم الرازي، وقال: هذا مجهول، وذكر خلق منهم لم أعرف حاله، ولا روى عنه سوى رجل واحد متناً منكرأ، وكذا لم أذكر فيه من قيل فيه: مطه الصدق، ولا من قيل فيه: يكتب حديثه، ولا من إلا بأس به، ولا من قيل فيه: هو شيخ، أو هو صالح الحديث، فإن هذا باب تعديل، وكذا لم أعتن بهن ضعف من الشيوخ ممن كان في المائة الرابعة، وبعدها.

ولو فتحت هذا الباب لما سلم أحد إلا النادر من رواة الكتب والأجزاء وقد جمعت في كتاب هذا أمماً لا يحصون، فهو مغن عن مطالعة كتب كثيرة من الضعفاء، فإنني أدخلت فيه - إلا من ذهلت عنه - الضعفاء لابن معين، والبخاري، وأبي زرعة، وأبي حاتم، والنسائي، وابن خزيمة، والعقيلي، وابن عدي، وابن حبان، والدارقطني، والدولابي، والحاكمين - الحاكم أبو أحمد النيسابوري - ٣٧٨، والحاكم أبو عبد الله النيسابوي صاحب المستدرک، والخطيب، وابن الجوزي، وردت على هؤلاء ملتقطات من أماكن متفرقات، وأبشرت إلى حال الرجل بأخصر عبارة، إدلوا بتوفيت حاله وما قيل فيه، وما أنكر متن الحديث عليه: لبلغ الكتاب عدة مجلدات، فمن أراد التبحر في المعرفة فليطالع المؤلفات الكبار. وليأخذ من حيث أخذت.

٥٨- من تكلم فيه وهو موثق:

وفيه يبين الذهبي الجرح المعتبر الذي يضعف الرجل أو يترك بسببه، والجرح المرئود وضرب لذلك أمثلة من التفاف المتكلم فيهم بما لا يوجب ردهم. والكتاب مطبوع<sup>(١)</sup>.

٥٩- ميزان الاعتدال في نقد الرجال:

وصفه الذهبي نفسه في المقدمة بقوله: « هذا كتاب جليل مبسوط في إيضاح نقله العلم النبوي وحمله الآثار، ألفته بعد المغني وطولت العبارة، وفيه أسماء عدة من

---

(١) مع مجموعة رسائل عنوانها عبدالمجيد زكريا، رسالة في الرواة الثقة المتكلم فيهم بما لا يوجب ردهم ط ١٩٠٦م.

- الرواة زائدة على من في المغني .
- وقد اعتمد فيه الذهبي على مؤلفات سابقين من علماء نقد الرجال مثل يحيى بن سعيد القطان ويحيى بن معين وعلي بن المديني وأحمد بن حنبل وعمرو بن علي الفارسي وأبي حاتم والبخاري ومسلم والنسائي وغيرهم .
- وقد رتبته الذهبي على حروف المعجم في الأسماء والأباء ثم ذكر بعد ذلك الكني، ويضم الميزان عشر طوائف من الرجال هي :
- ١ - الكذابون الوضاعون المتعمدون .
  - ٢ - الكذابون في أنهم سمعوا ولم يسمعوا .
  - ٣ - المهتمون بالوضع .
  - ٤ - الكذابون في لهجتهم لا في الحديث النبوي .
  - ٥ - المتروكون الهلكى الذين ترك حديثهم .
  - ٦ - الحفاظ الذين في دينهم رقة .
  - ٧ - المحدثون الضعفاء من قبل حفظهم .
  - ٨ - المحدثون الصادقون الذين فيهم لين ولم يبلغوا رتبة الإثبات المثقفين .
  - ٩ - طائفة من الجهوليين .
  - ١٠ - الثقات الإثبات الذين فيهم بدعة، أو الثقات الذين تكلم فيهم من لا يلتفت إلى كلامه في ذلك الثقة. والميزان مطبوع<sup>(١)</sup>
  - ٦٠ - هالة البدر في عدد أهل بدر :
- ذكره صلاح الدين الصفدي في كتابه « الوافي بالوفيات »<sup>(٢)</sup> وابن شاکر الكتبي في كتابه « عين التواريخ »<sup>(٣)</sup> والبغدادي في « ايضاح المكنون »<sup>(٤)</sup> ولم يصل إلينا .

(١) ط دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة ١٩٦٣م.

(٢) ج ٢ ، ص ١٦٤ ، ط ، الهاشمية - بدمشق .

(٣) ورقة ٨٧ .

(٤) ج ٢ ، عمود ٧١٦ ، ط ، استانبول ١٩٤٥م.

ثامناً : السير والتراجم المقررة :

٦١- أخبار أبي مسلم الخراساني :

ذكره الصفدي في «الوافي بالوفيات»<sup>(١)</sup> وابن شاكر الكتبي في «فوات الوفيات»<sup>(٢)</sup> والبغداد في «هدية العارفين»<sup>(٣)</sup> ولم يصل إلينا .

٦٢- أخبار أم المؤمنين عائشة :

٦٣- ذكر الذهبي نفسه أنه أفرد للسيدة عائشة - رضي الله عنها - ترجمة في مصنف<sup>(٤)</sup> .

٦٥- البيان في مناقب عثمان :

ذكر الذهبي أنه أفرد سيرته في مصنف<sup>(٥)</sup> .

٦٦- ترجمة أبي حنيفة :

ذكر الذهبي أنه أفرد سيرته في مصنف<sup>(٦)</sup> .

٦٧- ترجمة أبي حنيفة :

حققها محمد زاهد الكوثري ونشرها<sup>(٧)</sup> .

٦٨- ترجمة أبي يوسف القاضي :

وهي التي نشرها الكوثري مع ترجمة أبي حنيفة .

٦٩- ترجمة أحمد بن حنبل :

ذكرها صلاح الدين الصفدي في «الوافي» .

٧٠- ترجمة الخضر :

ذكرها سبط بن حجر في «رونق الألفاظ»<sup>(٨)</sup> . ولم يصل إلينا .

(١) ج٢ ص ١٦٢ ، ط الهامشية - بدمشق .

(٢) ج٢ ص ١٨٣ .

(٣) ج٢ ، عمود ١٥٤ ، ط ، استانبول ١٩٥٥م .

(٤) تذكرة الحفاظ ج١ ، ص ٢٩ ، ط ، دار الكتب العلمية - بيروت .

(٥) المرجع السابق ج١ ص ٩

(٦) أحمد بن محمد سعيد الكوفي ت ٣٢٢هـ .

(٧) ط القاهرة بعنوان «مناقب الإمام حنيفة وصاحبه أبي يوسف ومحمد بن الحسن» .

(٨) الورقة ١٨٠ .



- ٧١- ترجمة السفلى :
- ذكرها السخاوي في «الجواهر والدرر»<sup>(١)</sup> . ولم يصل إلينا .
- ٧٢- ترجمة الشافعي :
- ذكرها صلاح الصفدي في «الوافي»<sup>(٢)</sup> ولم يصل إلينا .
- ٧٣- ترجمة الشيخ الموفق :
- وهو العالم الكبير موفق الدين عبدالله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي المتوفي سنة ٦٢٠ هـ . وهذه الترجمة ذكرها السخاوي في «الجواهر والدرر»<sup>(٣)</sup> ولم تصل إلينا .
- ٧٤- ترجمة مالك بن أنس :
- ذكرها الذهبي نفسه في تذكرة الحفاظ<sup>(٤)</sup> .
- ٧٥- ترجمة محمد بن الحسن الشيباني :
- وهي التي حققها الكوثري ونشرها مع ترجمة أبي حنيفة وأبي يوسف<sup>(٥)</sup> .
- ٧٦- توقيف أهل التوفيق على مناقب الصديق :
- ذكرها الذهبي في تذكرة الحفاظ<sup>(٦)</sup> ولم تصل إلينا .
- ٧٧- الدررة اليتيمية في سيرة التيمية :
- وعنوانه يدل على موضوعه وهو قي آل تيمية . وقد ذكره البغدادي في كتابيه «إيضاح المكنون»<sup>(٧)</sup> و«هدية العارفين»<sup>(٨)</sup> .

---

(١) ص ٧٣٩ ، ط ، ضمن كتاب علم التاريخ لروزنتال واسفلى هو أحمد بن محمد بن أحمد السفلى ت ٥٧٦ هـ .

(٢) ج ٢ ص ١٦٤ ، ط الهاشمية - بدمشق .

(٣) ص ٧٣٢ ، ط ، ضمن كتاب علم التاريخ عند المسلمين لروزنتال .

(٤) ج ١ ، ص ٢١٢ ، ط ، دارالكتب العلمية - بيروت .

(٤) ط ، القاهرة دون تاريخ .

(٦) ج ٢ ، ص ٢ ، ط دارالكتب العلمية - بيروت .

(٧) ج ١ ، ص ٤٦٢ ، ط استانبول ١٩٤٥ م .

(٨) ج ٢ ، عمود ١٥٤ ، ط ، استانبول ١٩٥٥ م .

- ٧٨- سيرة الحلاج :
- ذكره ابن تغري بردي في «المنهل الصافي»<sup>(١)</sup> وسبط بن حجر في «رونق الألفاظ»<sup>(٢)</sup> وابن عماد الحنبلي في «شذرات الذهب»<sup>(٣)</sup> .
- ٧٩- سيرة أبي القاسم الطبراني<sup>(٤)</sup> :
- ذكرها الذهبي في مقدمة الأربعين البلدية التي خرجها من معجم الطبراني الصغير<sup>(٥)</sup> ولم تصل إلينا .
- ٨٠- سيرة سيعد بن المسيب :
- ذكرها الذهبي نفسه في تذكرة الحفاظ<sup>(٦)</sup> ولم تصل إلينا .
- ٨١- السيرة النبوية :
- عُ السخاوي الإمام الذهبي مع من أفردوا كتباً للسيرة النبوية<sup>(٧)</sup> ولم تصل إلينا .
- ٨٢- فتح المطالب في مناقب علي بن أبي طالب :
- ذكره الذهبي في تذكرة الحفاظ<sup>(٨)</sup> ولم تصل إلينا .
- ٨٣- قضى نهارك بأخبار ابن المبارك<sup>(٩)</sup> :
- ذكره الصفدي في «الوافي»<sup>(١٠)</sup> وابن شاكر الكتبي في «عيون التواريخ»<sup>(١١)</sup> ولم تصل إلينا .

- 
- (١) الورقة ٧٠ .
- (٢) الورقة ١٨٠ .
- (٣) ج ٦ ، ص ١٥٦ ، ط ، دارالكتب العلمية - بيروت .
- (٤) هو سليمان بن أحمد أيوب اللخمي الطبراني ت ٣٦٠هـ . انظر سير أعلام النبلاء ج ١٦ ص ١١٩ - طبقات الحفاظ ٣٧٢ .
- (٥) ورقة ١ نسخة الخزانة التيمورية (رقم ٤٣٨ حديث) .
- (٦) ج ١ ، ص ٥٦ ، ط ، دارالكتب العلمية - بيروت .
- (٧) الإعلان بالتوبيخ ص ٥٢٨ ، ط ، بغداد ١٩٦٣م .
- (٨) ج ١ ، ص ٨٠ ، ط ، دارالكتب العلمية - بيروت .
- (٩) عبدالله بن المبارك ت ١٨١هـ . انظر سير أعلام النبلاء ج ٨ ص ٣٣٦ - تهذيب التهذيب ج ٥ ص ٢٨٢ .
- (١٠) ج ٢ ، ص ١٦٤ ، ط الهاشمية - بدمشق .
- (١١) الورقة ٨٧ .

- ٨٤- مناقب البخاري :
- ذكرها الذهبي في تذكرة الحفاظ<sup>(١)</sup> والكتاب ما يزال محفوظاً<sup>(٢)</sup> .
- ٨٥- نعم السمر في سيرة عمر :
- ذكره الذهبي نفسه في تذكرة الحفاظ<sup>(٣)</sup> وذكر صلاح الصفدي في «الوافي بالوفيات»  
والبغدادى في «هدية العارفين»<sup>(٤)</sup> .
- ٨٦- نفخ الجعبة في أخبار شعبة :
- وهو ترجمة للمحدث المعروف بشعبة بن الحجاج<sup>(٥)</sup> ذكره الصفدي في «الوافي  
بالوفيات»<sup>(٦)</sup> .
- ٨٧- سيرة لنفسه :
- ذكرها السخاوي في «الجواهر والدرر»<sup>(٧)</sup> ولم تصل إلينا .

#### تاسعاً : المنوعات :

- ٨٨- بيان زغل العلم والطلب :
- وفيه تناول الذهبي العلوم المعروفة في عصره مثل القراءة والتجويد والحديث والفقه  
والفقهاء والنحو واللغة والتفسير وأصول الفقه والكتاب مطبوع<sup>(٨)</sup> وسوف نفصل القول  
فيه على الصفحات التالية إن شاء الله .

- 
- (١) ج ٢ ص ٥٥٦ ط ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان .
- (٢) دار الكتب المعديية (رقم ٩٦٥) .
- (٣) ج ١ ، ص ٦ ط ، دار الكتب الهاشمية - بدمشق .
- (٤) ج ٢ ، عمود ١٥٥ ط ، استانبول ١٩٥٥ م .
- (٥) ت ١٦٠ هـ .
- (٦) ج ٢ ، ص ١٦٤ ط ، الهاشمية - بدمشق .
- (٧) ص ٧٤٦ ط ، ضمن كتاب علم التاريخ عند المسلمين لروننتال .
- (٨) بعنوان « زغل العلم » حققه محمد بن ناصر العجمي ط مكتبة الصحوة الإسلامية - الكويت  
١٩١٨٤ م .

- ٨٩- التمسك بالسنة :
- ذكره ابن العماد الحنبلي في «شذرات الذهب»<sup>(١)</sup> ولم تصل إلينا .
- ٩٠- جزء في فضل آية الكرسي :
- ذكره ابن العماد في «شذرات الذهب»<sup>(٢)</sup> ولم تصل إلينا .
- ٩١- الطب النبوي :
- وموضوعه الطب الذي ورد في الأحاديث النبوية الشريفة وقد طبع كثيراً<sup>(٣)</sup> .
- ٩٢- كسر وثن ركن :
- وهو كتاب في تكذيب رجل ادعى أنه من أصحاب النبي - ﷺ - وأنه عمرو وعاش حتى سنة ٦٠٠هـ بل وبعدها . وقد ذكر الذهبي نفسه هذا الكتاب في «ميزان الاعتدال»<sup>(٤)</sup> ولم تصل إلينا .

#### هاشراً : المختارات والمختصرات والمنتقيات :

- ٩٣- أحاديث مختارة من الموضوعات للجورقاني :
- مخطوطة بالمكتبة الأزهرية<sup>(٥)</sup> .
- ٩٤- بلبل الروض :
- وهو مختصر كتاب «الروض الأنف تفسير ما اشتمل عليه حديث السيرة النبوية لابن هشام» وذكره سبط ابن حجر في كتابه «رونق الألفاظ»<sup>(٦)</sup> .
- ٩٥- تجريد أسماء الصحابة :
- وهو مختصر «أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير» . وهو مطبوع<sup>(٧)</sup> .

---

(١) ج ٦ ، ص ١٥٧ ، ط ، دار الكتب العلمية - بيروت .

(٢) ج ٦ ، ص ١٥٦ .

(٣) أول طبعاته بمصر . ١٨٧٠م .

(٤) ج ٢ ، ص ٤٥ ، ط ، القاهرة ١٩٦٣م .

(٥) رقم (٢٩٠ حديث) .

(٦) الورقة ١٨٠ .

(٧) ط ، حيدرآباد بالهند ١٣١٥ هـ . بتصحيح صالحه عبد الحكيم شرف الدين - ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م .

قال في صدره ك « فهذا تجريد أسماء الصحابة الذي صنفه العلامة عز الدين أبو الحسن علي بن أثير الدين محمد بن محمد بن عبد الكريم الجزري - رحمه الله ورضي عنه - فإنه كتاب نفيس مستقصى لأسماء الصحابة - رضي الله عنهم - الذين ذكروا في الكتب الأربعة المصنفة في معرفة الصحابة : كتاب أبي عبدالله بن مندة ، وكتاب أبي نعيم .

٩٦- تذهيب تهذيب الكمال في معرفة الرجال :

وكتاب «الكمال» للحافظ المقدس<sup>(١)</sup> هذبه أبو الحجاج المزي<sup>(٢)</sup> وجاء الذهبي فصنف التذهيب . ذكره الصفدي في «الوافي بالوفيات» والسبكي في «الطبقات الكبرى»<sup>(٣)</sup> .

٩٧- ترتيب الموضوعات لابن الجوزي :

وفيه رتب الذهبي كتاب «الموضوعات من الأحاديث المرفوعة» لابن الجوزي وهديه واختصر بعض المنون الأطول وخفف من طول الأسانيد والكتاب ما زال محفوظاً<sup>(٤)</sup> .

٩٨- تلخيص العلل المتناهية في الأحاديث الواهية لابن الجوزي :

مخطوط بالمكتبة الأزهرية<sup>(٥)</sup> .

٩٩- تنضج كتب التحقيق في أحاديث التعليق لابن الجوزي :

مخطوط بمكتبة فيض الله باستانبول<sup>(٦)</sup> .

١٠٠- تهذيب تاريخ علم الدين البرزالي<sup>(٧)</sup> :

وقد أشار صلاح الدين الصفدي إلى أن الذهبي هذب تاريخ البرزالي وزاد عليه أشياء من عنده<sup>(٨)</sup> . والكتاب لم يصل إلينا .

(١) ت ٦٠٠هـ .

(٢) ت ٧٤٢هـ .

(٣) ج ٩ ، ص ١٠٤ .

(٤) المكتبة الأزهرية رقم (٢٩٠) حديث .

(٥) رقم (٢٩٠) حديث .

(٦) رقم (٢٩٦) .

(٧) ت ٧٣٩هـ .

(٨) الوافي بالوفيات ج ١ ، ص ٥١ ، ط ، الهاشمية - بدمشق .

- ١٠١- مختصر ذكر الجهر بالبسمة :
- وهو مختصر لكتاب الخطيب البغدادي<sup>(١)</sup> ، والمختصر مخطوط بدار الكتب الظاهرية<sup>(٢)</sup>.
- ١٠٢- الرخصة في الغناء والطرب بشرطه :
- وهو مختصر كتاب «السماع للأدقوي»<sup>(٣)</sup> وكتاب الرخصة ما يزال مخطوطاً<sup>(٤)</sup>.
- ١٠٣- الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة :
- صنفه الذهبي من تهذيب الكمال للمزي واقتصر فيه على من له رواية في الكتب الستة أي الصحيحين والسنن الأربعة. والكتاب مطبوع<sup>(٥)</sup> .
- قال في مقدمته :
- « هذا مختصر نافع في رجال الكتب الستة الصحيحين والسنن الأربعة، مقتضب من «تهذيب الكمال» لشيخنا الحافظ: «أبي الحجاج المزي» اقتصرت فيه على ذكر من ذكر للتمييز ، أو كرر للتنبيه والرمز فوق اسم الرجل .
- ١٠٤- المجرد من تهذيب الكمال :
- واقصر فيه أيضاً على رجال الكتب الستة وقسمه إلى عشر طبقات ثم رتب كل طبقة على حروف العجم. والكتاب ما يزال مخطوطاً<sup>(٦)</sup> .
- ١٠٥- مختصر الأنساب للمسعاني :
- ذكره سبط ابن حجر في «رونق الألفاظ»<sup>(٧)</sup> ولم تصل إلينا .

---

(١) ت ٤٦٣هـ .

(٢) ضمن مجموعة (برقم ٥٥) .

(٣) هو كمال الدين جعفر بن تغلب بن جعفر الادقوي ت ٧٤٨هـ ، انظر الوافي بالوفيات ج ١١ ص ٩٩ .

(٤) دار الكتب الظاهرية (رقم ٧١٥٩) .

(٥) طبعة دار الكتب العلمية ببيروت ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

(٦) مكتبة شهيد علي باشا باستانبول (رقم ٥٢٣) .

(٧) الورقة ١٨٠ . نقلاً عن بشار عواد في الذهبي ومنهجه ص ٢٣١ .

- ١٠٦- مختصر البعث والنشر للبيهقي :
- ذكره ابن تقري بردي في المنهل الصافي<sup>(١)</sup> ولم تصل إلينا .
- ١٠٧- مختصر تاريخ بغداد للخطيب البغدادي :
- ذكره الصفدي «الوافي بالوفيات»<sup>(٢)</sup> .
- ١٠٨- مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر :
- ذكره ابن العماد الحنبلي في «شذرات الذهب»<sup>(٣)</sup> ولم تصل إلينا .
- ١٠٩- مختصر تاريخ مصر لابن يونس :
- اختصره الذهبي وعلق منه أحاديث وأشار إلى ذلك في تذكرة الحفاظ<sup>(٤)</sup> ولم يصل إلينا .
- ١١٠- مختصر تاريخ نيسابور لأبي عبدالله الحاكم :
- ذكره الزركشي في «عقد الجمان»<sup>(٥)</sup> ولم يصل إلينا .
- ١١١- مختصر تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف للمزي :
- ذكره ابن العماد «شذرات الذهب»<sup>(٦)</sup> .
- ١١٢- مختصر تقويم البلدان لأبي الفدا<sup>(٧)</sup> :
- ذكره صلاح الدين الصفدي في «الوافي»<sup>(٨)</sup> وابن سباط في تاريخه<sup>(٩)</sup> .

- 
- (١) الورقة ٧١ ، نقلًا عن بشار مواد في الذهبي ومنهجه ص ٢٢٢ .
- (٢) ج٢ ، ص ١٦٤ ، ط ، الهاشمية - بدمشق .
- (٣) ج٦ ، ص ١٥٦ ، ط ، دار الكتب العلمية - بيروت .
- (٤) ج٢ ، ص ٨٩٨ ، ط ، دار الكتب العلمية - بيروت .
- (٥) الورقة ٧٩ .
- (٦) ج٦ ، ص ١٥٦ ، ط ، دار الكتب العلمية - بيروت .
- (٧) هو اسماعيل بن علي بن محمود محمد بن عمر بن شان شاه ت ٨٧٣٢ هـ . انظر البداية والنهاية ج٤ ص ١٥٨ - ولادير الكامنة ج١ ص ٢٩٦ .
- (٨) ج٢ ، ص ١٦٤ ، ط ، الهاشمية - بدمشق .
- (٩) تاريخ ابن سباط . ص ٦٨٩ تحقيق عمر تدمري - جروس - لبنان . الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ .

- ١١٣- مختصر التكملة لوفيات النقلة للمنذري<sup>(١)</sup> :
- ذكره ابن المعاد الحنبلي في «شذرات الذهب»<sup>(٢)</sup> ولم يصل إلينا .
- ١١٤- مختصر كتاب جامع العلم وفضله لابن عبد البر<sup>(٣)</sup> :
- ذكره تغري بردي في «المنهل الصافي»<sup>(٤)</sup> ولم يصل إلينا .
- ١١٥- مختصر الجهاد لبهاء الدين ابن عسكر :
- ذكره الذهبي نفسه في «تذكرة الحفاظ»<sup>(٥)</sup> ولم يصل إلينا .
- ١١٦- مختصر كتاب الروضتين وزيه لأبي شامة :
- ذكره سبط ابن حجر في «رونق الألفاظ»<sup>(٦)</sup> ولم يصل إلينا .
- ١١٧- مختصر كتاب الزهد للبيهقي<sup>(٧)</sup> :
- ذكره ابن عماد الحنبلي في «شذرات الذهب»<sup>(٨)</sup> . والكتاب مخطوط<sup>(٩)</sup> .

- 
- (١) هو عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله المنذري ت ٦٥٦هـ . انظر شذرات الذهب ج ٥ ص ٢٧٧ - والسير ج ٢٢ ص ٣١٩ .
- (٢) ج ٦ ، ص ١٥٦ ، ط ، دار الكتب العلمية - بيروت .
- (٣) يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر المنذري ت ٦٥٦هـ . انظر سير أعلام النبلاء ج ١٨ ص ١٥٣ .
- (٤) ورقة ٧٠ ، نقلاً عن بشار عواد في الذهبي ومنهجه ص ٢٣٨ .
- (٥) ج ٤ ، ص ١٣٦٨ ، ط ، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان .
- (٦) الورقة ١٨٠ ، نقلاً عن بشار عواد في الذهبي ومنهجه ص ٢٤١ .
- (٧) هو أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي ت ٤٥٨هـ ، انظر تذكرة الحفاظ ج ٥ ص ١١٣٢ - السير ج ٨ ص ١٦٣ .
- (٨) ج ٦ ، ص ١٥٦ ، ط ، دار الكتب العلمية - بيروت .
- (٩) مكتبة عارف حكمت باستانبول .



١١٨- مختصر سلاح المؤمن لابن الإمام<sup>(١)</sup> :

ذكره ابن حجر في الدرر الكامنة<sup>(٢)</sup> ولم يصل إلينا .

١١٩- مختصر الضعفاء لابن الجوزي :

ذكره الذهبي نفسه في كتابه «ميزان الاعتدال»<sup>(٣)</sup> ولم يصل إلينا .

١٢٠- مختصر كتاب الفاروق في الصفات لشيوخ الإسلام الأنصاري<sup>(٤)</sup> :

ذكره ابن العماد الحنبلي في «شذرات الذهب»<sup>(٥)</sup> ولم يصل إلينا .

١٢١- مختصر كتاب القدر للبيهقي :

ذكر صلاح الدين الصفدي أنه في ثلاثة أجزاء<sup>(٦)</sup> ولم يصل إلينا .

١٢٢- المختصر المحتاج إليه من تاريخ ابن الديلمي<sup>(٧)</sup> :

وانتقى منه الذهبي تراجم المحدثين وزاد عليه بعض التراجم خاصة لتلاميذ من يترجم لهم والكتاب ما يزال مخطوطاً<sup>(٨)</sup> .

تحقيق وتعليق مصطفى جواد ، طبع بغداد : المجمع العلمي العراقي ١٩٥١ - ١٩٧٧ م  
٣ أجزاء وهو ذيل على ذيل تاريخ الخطيب البغدادي الذي وضعه أبو سعد السمعاني  
المتوفي سنة ٥٦٢ هـ .

---

(١) هو تقي الدين أبو الفتح محمد بن محمد بن علي بن همام المصري الشافعي ت ٧٤٥ هـ . انظر الوفيات للسلاسي ٤٠٢ .

(٢) ج ٤ ، ص ٣٢٤ ، ط ، حيدر آباد ١٩٥٠ م .

(٣) ج ١ ، ص ٢ ، ط ، القاهرة ١٩٦٣ م .

(٤) أبو اسماعيل مبدالله بن محمد بن علي الأنصاري الهروي ت ٤٨١ هـ . (انظر سير أعلام النبلاء ج ٨ ص ٥٠٣ وشذرات الذهب ج ٢ ص ٣٦٥ .

(٥) ج ٦ ، ص ١٥٦ ، ط ، دار الكتب العلمية - بيروت .

(٦) الوافي بالوفيات ، ج ٢ ، ص ١٦٤ ، ط ، الهاشمية - بدمشق .

(٧) أبو عبدالله محمد بن سعيد بن محمد بن الديلمي ت ٦٣٧ هـ ، انظر الوافي بالوفيات ج ٢ ص ١٠١-١٠٢ .

(٨) دار الكتب المصرية (رقم ٣٢٤) تاريخ .

١٢٣- مختصر كتاب المستدرک على الصحيحين لأبي عبدالله الحاكم :  
ولم يكتب الذهبى بالاختصار وإنما علق وخرج ونقد وبين أن نصف أحاديث  
المستدرک صحيحة وربعها يصح سنده وإن كان فيه علة أما الربع الأخير فهي مناكير  
وإيهات لاتصح وفي بعضها موضوعات. ومختصر الذهبى مطبوع بهامش  
المستدرک<sup>(١)</sup> .

١٢٤- مختصر مناقب سفيان الثوري لابن الجوزي :

ذكره الذهبى في تذكرة الحفاظ<sup>(٢)</sup> ولم يصل إلينا .

١٢٥- مختصر وفيات الأعيان لابن خلكان<sup>(٣)</sup> :

ذكره الذهبى في تاريخ الإسلام<sup>(٤)</sup> ولم يصل إلينا .

١٢٦- مختصر الوهم والإيهام الواقعين في كتاب الأحكام لابن القطان :

محفوظ بدار الكتب الظاهرية<sup>(٥)</sup> .

١٢٧- المستطلي في أخبار المحلى لابن حزم<sup>(٦)</sup> :

ذكره السبكي في طبقات الشافعية الكبرى<sup>(٧)</sup> ولم يصل إلينا .

١٢٨- معرفة التابعين من الثقات لابن حبان<sup>(٨)</sup> :

محفوظ بمكتبة الإسكوريال<sup>(٩)</sup> .

---

(١) ط، مكتبة النهضة الحديثة - الرياض .

(٢) ج١ ، ص ٢٠٦ ، ط، دار الكتب العلمية - بيروت .

(٣) شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر خلكان ت ٦٨٠هـ .

(٤) ج١ ، ص ١٦ ، ط ، مؤسسة الرسالة - بيروت ١٤٠٨هـ .

(٥) رقم ٧٠ مجموع .

(٦) أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري الأندلسي ت ٤٥٦هـ .

(٧) ج٩ ص ١٠٥ ، ط، القاهرة ١٩٦٤م .

(٨) أبو حاتم محمد بن حبان التميمي البستي ت ٣٥٤هـ .

(٩) رقم (١٦٨٩) .

- ١٢٩- المقتضب من تهذيب الكمال للمزي :
- ذكره البغدادي في «هدية العارفين»<sup>(١)</sup> ولم يصل إلينا .
- ١٣٠- المقتنى في سرد الكنى :
- ذكره صلاح الدين الصفدي في «الوافي بالوفيات»<sup>(٢)</sup>. والكتاب مطبوع<sup>(٣)</sup>. قال في مقدمته : « فهذا مولف تمس إليه أعظم الحاجة في معرفة الكنى، أ . ه .
- ١٣١- المنتخب من تاريخ ابن النجار<sup>(٤)</sup> :
- ذكره سبط بن حجر في «رونق الألفاظ»<sup>(٥)</sup> ولم يصل إلينا .
- ١٣٢- منتقى الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر<sup>(٦)</sup> :
- ذكره الذهبي في «تاريخ الإسلام»<sup>(٧)</sup> ولم يصل إلينا .
- ١٣٣- المنتقى من تاريخ أبي الفدا<sup>(٨)</sup> :
- ذكره في «الإعلان»<sup>(٩)</sup> ولم يصل إلينا .
- ١٣٤- المنتقى من تاريخ خوارزم لابن أرسلان الخوارزمي<sup>(١٠)</sup> :
- ذكره تقي الدين الفاس في «العقد الثمين»<sup>(١١)</sup> ولم يصل إلينا .

- 
- (١) ج٢، ص ١٥٤، ط، استانبول ١٩٥٥م وذكره حاجي خليفة في كشف الظنون ج٢ ص ١٥١ .
- (٢) ج٢، ص ١٦٤، ط، الهاشمية - بدمشق .
- (٣) المقتنى في سرد الكنى طبع بتحقيق محمد بن صالح عبدالعزيز المراد طبع السعودية - الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة - المجلس العلمي لإحياء التراث الإسلامي سنة ١٤٠٨هـ
- (٤) محب الدين أبو عبدالله محمد بن محمود المعروف بابن النجار ت ٦٤٢هـ .
- (٥) الورقة ١٨١ .
- (٦) سبق التعريف به .
- (٧) ج٢، ص ٢٥٤، ط، مؤسسة الرسالة - بيروت ١٤٠٨هـ .
- (٨) الملك المؤيد اسماعيل بن علي الأيوبي صاحب حماة ت ٧٣٢/ ت .
- (٩) ص ٦٧٤، ط، بغداد ١٩٦٣م .
- (١٠) ت ٥٦٨هـ .
- (١١) ج١، ص ٢٩٢، ط، دار الكتب العلمية - بيروت .

- ١٣٥- المنتقى من مسند أبي عوانة<sup>(١)</sup> :
- ذكره ابن حجر في «المجمع المؤسس»<sup>(٢)</sup> ولم يصل إلينا .
- ١٣٦- المنتقى من مسند عبد بن حميد<sup>(٣)</sup> :
- ذكره في المجمع المؤسس<sup>(٤)</sup> . ولم يصل إلينا .
- ١٣٧- المنتقى من معجم يوسف بن خليل الدمشقي<sup>(٥)</sup> :
- ذكره ابن حجر في «المجمع المؤسس» ولم يصل إلينا .
- ١٣٨- المتقى من معجم الطبراني الأوسط والكبير ومن مسند المقلين لدعلج<sup>(٦)</sup> : محفوظ بدار الكتب الظاهرية<sup>(٧)</sup> .
- ١٣٩- المنتقى في معرفة الصحابة لابن مندة :
- ذكره ابن حجر في «المجمع المؤسس»<sup>(٨)</sup> ولم يصل إلينا .
- ١٤٠- المنتقى من منهاج الاعتدال في نقض كلام أهل الرفض والاعتزال :
- انتقاه الذهبي في كتاب رفيقه أبي العباس أحمد بن تيمية<sup>(٩)</sup> ، ذكره ابن العماد الحنبلي في «شذرات الذهب»<sup>(١٠)</sup> والكتاب مطبوع<sup>(١١)</sup> .

- 
- (١) أبو عوانة يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم اليشايوري الشافعي ت ٣١٦هـ .
- (٢) ورقة ٧٥ . نقلاً عن بشار عواد في «الذهبي ومنهجه» ص ٢٥٦ .
- (٣) أبو محمد عبد بن حميد الكندي ت ٢٤٩هـ .
- (٤) ورقة ٤٩ . نقلاً عن بشار عواد ص ٢٥٧ .
- (٥) شمس الدين يوسف بن خليل بن قراجا بنعبدالله الدمشقي ت ٦٤٨هـ . انظر السير ج ٢٣ ص ١٥١ .
- (٦) دعلج بن أحمد بن دعلج المتوفي سنة ٢٥١هـ .
- (٧) ضمن مجموع (برقم ٧١) .
- (٨) الورقة ٨٨٦ . نقلاً عن بشار عواد في «الذهبي ومنهجه» ص ٢٥٩ .
- (٩) ت ٧٢٨هـ .
- (١٠) ج ٦ ، ص ١٥٦ ، ط ، دار الكتب العلمية - بيروت .
- (١١) ج ١ ، المطبعة السلفية بمصر ١٣٧٤هـ بتحقيق محب الدين الخطيب .

- ١٤١- مهذب السنن الكبرى للبيهقي :
- ذكره صلاح الدين الصفدي في « الوافي بالوفيات »<sup>(١)</sup> ولاكتاب مطبوع<sup>(٢)</sup> .
- ١٤٢- نبذة من فوائد تاريخ ابن الجزري<sup>(٣)</sup> :  
محفوظ بمكتبة كوبرلي<sup>(٤)</sup> .
- ١٤٣- النبلاء في شيوخ السنة :  
ذكره ابن العماد الحنبلي في «شذرات الذهب»<sup>(٥)</sup> . ولم يصل إلينا .

### الحادي عشر : التخاريج :

#### ١ - معجمات الشيوخ :

- ١٤٤- معجم شيوخ ابن الباسي<sup>(٦)</sup> :  
ذكره في الدرر الكامنة<sup>(٧)</sup> . ولم يصل إلينا .
- ١٤٥- معجم شيوخ ابن حبيب<sup>(٨)</sup> :  
ذكره سبط ابن حجر في «رونق الألفاظ»<sup>(٩)</sup> .

- 
- (١) ج٢ ، ص ١٦٤ ، ط ، الهاشمية - بدمشق .
- (٢) بعنوان « المهذب في اختصار السنن الكبير تحقق حامد إبراهيم أحمد ومحمد حسين العقبي ، ط ، القاهرة دون تاريخ .
- (٣) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن أبي بكر الجزري ت ٧٣٩هـ . انظر الدرر الكامنة ج٢ ص ٣٢٨ .
- (٤) رقم (١١٤٧) .
- (٥) ج٦ ، ص ١٥٥ ، ط ، دار الكتب العلمية - بيروت .
- (٦) عماد الدين أبو المعالي محمد بن علي بن محمد الباسلي ت ٧١١هـ .
- (٧) ج٤ ، ص ٢٠١ ، ط ، حيدر آباد . ١٩٥٠م .
- (٨) عمر بن حسن حبيب ، أبو حفص الدمشقي ت ٧٢٦هـ .
- (٩) الورقة ١٨١ . نقل عن بشار عواد في «الذهبي ومنهجه» ص ٢٦٥ .

١٤٦- معجم شيوخ علاء الدين بن العطار<sup>(١)</sup>:

ذكره بن حجر في «الدرر الكامنة»<sup>(٢)</sup> ولم يصل إلينا .

١٤٧- المعجم العلي للقاضي الحنبلي<sup>(٣)</sup>:

ذكره ابن حجر في «المجمع المؤسس»<sup>(٤)</sup> ولم يصل إلينا .

ب - المشيخات :

١٤٨- مشيخة الثني :

ذكرها الذهبي في معجم شيوخه<sup>(٥)</sup> ، ولم يصل إلينا .

١٤٩- مشيخة الجعبري<sup>(٦)</sup> :

ذكرها الذهبي في معجم شيوخه<sup>(٧)</sup> ، ولم يصل إلينا .

١٥٠- مشيخة ابن الزراد الحريري<sup>(٨)</sup>:

ذكرها الذهبي في معجم شيوخه<sup>(٩)</sup> .

---

(١) علاء الدين أبو الحسن علي بن إبراهيم بن داود بن سلمان الدمشقي ت ٧٢٤هـ انظر الدرر الكامنة ج ٣ ص ٧٣ .

(٢) ج ٣، ص ٧٣، ط، حيدر آباد ١٩٥٠م.

(٣) أبو الفضل سليمان بن حمزة المقدس الحنبلي ت ٧١٥هـ

(٤) الورقة ١٣٦ . نقلاً عن بشار عواد في «الذهبي ومنهجه» ص ٢٦٦.

(٥) ص ٤٥٧، ط، دار الكتب العلمية - بيروت .

(٦) صالح بن تامر بن حامد تاج الدين أبو محمد الجعبري ت ٧٠٦هـ .

(٧) ص ٢٤٢، ط، دار الكتب العلمية - بيروت.

(٨) شمس الدين محمد بن أحمد بن أبي الهجاء الزراد الحريري ت ٧٢٦هـ .

(٩) ص ٤٨٠، ط، دار الكتب العلمية - بيروت .

١٥١- مشيخة عز الدين المقدسي<sup>(١)</sup> :

ذكرها الذهبي في معجمه<sup>(٢)</sup> ولم يصل إلينا .

١٥٢- مشيخة ابن القواس<sup>(٣)</sup> :

ذكرها الذهبي في معجمه<sup>(٤)</sup> ولم يصل إلينا .

١٥٣- مشيخة الكمال<sup>(٥)</sup> :

ذكرها ابن حجر في « الدرر الكامنة »<sup>(٦)</sup> .

### ج - الأربعينات :

١٥٤- أربعون حديثاً بلدانية من معجم ابن جميع الصيداوي<sup>(٧)</sup> :

ذكرها الذهبي في مقدمته للأربعين البلدانية التي خرجها من المعجم الصغير

للطبراني<sup>(٨)</sup> .

١٥٥- أربعون حديثاً بلدانية من معجم شيوخه أبي بكر المقدسي<sup>(٩)</sup> :

ذكرها الذهبي في الأربعين البلدانية التي خرجها من معجم الطبراني<sup>(١٠)</sup> .

---

(١) عز الدين أبو العباس أحمد بن العماد عبد الحميد بن عبد الهادي المقدس الصالحي ت ٦٧٠هـ .

انظر شذرات الذهب ج٥ ص ٣٥٥ ، والوافي بالوفيات ج١ ص ٣٣ .

(٢) ص ٤٢ ، ط ، دار الكتب العلمية - بيروت .

(٣) هوناصر الدين أبو القاسم عمر بن عبد المنعم بن عمر الطائر الدمشقي ت ٦٩٨هـ . انظر

شذرات الذهب ج٥ ص ٤٤٢ - والوافي بالوفيات ج١ ص ٢٢ ص ٥٢٠ .

(٤) ص ٤٠٢ ، ط ، دار الكتب العلمية - بيروت .

(٥) زين الدين أبو القاسم أيوب بن نعمة بن محمد النابلسي المعروف بالكمال ت ٧٣٠هـ .

(٦) ج ١ ، ص ٤٦٤ ؛ ط ، حيدر آباد ١٩٥٠م .

(٧) أبو الحسن محمد بن أحمد الفسائي الصيداوي ت ٤٠٢هـ . انظر سير أعلام النبلاء ج١٧

ص ١٥٤ .

(٨) الورقة الأولى « نسخة التيمورية ٤٢٨ حديث » .

(٩) أبو بكر بن أحمد عبدالدائم النابلسي المقدسات ٧١٨هـ .

(١٠) الورقة الأولى (نسخة التيمورية ٤٢٨ حديث) .

١٥٦- أبعون حديثاً بلدانية من معجم شيوخ ابن المقرئ<sup>(١)</sup> :  
ذكرها الذهبي تذكرة الحفاظ<sup>(٢)</sup> .

١٥٧- أريعون حديثاً للأبرقوهي<sup>(٣)</sup> :  
ذكرها ابن حجر في «رونق الألفاظ»<sup>(٤)</sup> .

١٥٨- أريعون حديثاً لابنه عبدالرحمن :  
ذكرها ابن حجر في «الدرر الكامنة»<sup>(٥)</sup> .

#### د - الأحاديث العوالي :

١٥٩- عوالي الشمس ابن الواسطي<sup>(٦)</sup> :  
ذكرها الذهبي في معجم شيوخه<sup>(٧)</sup> .  
١٦٠- عوالي الطاووس<sup>(٨)</sup> :

ذكرها الذهبي في معجم شيوخه<sup>(٩)</sup> .

- 
- (١) أبو بكر محمد بن ابراهيم بن زاذان المعروف بابن المقرئ ت ٢٨١هـ .  
انظر المشتبه ص ٢٢٨ - تبصير المنتبه ج ٢ ص ٦٤٥ .
  - (٢) ج ٣ ، ص ٩٧٥ ، ط ، دارالكتب العلمية - بيروت .
  - (٣) أبو المعالي أحمد بن اسحاق بن محمد المؤيد الأبرقوهي ت ٧٠١هـ .  
انظر شذرات الذهب ج ٤ ص ٤ - الدرر الكامنة ج ١ ص ١٠٢ - الوافي بالوفيات ج ٤ ص ٢٤٢ .
  - (٤) الورقة ١٨١ ، نقلاً عن بشار عواد في «الذهبي ومنهجه» ص ٢٧٠ .
  - (٥) ج ٢ ، ص ٤٤٩ ، ط ، حيدر آباد ١٩٥٠م .
  - (٦) محمد بن علي بن أحمد بن الواسطي الصالحي الحنبلي ت ٦٩٩ هـ . انظر الوافي بالوفيات ج ٤ ص ١٩٣ .
  - (٧) ص ٥٣١ ، ط ، دارالكتب العلمية - بيروت .
  - (٨) أحمد بن عبد المنعم بن أبي الغنائم بن أحمد بن محمد الطاووس ت ٧٠٤ هـ . انظر شذرات الذهب ج ٤ ص ١٠ - طبقات الحفاظ ص ٩٥ .
  - (٩) ص ٥٥ ، ط ، دارالكتب العلمية - بيروت .



١٦١- عوالي أبي عبدالله ابن اليونيني<sup>(١)</sup> :

ذكرها الذهبي في معجم شيوخه<sup>(٢)</sup> .

١٦٢- العوالي من حديث مالك :

ذكرها الذهبي في تاريخ الإسلام<sup>(٣)</sup> .

١٦٣- العوالي المنتقاء من حديث الذهبي :

محفوظ بدار الكتب الظاهرية<sup>(٤)</sup> .

#### هـ - الأجزاء :

١٦٤- الجزء الملقب بالدينار من حديث المشايخ الكبار :

محفوظ بدار الكتب المصرية<sup>(٥)</sup> .

١٦٥- جزء للقزويني<sup>(٦)</sup> :

ذكره ابن حجر في «الدرر الكامنة»<sup>(٧)</sup> .

١٦٦- جزء لأبي بكر المرسى<sup>(٨)</sup> :

ذكره ابن حجر في «الدرر الكامنة»<sup>(٩)</sup> .

---

(١) محيي الدين أبو عبدالله عبدالقادر بن علي محمد اليونيني ت ٧٤٧هـ .

(٢) ص ٣٢٢، ط، دار الكتب العلمية - بيروت .

(٣) الورقة ٨ (أبا صوفيا ٣٠٠٦) نقلاً عن د. بشار عواد «الذهبي ومنهجه» في كتابه تاريخ الإسلام ص ٢٧٢، ط، عيسى البابي الحلبي .

(٤) برقم (٤٥١٢) .

(٥) رقم (١٥٠٨) حديث .

(٦) ركن الدين أبو العباس ابن عبدالمنعم بن أحمد القزويني ت ٧٠٤هـ .

(٧) ج ١، ص ٢٠٦، ط، حيدر آباد ١٩٥٠م .

(٨) مجد الدين أبو بكر بن محمد بن قاسم المرسى التونسي ت ٧١٨هـ .

(٩) ج ١، ص ٤٩٣، ط، حيدر آباد ١٩٥٠م .

- ١٦٧- جزء لابن المحب المقدسي <sup>(١)</sup> :
- ذكره ابن حجر في «الدرر الكامنة» <sup>(٢)</sup> .
- ١٦٨- جزء لابن الكويك <sup>(٣)</sup> :
- ذكره الذهبي في معجم شيوخه <sup>(٤)</sup> .
- ١٦٩- جزء لأمين الدين الواني <sup>(٥)</sup> :
- ذكره الذهبي ابن حجر في «الدرر الكامنة» <sup>(٦)</sup> .
- ١٧٠- جزء علي بن جماعة الكناني <sup>(٧)</sup> :
- ذكره الذهبي في معجم شيوخه <sup>(٨)</sup> .
- ١٧١- أحاديث مختصر ابن الحاجب <sup>(٩)</sup> :
- ذكره الصفدي في «الوفيات» <sup>(١٠)</sup> .
- ١٧٢- ثلاثيات ابن ماجة :
- محفوظ بدار الكتب الظاهرية <sup>(١١)</sup>
- وهكذا يمكن القول بأن الذهبي كان رجلاً غزير التأليف متعدد الاتجاهات في تأليفه، ولم تتحقق له المكانة العلمية الرفيعة بكثرة مؤلفاته فحسب، بل وضبطه وتحقيقه وحسن استنباطه وجودة انتقائه وصفاء تفكيره وسهولة مأخذه .

- 
- (١) أبو العباس أحمد بن عبدالله بن أحمد المقدسي المعروف بابن المحب . ٧٣٠هـ .
- (٢) ج ١ ، ص ١٩١ ، ط ، حيدر آباد ١٩٥٠م .
- (٣) سراج الدين أبو الفرج عبداللطيف بن أحمد بن محمود التكريني المعروف بابن الكويك ت ٧٣٤هـ .
- (٤) ص ٣٢٩ ، ط ، دار الكتب العلمية - بيروت .
- (٥) أمين الدين أبو عبدالله محمد بن ابراهيم بن محمد الواني ت ٧٣٥هـ .
- (٦) ج ٢ ، ص ٢٨٠ ، ط ، حيدرآباد ١٩٥٠م .
- (٧) عز الدين أبو عمر عبدالعزیز بن محمد بن ابراهيم بن جماعة الكناني ت ٧٦٧هـ ، انظر طبقات الحفاظ ص ٥٣١ - معجم المؤلفين ج ٥ ص ٢٥٧ .
- (٨) ص ٣١٩ ، ط ، دار الكتب العلمية - بيروت .
- (٩) ابو عمرو عثمان بن عمر جمال الدين ابن الحاجب ت ٦٤٦هـ . انظر بغية الوعاة للسيوطي طبعة عيسى البابلي الحلبي بمصر . الطبعة الأولى .
- (١٠) ج ١ ، ص ١٦٤ ، ط ، الهاشمية - بدمشق .
- (١١) برقم (٥٩ مجموع) .

# الفصل الرابع

وفيه مبحثان

- المبحث الأول : جهود الإمام في الوعظ .
- المبحث الثاني : جهود الإمام في الاحتساب .

## تمهيد :

### تعريف الوعظ :

جاء في لسان العرب «الموعظة في اللغة» : التذكير والنصح، فهي تذكير الإنسان بما يلين قلبه من ثواب أو عقاب<sup>(١)</sup> .

وقال « الفيروز أبادي » في القاموس المحيط : « وعظه وعظا وعظة وموعظة أي ذكره بما يلين قلبه من الثواب والعقاب فاتعظ »<sup>(٢)</sup> .

« واتعظ أي قَبِل الموعظة »<sup>(٣)</sup>، والموعظة ما يوعظ به من قول أو فعل، والجمع مواعظ، والواعظ من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، والجمع وعاظ<sup>(٤)</sup>، وجاء في معجم ألفاظ القرآن الكريم: «الموعظة ما يرقق القلب ويميله نحو الطاعة من قول أو فعل»<sup>(٥)</sup> .

[وفي الصحاح<sup>(٦)</sup>: الوعظ النصح والتذكير بالعواقب والاتعاظ قبول الموعظة يقال: «السيعد من وعظ بغيره والشقي من به اتعظ» قال الزبيدي : والجملة الأولى منه حديث وتمامه، «والشقي من شقى في بطن أمه»<sup>(٧)</sup> والهاء في العظة عوض عن الواو المحنوفة .  
وقال ابن فارس<sup>(٨)</sup> الوعظ هو التخويف والانذار .

- (١) ابن منظور : ج٧ ص ٤٤٦ ، ط بولاق ١٣٠٨هـ .
- (٢) ج٤ ص ٦٣١ ، ط دار الكتب المصرية .
- (٣) الإمام محمد بن أبي بكر عبدالقادر الرازي، مختار الصحاح ص ٢٧٩ ط دار التنوير العربي بيروت، لبنان .
- (٤) مراجعة عبدالوهاب السيد عوض الله ومحمد عبدالعزيز القلماوي : المعجم الوسيط ج٢ ص ١٠٨٦ ط الجامعة الإسلامية .
- (٥) ج٢ ص ٦٦٧ نشر مجمع اللغة العربية . ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ م .
- (٦) اسماعيل بن حمد الجوهري. الصحاح . تاج اللغة وصحاح العربية ١١٨١/٣ . تحقيق أحمد عبدالغفور عطار . ط دار العلم . بيروت ط ثانية ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .
- (٧) القفامي . مسند الشهاب (٧٩/١) رقم (٧٣) ، ٥٢ رباب : « السعيد من وعظ بغيره، والشقي من شقى في بطن أمه » رقم (٧٦) ، ابن أبي عمير في السنة (٧٩/١) رقم (١٧٨) ، عن عبدالله بن مسعود وإسناده كلهم ثقات .
- (٨) أبو الحسن أحمد بن فارس . مجمل اللغة ٥٣٩/٤ . حققه الشيخ هادي حسن حمودي . طبع المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم . الصفاة الكويت طبعة أولى ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

وقال الخليل<sup>(١)</sup> : هو التذكير في الخبر بما يرقق القلب . وهاء الموعظة ليست للتأنيث لأنه غير حقيق، ومنه قوله تعالى : ﴿فمن جاءه موعظة من ربه﴾<sup>(٢)</sup> . والعظات : جمع عظة ، والواعظ الناجح ، وقد اشتهر به جماعة من المحدثين، والجمع وعاظ ، والوعاظ كشراء الواعظ<sup>(٣)</sup> .

ومادة وعظ وردت في أكثر من موضع في القرآن الكريم مثل : «يعظكم لعلمكم تذكرون»<sup>(٤)</sup> ، ﴿قل إنما أعظكم﴾<sup>(٥)</sup> ، ﴿ذلكم توعظون﴾<sup>(٦)</sup> ، ﴿قد جاءتكم موعظة من ربكم﴾<sup>(٧)</sup> ، ﴿وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى﴾<sup>(٨)</sup> ، ﴿وهدى وموعظة للمتقين﴾<sup>(٩)</sup> ، ﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً﴾<sup>(١٠)</sup> ، ﴿فأعرض عنهم وعظهم﴾<sup>(١١)</sup> .

- 
- (١) الخليل بن أحمد الفراهيدي . كتاب : العين ٢/٢٢٨ .
  - باب : العين والظاء . طبع دار الرشيد . الجمهورية العراقية . وزارة الثقافة والإعلام . نشر مكتبة نزار مصطفى الباز . مكة - الرياض . المفردات للراغب الأصفهاني (١٨٢/٢) .
  - (٢) سورة البقرة الآية «٢٧٥» .
  - (٣) السيد مرتضى الزبيدي . تاج العروس (٣٦٦/٥) فصل الواو من باء الظاء . طبع دار ليبيا للنشر والتوزيع (بنغازي - ليبيا) .
  - (٤) سورة النحل الآية «٩٠» .
  - (٥) سورة سبأ الآية «٤٦» .
  - (٦) سورة المجادلة الآية «٣» .
  - (٧) سورة يونس الآية «٥٧» .
  - (٨) سورة هود الآية «١٢٠» .
  - (٩) سورة آل عمران الآية «١٣٨» .
  - (١٠) سورة الأعراف الآية «١٤٥» .
  - (١١) سورة النساء الآية «٦٣» .

# المبحث الأول

جهود الإمام الذهبي في الوعظ

## تمهيد :

### تعريف الوعظ :

جاء في لسان العرب «الموعظة في اللغة» : التذكير والنصح، فهي تذكير الإنسان بما يلين قلبه من ثواب أو عقاب<sup>(١)</sup> .

وقال « الفيروز أبادي » في القاموس المحيط : « وعظه وعظا وعظة وموعظة أي ذكره بما يلين قلبه من الثواب والعقاب فاتعظ »<sup>(٢)</sup> .

« واتعظ أي قَبِل الموعظة »<sup>(٣)</sup>، والموعظة ما يوعظ به من قول أو فعل، والجمع مواعظ، والواعظ من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، والجمع وعاظ<sup>(٤)</sup>، وجاء في معجم ألفاظ القرآن الكريم: «الموعظة ما يرقق القلب ويميله نحو الطاعة من قول أو فعل»<sup>(٥)</sup> .

### الموعظة في الاصطلاح :

قال الألويسي في تفسيره : « الموعظة مجموعة من العبر النافعة والخطابات المقنعة والإرشادات المخوفة، على وجه لا يخفى على المدعوين أن الداعي يناصحهم بها ويقصد ما ينفعهم. وهي في كل أشكالها أمارات ظنية ودلائل إقناعية بخلاف الحكمة فإنها محكمة قطعية في مقدماتها ونتائجها»<sup>(٦)</sup> .

(١) ابن منظور : ج٧ ص ٤٤٦، مادة «وعظ» ، ط بولاق ١٣٠٨هـ .

(٢) ج٤ ص ٦٣١، ط دار الكتب المصرية .

(٣) الإمام محمد بن أبي بكر عبدالقادر الرازي، مختار الصحاح ص ٢٧٩ ط دار التنوير العربي بيروت، لبنان .

(٤) مراجعة عبدالوهاب السيد عوض الله ومحمد عبدالعزيز القلماوي : المعجم الوسيط ج٢ ص ١٠٨٦ ط الجامعة الإسلامية .

(٥) ج٢ ص ٦٦٧ نشر مجمع اللغة العربية . ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣م .

(٦) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ج٤ ص ٢٥٤ ط القاهرة .

والموعظة توجيهات تفيد القرب النفسي بين الداعي والمدعو بما تشمله من إثارة الإنفعال وإيقاظ الشعور فالداعي يقصد النصيح للمدعو ويخاف عليه<sup>(١)</sup>.

والذي لا شك فيه أن عمل الواعظ الذي يقوم به هو علم يؤدي ورسالة تبلغ لأن هذا [العلم يعرف به ما هو سبب الانزجار عن المنهيات، والانزعاج إلى المأمورات ، من الأمور الخطائية المناسبة لطبائع عامة الناس .

ومن مبادئه : حكايات الأمم المرضية الأعمال، والمشكورة الأخلاق ، من الصلحاء والعباد، والمشايخ والزهاد، والعلماء العاملين بعلومهم رضوان الله عليهم، وكذا حكايات الأشرار والمبتلين بسوء أعمالهم وأخلاقهم، إذ الأخيار يتأدبون بصنيع الأشرار .  
والغرض من هذا كله : الحث على تكميل النفوس بالعلم والعمل.  
ونهايته : الفوز بالسعادتين الدينية والدنيوية.]<sup>(٢)</sup> .

### معرفة تفسير القرآن الكريم :

وذلك لأنه أعظم ما يوعظ به الناس، فليس أقدر من آياته البينات على تليين القلوب وتنبيه النفوس الغافلة وإيقاظها من رقدتها .

والواعظ يستعين بهذا العلم لأهميته فلا بد أن يكون على بينة من أنه [ علم باحث عن معنى نظم القرآن بحسب الطاقة البشرية، وبحسب ما تقتضيه القواعد العربية .  
ومبادئه : العلوم العربية ، وأصول الكلام، وأصول الفقه، والجدل، وغير ذلك من العلوم الجمة.

والغرض منه : معرفة معاني النظم .

وفائدته : حصول القدرة على استنباط الأحكام الشرعية على وجه الصحة .

وموضوعه ومنفعته : ظاهران من تعريفه ]<sup>(٣)</sup> .

(١) د/ أحمد غلوش: الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها ص ٢٧٩. الناشر: دار المكتاب المصري والليبناني ط ١٩٧٩ م .

(٢) أحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبرى زاده. مفتاح السعادة ومصباح السيادة (٥٩٥/٢) مراجعة وتحقيق كامل بكرى، وعبدالوهاب أبوالنور طه . دار الكتب الحديثة . القاهرة .

(٣) المرجع السابق (٦٢/٢) .



## ذكر الأمثلة :

وذلك متحقق في قوله ( الإكثار من حكايات الصالحين) لأن في هذه الحكايات مثلاً يحتذى به، فالنفس السوية تميل بفطرتها إلى الإقتداء بالصالحين وتقليدهم في حميد أفعالهم خاصة وأن هذه الحكايات تحتوي غالباً على مواقف من شأنها تحريك الشعور وإلهاب العواطف النبيلة .

والواعظ الممتاز لا بد أن يدرك أهمية الأمثال وأنها فروع علم اللغة، وهو معرفة الألفاظ الصادرة عن البليغ المشتهرة بين الأقسام، بخصوص ألفاظها، وهيئاتها وموردها، وسبب ورودها، وقائلها، وزمانها، ومكانها، لتلايقع الغلط عند استعمالها في مضاربيها، وهي المواضع والمقامات المشبهة بمواردها، ولا بد لمعاني تلك الألفاظ من غرابة .

والموعظة توقظ الإنسان من غفوته وتنبيهه إلى عاقبته فكثيراً ما ينسى ما فيه خيره ويتلهي عن مصيره ويوغل في الغفلة والنسيان حتى إذا نبه لا يكاد ينتبه وتحت وطأة هذه الغفلة يأتي ما يأتي من أخطاء ويرتكب ما يرتكب من معاصي « فالموعظة لون من ألوان القول يخترق أستار الغفلة ويدخل على القلب بغير استئذان فيوقظه من غفلته ويصحح له فكرته ويزيل عنه ما علق به من الوهم ويضعه وجهاً لوجه أمام العواقب فيلين لذلك القلب ويرق وتنبعث فيه الرغبة إلى العمل الصالح وكما قال صاحب تفسير المنار: الموعظة هي النصح والتذكير بالخير والحق على الوجه الذي يرق له القلب وتنبعث فيه الرغبة إلى العمل الصالح»<sup>(١)</sup> .

والموعظة هي سبيل تليين القلوب والتأثير في النفوس وكبح جماح النفوس المتمردة، كما أنها تزيد النفوس المهذبة إيماناً وهداية لأنها تعتمد على جناحي الترهيب في الزجر والتخويف والترغيب في الاستمالة<sup>(٢)</sup> .

(١) محمد رشيد رضا: تفسير المنار ج٢: ص٤٠٤ الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة ط١٩٧٢م.

(٢) علي محفوظ : هداية المرشدين ص٧١. دار الاعتصام، القاهرة.

أما شيخنا الإمام الذهبي فيرى الوعظ فنا يحتاج القائمون به إلى مشاركة جيدة في العلم ومعرفة حسنة بالتفسير والإكثار من حكايات الصالحين وحدة التقوى والزهد، يقول: «الوعظ فن بذاته يحتاج إلى مشاركة جيدة في العلم ويتسدى معرفة حسنة بالتفسير والإكثار من حكايات الصالحين الفقهاء والقراء والزهاد، وعدته التقوى والزهادة، فإذا رأيت الواعظ راغباً في الدنيا قليل الدين فاعلم أن وعظه لا يتجاوز الأسماع، وكم من واعظ مفوه قد أبكى أثر في الحاضرين في تلك الساعة ثم قاموا كما قعدوا، ومتى كان الواعظ مثل الحسن والشيخ عبدالقادر انتفع به الناس»<sup>(١)</sup>.

**ولعل الذهبي في تعريفه هذا قد أوضح صفات الواعظ الناجح وهي :**

- ١ - العلم والمشاركة في الحياة العلمية : وهذا يعني أن الواعظ يجب ألا يتحدث بلا مستند علمي ومراجع صحيحة وثابتة، بل يكون كل ما يقوله مستنداً على أدلة صحيحة مبتعداً عن كل ما هو باطل ولألفاظها من فصاحة وبلاغة . والواعظ العالم يعرف غرض ومنفعة الأمثال إذ أن الأمثال أشد ما يحتاج إليه المشي والشاعر، لأنها تكسو الكلام حلة التزيين، وترقيه أعلى درجات التحسين<sup>(٢)</sup>.
- ٢ - معرفة تفسير القرآن الكريم : وذلك لأنه أعظم ما يوعظ به الناس، فليس أقدر من آياته البينات على تليين القلوب وتنبية النفوس الغافلة وإيقاظها من رقدتها .
- ٣ - ذكر الأمثلة : وذلك نستفيدة من قوله « الإكثار من حكايات الصالحين » لأن في هذه الحكايات مثلاً يحتذى به، فالنفس السوية تميل بفطرتها إلى الاقتداء بالصالحين وتقليدهم في حميد أفعالهم خاصة وأن هذه الحكايات تحتوي غالباً على مواقف من شأنها تحريك الشعور وإلهاب العواطف النبيلة .

---

(١) بيان زغل العلم والطلب ص ٢٩/٢٠ مطبعة التوفيق بدمشق ط ١٣٤٧هـ .

(٢) المرجع السابق، ١/٢٧٠ .

٤ - القدوة ورمز لها بالتقوى : فكلما كان الواعظ تقياً يراعى حدود الله فيما أمر وفيما نهى كان الناس أكثر إقبالاً على مجالس وعظه وأكثر اقتناعاً بأقواله ونصائحه. وألهم من الله التوفيق والسداد في قوله، وقعت موعظة وقوع البلسم على الجرح فيشفى بإرادة الله تعالى .

٥ - الزهد : فالزاهد إذا أجمع له مع زهده العلم والتقوى كان أقدر الناس على الوعظ وربما اتعظ الناس بمجرد النظر إلى حاله وهو العالم التقي الزاهد فإذا ما تكلم وهو على هذه الحال من العلم والتقوى والزهد سارع الناس إلى تلقف أقواله التي تتخطى الأذان إلى القلوب، ثم فسر قوله بمثال يوعظ به الواعظون ليقتدوا بمن كان قبلهم من وعاظ أنتفع بهم الناس مثل الحسن البصري والشيخ عبد القادر .

### أما المقصود بجهود الإمام الذهبي في الوعظ :

يقصد بجهود الإمام الذهبي في الوعظ أقواله ومواعظه التي من شأنها التذكير بما يلين القلب ويرققه ويميله نحو الطاعة .  
وقد رأينا أن الإمام الذهبي عمل في بداية حياته العملية خطيباً بمسجد كفر بطنا من سنة ثلاث وسبعمائة<sup>(١)</sup> إلى سنة ثمانى عشر وسبعمائة<sup>(٢)</sup> ولا شك أنه في تلك الفترة قد بذل الكثير من الجهود في الوعظ، فالخطابة تعتبر من أقوى وسائل الوعظ ذات التأثير والإقناع<sup>(٣)</sup>، لما تمتاز به من صفاء في ألفاظها وسهولة في عباراتها ومتانة في أسلوبها وسرد للحكم والشواهد العلمية<sup>(٤)</sup> .

ومما يؤسف له أنه لم يصل إلي شيء من خطب الذهبي، ولو وصل إلي شيء من هذه

(١) ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٢٦ الرياض ط ١٤١٣هـ .

(٢) المرجع السابق جـ ١٤ ص ٩٦ .

(٣) د/ عبداللطيف حمزة: الأعلام في الإسلام ص ١٧٥ طبعة دار الفكر . القاهرة .

(٤) د/ مصطفى بيومي : الخطابة في الإسلام ص ٢٨ طبعة المطبعة المحمدية . مصر .

الخطب لاستطعت أن أن أقف بشكل أكثر وضوحاً على جهود الإمام الذهبي في الوعظ  
«والغالب أن خطب هذا العصر أو أكثرها قد ضاع وذلك لعدم العناية بجمعها وتدوينها في  
عصرها أو أن البعض منها لا يزال مخطوطاً منسياً في خزائن الكتب لم يجد بعد اليد التي  
تبعثه من مرقدته وتخرجه لينتفع الناس به»<sup>(١)</sup>.

وهذا لا يعني تعذر الكتابة عنه لأنه عالم مشهور وكتبه ذائقة الصيت وفوائدها جمة.  
لذا فسوف نقتصر في الحديث عن جهود الإمام الذهبي في الوعظ على ما يرد في كتبه من  
مواعظ<sup>(٢)</sup>.

---

(١) د/ محمود رزق سليم : عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي ج٦ : ص ٦٩ دار الحمامي  
- القاهرة .

(٢) والحق أن الإمام الذهبي لم يَحُلْ كتابٌ من كتبه من بصمة تدل على زهده وورعه وحرصه على  
تبليغ دعوة ربه فقد كان يحمل نفساً قوية وروحاً يقظة وعاطفة دينية جياشة تدفعه دفعا إلى  
تقديم النصيحة لله ولرسوله وكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم.

## خصائص أسلوب الذهبي في كتابة المواعظ

### مصادر كتابة الوعظ عند الإمام الذهبي :

على الرغم من كون الإمام الذهبي محدثاً ومؤرخاً تدور أغلب مؤلفاته حول الحديث الشريف وعلومه وما يتفرع عنها ، وحول التاريخ والسير والتراجم ومعرفة الرجال إلا أن بعضاً من مؤلفاته جاءت مشتملة على جهد واضح في الوعظ ومن هذه المؤلفات :

١ - الكبائر .

٢ - بيان زغل العلم والطلب .

٣ - حقوق الجار .

٤ - ست رسائل للذهبي - قسم (مسائل في طلب العلم) .

وهذه الكتب التي تخصصت في فن الوعظ - كما أطلق عليه الذهبي - توضح لنا معالم الوعظ عند الإمام الذهبي ووسائل الإيصال للموعظة بالأساليب البلاغية والحجج والبراهين النقلية من الكتاب والسنة النبوية .

وتتفاوت جهود الذهب في الوعظ تفاوتاً واضحاً بين هذه الكتب كما وكيفاً . وسر التفاوت هو قدرة الذهب على مخاطبة كافة المستويات العقلية وإقناعها والحجج والبراهين . ويعتبر كتابه الكبائر أوضح هذه الكتب في إيراد المواعظ .

### كتاب الكبائر للإمام الذهبي :

بعد أن قطعت شوطاً لا بأس به مع كتاب الكبائر للإمام الذهبي فنقلت عنه الكثير وهو ذلك الكتاب المشهور والمعروف بين أيدي الناس، والذي طبع عدة مرات، وقدع في يدي كتاب بعنوان : [الكبائر وتبيين المحارم] تأليف الإمام الذهبي، حققه الأستاذ محي الدين مُستو، وقد بين في مقدمته أن هذا هو الكتاب الذي ألفه الذهبي وأن معظم ما جاء في الكتاب المتداول بين أيدي الناس مخول إليه .

وقد تحيرت كثيراً بين القبول والرد والرجوع عما كتبت، ولكن بعد سؤالي أحد

الأساتذة المتخصصين في علم الحديث بقسم السنة وعلومها عن إمكانية نسبة الكتاب الأول إلى الإمام الذهبي - رغم ما فيه من حكايات واهية وأقاصيص على عادة وعَاط ذلك الزمان - ذكر لي أنه لم يُجمع العلماء على نفي نسبة هذا الكتاب المذكور إلى الإمام - رحمه الله - وأنه هو كاتبه ومن تأليفه، وقد جرى في سرد حكاياته وأقاصيصه على عادة أهل عصره وزمانه لترقيق قلوب الناس وتخويفهم من النار وحثهم على الالتزام بأحكام الدين الحنيف، وأنه لا داعي للتشكيك في نسبة الكتاب إليه، فقد كتبه للعامة وأكثره مقبول، ويمكن الجمع بينهما على أن هذا مطوّل والمخطوطة مختصرة، وكلاهما للإمام الذهبي - رحمه الله -، فالكتاب متداول ومتلقًى بالقبول لدى الناس ولم نر من أنكر نسبته إليه، وما يزال العلماء والدعاة والوعاظ ينهلون منه ويعوّلون عليه في نُصح العامة ووعظهم وإن كان ما في الكتاب والسنة فيه غنية. إلا أنني أميل إلى ما ذكره محي الدين مُستوفى مقدمته لكتاب الكبائر حيث قال: «الكتاب طُبِع للمرة الأولى بالقاهرة عام ١٢٥٦هـ. بتحقيق الشيخ محمد الرازق حمزة المدرس بالمسجد الحرام معتمداً على ثلاث نسخٍ خطية من مخطوطات أهل نجد، وعلى نسخة مخطوطة مختصرة من الكبائر للإمام الذهبي أيضاً سماها المحقق «الكبائر الصغرى» حيث قال في المقدمة:

« وقد جرى الذهبي على ذلك - أي طريقة من سبقه ممن كتب في الترغيب والترهيب - فذكر في رسالته هذه من صحاح الأحاديث معزوة وغير معزوة، ومن ضعافها ضعفاً قد لا يُحتمل. كتبها للعامة وإن كانت لا تخلو عما يفيد للخاصة. ثم استدرك ذلك فكتب رسالةً أخرى أصغر حجماً مما أعتمد فيها على ما صحَّ وما قارب الصحة مع البيان وحذف منها أكثر ما في هذه الرسالة الكبرى من ضعافٍ وحكاياتٍ فجاءت على التلث من الكبرى»<sup>(١)</sup>.

(١) انظر كتاب الكبائر بتحقيق محي الدين مستوفى ص ٦-٧ طبعة دار ابن كثير بدمشق وبيروت - السابعة ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

ثم علق محي الدين مستو قائلًا :

« والاعتذار بأن الذهبي - رحمه الله تعالى - اختلف أسلوبه في هذا الكتاب عن كتبه العلمية الأخرى لأنه كتاب وعظي ويختص بإيراد أحاديث الرقاق والترغيب والترهيب، وقد أجاز جمهور العلماء رواية الأحاديث الضعيفة في الفضائل ونحوها، فقالوا : إذا روينا في الحلال والحرام والسنن والأحكام تشددنا في الأسانيد، وإذا روينا في فضائل الأعمال ومالا يضع حكماً ولا يرفعه تساهلنا في الأسانيد »<sup>(١)</sup>.

ويواصل تعليقه فيقول :

« إن هذا الاعتذار مقبول بشرط أن لا يشتد ضعف الحديث، فإذا اشتد ضعفه وكان موضوعاً أو واهياً أو انفرد به المتهمون ومن فحش غلطهم وكثرت أوهامهم، فلا يحل الاحتجاجُ به في أي أمر من أمور الدين، بل يحرم على من علم بشدة ضعف الحديث أن يرويهِ إلا مع بيان أسباب ضعفه »<sup>(٢)</sup>.

وفي كتاب الكبائر المطبوع ما يزيد على الأربعين حديثاً من هذا النوع وقد ذكرها المؤلف مصدرًا بصيغة الجزم إلى رسول الله - ﷺ - . علماً بأن الذهبي - رحمه الله تعالى - نص في بعض كتبه « كالتلخيص » و« ميزان الاعتدال » على وضعها وشنع على المحاكم وغيره روايتها<sup>(٣)</sup>.

وعفا الله عن الشيخ محمد عبدالرازق حمزة فقد قال في مقدمته : « وعذره فيما ساق في « الكبرى » من الحكايات والرقاق - وإن كانت لا تروق لدى خاص من الناس - عذر من سبقه في ذلك، أن تأثيرها عند العوام لا ينكر، بل لعلها أفيد عندهم من الصحاح التي لا تتأثر بها نفوسهم وليس لها من الروعة عندهم ما لهذه الرقائق وأشباهها من حكايات الصالحين ومنامات الزهاد والمتعبدين » أ . ه .

(١) انظر الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي من ٢١٢-٢١٣ نقلًا عن المرجع السابق من ١١ .

(٢) انظر قواعد التحديث للقاسمي من ١٦٠-١٦١ نقلًا عن المرجع السابق من ١١ .

(٣) انظر كتاب الكبائر بتحقيق محي الدين مستو من ١١-١٢ .

## ويعلق محقق الكتاب على ذلك فيقول :

« والأولى أن نصون وسائلنا الوعظية عما ليس له مستند من نقل أو عقل وأن نبتعد عن الخرافة والأوهام فإن الوسائل يجب أن تكون شريفة شرف الغاية.. وهذا لا يمنع أن نخاطب الناس على قدر عقولهم وأن نرتفع بمداركهم إلى فهم آيات الكتاب العزيز، والاستجابة لأحاديث النبي - ﷺ - الثابتة ، وذلك حتى يبقى تدينهم صافياً ينبع من مصادره الأولى بعيداً عن الابتداع والخرافة والزيغ<sup>(١)</sup> .

وقد لخص المحقق الفرق بين الكتابين في نقاط رأيت أن ذكرها يفيد طلاب العلم، من الدعاة والوعاظ والعاملين في مجال التعليم الديني . يقول : « ووجدتني أرجح أن « الكبائر المخطوط» والذي أعتز بتحقيقه وإخراجه للنور هو كتاب الكبائر الحقيقي لمصنفه الإمام الذهبي، وهو الذي أشار إليه تلاميذ الذهبي والعلماء من بعدهم ونقلوا منه في كتبهم ومما يؤكد ذلك :

- ١ - اختلاف عدد الكبائر في الكتابين ، فهي في المطبوع انتهت عند الكبيرة السبعين بشكل مفاجئ، وفي المخطوط بلغت ستاً وسبعين .
- ٢ - « الكبائر المخطوط» من الأحاديث الموضوعية، وإيراد الأحاديث الضعيفة مصدرية بصيغة التمريض أو بيان علة الضعف بعبارة موجزة تدل على تضلع المؤلف ونضجه في علم الحديث .
- ٣ - يتميز « الكبائر المطبوع » بالإطالة في تفسير الآيات ونقل ما ورد فيها عن الصحابة والتابعين وغيرهم مما ثبت ومما لم يثبت، كما نجد المؤلف يترضى فيه على التابعين وتابعي التابعين، وهذا لم يُعهد في عُرف المحدثين ولا في أسلوب الذهبي المعروف في كتبه الأخرى.
- ٤ - المقدمة في الكتابين واحدة ، باستثناء خطبة الكتاب، وإضافة عبارات مفحمة في

(١) انظر الكبائر بتحقيق مستور ص ١٣ .



مقدمة المطبوع وحذف أربعة أسطر من آخرها .

٥ - ختم الذهبي - رحمه الله تعالى - « الكبائر المخطوط » بفصل ذكر فيه ما يحتمل أن يكون من الكبائر ولا وجود لهذا الفصل في الكبائر المطبوع . فكيف إذن يكون المختصر أشمل وأكمل من الشرح !؟

٦ - والأهم من ذلك كله ظهور شخصية « الذهبي » كمحدث ناقد ماهر في « الكبائر المخطوط » واختفاؤها تماماً مع أسلوب المتميز في « الكبائر المطبوع » والأسلوب هو الرجل كما يقولون ، بل إن القارئ ليلمس في المطبوع نفسَ فقيه صوفي واعظ يجمع الأقوال والآثار كحاطب ليل<sup>(١)</sup> .

ويواصل مستو استدلالاته على نفي نسبة الكبائر المطبوع إلى الإمام الذهبي فيقول: « ومما يدعم هذا الرأي قول ابن حجر الهيتمي المتوفي سنة ٩٧٤هـ . في مقدمة كتابه [الزواجر عن اقتراف الكبائر] : «... إلى أن ظفرت بكتاب منسوب في ذلك لإمام عصره وأستاذ أهل دهره ، الحافظ أبي عبدالله الذهبي فلم يشف الأوام<sup>(٢)</sup> ولا أغنى عن ذلك المرام لما أنه استروح فيه استرواحاً تجلُّ مرتبته عن مثله وأورد فيه أحاديث وحكايات لم يعزُّ كلاً منها إلى محله ، مع عدم إمعان نظره في تتبع كلام الأئمة في ذلك ، وعدم تعويله على كلام من سبقه إلى تلك المسالك . »<sup>(٣)</sup> .

ويعلق محي الدين مستو على ذلك فيقول :

« والتفسير المنطقي لهذا الاختلاف والاتفاق بين الكتابين ، هو أن كتاب « الكبائر المخطوط » ربما وقع في يد أحد الفقهاء الوعاظ فأخذ كثيراً من الآيات القرآنية والأحاديث

(١) انظر الكبائر بتحقيق مستو من ١٥-١٦-١٧ .

(٢) أي العطش .

(٣) انظر الزواجر عن اقتراف الكبائر لابن حجر الهيتمي ج٤ من ٤ نقلاً عن مستو والكبائر بتحقيق محي الدين مستو من ١٧ .

النبوية التي استشهد بها الحافظ الذهبي على تحريم كل كبيرة.. وحذف كثيراً من غزوه للأحاديث وتعليقاته القيمة، وأضاف إلى ذلك أحاديث ضعيفة وحكايات ومنامات وأشعار وعظية، ولم يثبت هذا الشيخ اسمه، ووقع الكتاب في يد من جاء بعده فأثبت اسم الذهبي - رحمه الله تعالى - لاشتهار أن «الكبائر» من تأليفه، أو أن الشيخ نفسه أبقى اسم الذهبي عليه ليقبله الناس بما فيه، ثم جاء الشيخ محمد حمزة - رحمه الله تعالى - لينفض التراب عن هذا الكتاب المخول، وليصرف أنظار العلماء والباحثين - من غير قصدٍ - عن المخطوط الحقيقي للكبائر بدعوى أنه إختصار جاء على الثلث من الكبائر الكبرى<sup>(١)</sup>.

وبعد أن انتهيت من عرض هذا الذي خرجت منه بأمرٍ مهم ألا وهو اثبات المخطوط الحقيقي للكبائر ولمؤلفه الإمام الذهبي، أشرع الآن بتناول كتاب «الكبائر» بالدراسة والعرض لمنهج الإمام الذهبي الدعوى من خلاله. والله أسأل التسديد والتوفيق .

---

(١) انظر الكبائر بتحقيق محي الدين مستو ص ١٧-١٨ .

## تمهيد ،

إن من أهم وأبرز مؤلفات الإمام الذهبي - رحمه الله تعالى - في الوعظ كتابه «الكبائر» الذي يظهر فيه طريقته في الوعظ ومنهجه في التحذير والإنكار الذي يتميز به.

وسوف أحاول عبر الصفحات التالية - إن شاء الله - تجلية هذا المنهج من خلال عرض لبعض الكبائر التي أوردها لتحذير المسلمين منها وبيان ضررها وعاقبتها حتى يتجنبها المسلمون ولا يقعون فيها، فمن ذلك مثلاً :

أ - تخيره للعناوين الدقيقة والتي تحتوي على إثارة حمية المسلم وغيرته. فعلى سبيل

المثال يعنون للكبيرة الحادية والثلاثين بعنوان :

« عدم التنزه من البول وهو شعار النصارى »<sup>(١)</sup> .

ويعنون للكبيرة الثانية عشرة بعنوان :

« الزنا وبعضه أكبر إثمًا من بعض »<sup>(٢)</sup> .

ولكبيرة أخرى بعنوان « الظلم بأخذ أموال الناس بالباطل »<sup>(٣)</sup>

وهكذا على مدى كتابه « الكبائر » نراه يعنون بعبارات موجزة جامعة .

فرحم الله تعالى الإمام الذهبي .

---

(١) انظر الكبائر بتحقيق محي الدين مستو ص ١٢٠ .

(٢) انظر المرجع السابق ص ٧٧ .

(٣) انظر المرجع السابق ص ١٠٦ .

## الكبائر كتاب كتبه واعظ ،

لقد بدأ الإمام الذهبي كتابه الكبائر بتفصيل معنى الكبيرة وذكر الأدلة من القرآن والسنة على ذلك فقال في مقدمته :

«هذا كتابُ نافع في معرفة الكبائر إجمالاً وتفصيلاً، رزقنا الله اجتنابها برحمته».

قال تعالى : ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مقدحلاً كريماً﴾ النساء : ٣١ . فقد كفل الله تعالى بهذا النص لمن اجتنب الكبائر بأن يدخله الجنة . وقال تعالى : ﴿والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون﴾ الشورى : ٣٧ .

وقال تعالى : ﴿الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة﴾ النجم : ٣٢ .

وقال النبي - ﷺ - : « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن ما لم تُغش الكبائر »<sup>(١)</sup> فتعين علينا الفحص عن الكبائر ما هي لكي يجتنبها المسلم، فوجدنا العلماء قد اختلفوا فيها ، فقليل : هي سبع واحتجوا بقوله - ﷺ - : « اجتنبوا السبع الموبقات »<sup>(٢)</sup> . فذكر الشرك والسحر وقتل النفس وأكل مال اليتيم وأكل الربا والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات . متفق عليه .

وجاء عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : « هي إلى السبعين أقرب منها إلى السبع . وصدق والله ابن عباس ، والحديث فما فيه حصر الكبائر ، والذي يتجه ويقوم عليه الدليل أن من ارتكب حوباً من هذه العظائم مما فيه حد في الدنيا ، كالقتل والزنا والسرقة ،

- 
- (١) رواه مسلم في كتاب الطهارة باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر رقم « ٢٢٣ » .  
ورواه الترمذي في كتاب الصلاة باب ما جاء في فضل الصلوات الخمس رقم « ٢١٤ » .
- (٢) رواه البخاري في كتاب الوصايا باب قوله تعالى « إن الذين ياكلون أموال اليتامى ظلماً ... » رقم (٢٧٦٦) بفتح الباري .  
ومسلم في الإيمان باب بيان الكباري وأكبرها - رقم (٨٩) .

أوجاء فيه وعيد في الآخرة من عذابٍ أو غضبٍ أو تهديدٍ أو لعنٍ فاعله على لسان نبينا محمد - ﷺ - ، فإنه كبيرة ولا بد من تسليم ذلك أن بعض الكبائر أكبر من بعض، ألا ترى أنه - عليه الصلاة والسلام - عدُّ الشرك بالله من الكبائر مع أن مرتكبيه مخلدٌ في النار ولا يُغفر له أبداً، قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ «النساء: ٤٨»، وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ ﴾ «المائدة: ٧٢». ولا بد من الجمع بين النصوص. قال النبي - ﷺ - : « أَلَا أُبَيِّنُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكِبَائِرِ؟ قَالَهَا ثَلَاثًا. قَالُوا: بلى يا رسول الله، قال: الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعَقُوقُ الْوَالِدَيْنِ وَكَانَ مَتَكَنًّا فَجَلَسَ فَقَالَ: أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ، فَمَا زَالَ يَكْررها حَتَّى قَلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ <sup>(١)</sup> مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

فبين عليه الصلاة والسلام أن قول الزور من أكبر الكبائر، وليس له ذكر في السبع الموبقات، وكذلك العقوق <sup>(٢)</sup> .

#### الاستشهاد بالحديث الصحيح .

فإن من أهم ميزات الإمام الذهبي في وعظه استشهادَه بالصحيح من سنة النبي - ﷺ - وفي حالة ذكره لما دون ذلك فإنه ينبه عليه ويذكر رأيه في الحديث ولا يتركه دون تعليق، وليس كصفة كثيرٍ من وعاظ اليوم الذين يسردون الأحاديث دون إهتمام بدرجاتها ولا يهتمهم صحة الحديث أو حسنه أو درجته من القبول دون العلماء، بل هم لا يعرفون ذلك، وإذا عرفوه فإننا نجدهم يتعامون عن ذلك بحجة أن ذلك في الترغيب والترهيب، وأن هدفهم ومقصدهم هو تخويف الناس وزجرهم عن المنكر .

ونلاحظ ذلك على سبيل المثال في كتابه الكبائر عند إيرادِه لحديث النبي - ﷺ - : « من أفطر يوماً من رمضان من غير عذر ولا رخصة لم يقضه صيام الدهر ولو صامه » <sup>(٣)</sup> .

(١) رواه البخاري في كتاب الشهادات باب ما قيل في شهادة الزور برقم (٢٦٥٤) ومسلم في كتاب الإيمان باب بيان الكبائر وأكبرها برقم (٨٧) .

(٢) انظر مقدمة الإمام الذهبي لكتاب الكبائر ص ٤١-٤٣ بتحقيق محي الدين مستو .

(٣) رواه الترمذي في كتاب الصوم باب ما جاء في الإفطار متعمداً - رقم (٧٢٣) وأبو داود في كتاب الصوم باب التغليب فيمن أفطر عمداً برقم (٢٣٩٦) وإسناده ضعيف .

فقد علق عليه قائلاً: « هذا لم يثبت »<sup>(١)</sup> .

فهو على الرغم من أنه يقرر حرمة الإفطار في رمضان ولو يوماً واحداً بدون عذر شرعي وأنه أحد الكبائر التي يُعاقب عليها المسلم ويدخل تحت دائرة المعصية الكبيرة التي تغضب الله وتسخطه ومع إirاده لهذا الحديث المشهور إلا أنه ينبه على ضعف إسناده - رغم أنه يحمل معنى صحيحاً - وهذه هي الأمانة التي تعلمها على أيدي شيوخه الفضلاء والتي استقاها من تعاليم الرسول - ﷺ - والتي تحث على الثبوت في نقل الأخبار وعدم الوقوع في الكذب على رسول الله - ﷺ - .

ونراه كذلك عند الحديث على كبيرة ترك الصلاة، بعد أن ذكر الحديث المنسوب إلى النبي - ﷺ - « ومن لم يحافظ على الصلاة لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاه، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبي جهل وأبي بن خلف »<sup>(٢)</sup> .

فقد علق عليه الذهبي بقوله: « ليس إسناده بذلك »<sup>(٣)</sup> .

---

(١) انظر الكبائر بتحقيق محي الدين مستو من ٧٤ .

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند ج٢ ص ١٦٩، ورواه الدرامي في كتاب الرقاق باب المحافظة على الصلاة ج٢ ص ٣٠١ .

(٣) انظر الكبائر من ٥٨ .

## يذكر الأدلة النقلية في كل كبيرة ،

ونرى الإمام الذهبي في كتابه الكبائر يذكر الأدلة النقلية من القرآن والسنة ثم من أقوال السلف الصالح، وهذا هو منهج الدعاة الربانيين، مما يدل على غزارة علمه - رحمه الله تعالى - وسعة اطلاعه وقدرته الفائقة على الإقناع، وهذا هو أمضى أسلحة الداعية الناجح بعد الإخلاص لله وبعد أن تتحقق فيه صفة الإخلاص وقوة الصلة بالله تعالى .

وهكذا وعلى النسق الفكري المرتب الذي تدعوفيه الفكرة الفكرة، يواصل الإمام الذهبي حديثه عن الكبائر، وهي سمة غالبية على كتابات الإمام الذهب بالدعوة .

فهو يجسم الأفكار ويقربها إلى ذهن القارئ ويحشد لها من النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة أو ما يليها في درجة الصحة، ثم يتدرج من خلال ذلك إلى أقوال أهل العلم ممن سبقوه لمعرفة بمكانتهم عند الناس، إذ لا بد من الاستفادة من أقوالهم والأخذ عنهم فهم ورثة النبي - ﷺ - ، فمن ذلك استشهاده على فظاعة بعض الكبائر بقول الإمام أحمد بن حنبل : « ما نعلم أن النبي - ﷺ - ترك الصلاة على أحدٍ إلا على الغالٍ وقاتل نفسه »<sup>(١)</sup>.

كما ذكر قول ابن مسعود - رضي الله عنه - : « مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا لَمْ يَعْمَلْ بِهِ لَمْ يَزِدْهُ الْعِلْمُ إِلَّا كِبْرًا »<sup>(٢)</sup> وغير ذلك .

فقد روى عن كعب قال : « اتقوا النميعة فإن صاحبها لا يستريح من عذاب القبر »<sup>(٣)</sup> .

وهذا بالطبع منهج دعوى في غاية الشمول والدقة، يدفع الإنسان العادي إلى القبول والإتباع، كما يدفع المعاند إلى التسليم والاقتران .

(١) انظر الكبائر ص ١٠٥ .

(٢) انظر المرجع السابق ص ١٢٨ .

(٣) نفس المرجع ص ١٦٤ .

## الذهبي يعلق على الدليل الذي يورده :

ومن منهج الإمام الذهبي الدعوى أيضاً والذي نلمسه في كتابه الكبائر أنه يعلق على الدليل الذي يورده للاستشهاد ببعض العبارات الرقيقة التي تؤثر في نفس المسلم فتشحن همته وتوقظ ضميره وتحرك إيمانه، مما يصرفه عن الوقوع في العظائم .

وهذا نراه كثيراً في كتاب الكبائر، فمن ذلك على سبيل المثال كبيرة الربا . فبعد أن ذكر الآية الكريمة :

﴿وَمَنْ عَادَ فَوَلِّتْكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ «البقرة: ٢٧٥» علق عليها مخوفاً المرابين ومحذراً لهم بغية جرم قاتلاً: « فهذا وعيدٌ عظيم بالخلود في النار كما ترى لمن عاد إلى الربا بعد الموعظة، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».<sup>(١)</sup>

وموضع آخر نجد فيه الإمام الذهبي يسلك نفس المسلك، فبعد أن ذكر النصوص والأدلة في حكم تارك الصلاة، علق على ذلك محذراً من كبيرة ترك الصلاة فقال - رحمه الله - : « وهذه النصوص تُشعيرُ بكُفْر تارك الصلاة » أ . هـ .<sup>(٢)</sup>

## يذكر الخلاف في المسألة والراجع :

مازلنا ننتبع منهج الإمام الذهبي الدعوي من خلال كتابه الكبائر فما هو نجده يأتي بالمسألة الفقهية أو العقديّة ثم يستعرض الآراء فيها والخلاف، وبعد ذلك يذكر ترجيحه لأحد الآراء أو يتوقف عند محل النزاع، وهذا هو منهج العلماء الريانيين تعلموه من القرآن الكريم.<sup>(٣)</sup>

(١) انظر الكبائر من ٦٩ .

(٢) انظر المرجع السابق من ٥٨ .

(٣) نرى هذا المنهج واضحاً في الآية « ٢٢ » من سورة الكهف، والتي تبين أن هناك خلافاً في عدد أصحاب الكهف .



ويعرف الإمام ابن تيمية هذا النهج فيقول :

«أن تستوعب الأقوال في ذلك المقام، وأن يُنبه على الصحيح منها، ويُبطل الباطل، وتذكر فائدة الخلاف وثمرته لئلا يطول النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته فينشغل به عن الأهم» أ. هـ .<sup>(١)</sup>

ونرى ذلك واضحاً عند حديث الإمام الذهبي عن كبيرة الكذب على رسول الله - ﷺ - حيث قال : « قد ذهبت طائفة من العلماء إلى أن الكذب على رسول الله - ﷺ - كفر ينقل عن الملة ، ولا ريب أن تعمد الكذب على الله ورسوله في تحليل حرام أو تحريم حلال ، كفر محض ، وإنما الشأن في الكذب عليه في سوى ذلك» أ . هـ .<sup>(٢)</sup>

فهو يذكر رأي طائفة من العلماء أن الكذب على النبي - ﷺ - كفر يُخرج عن ملة الإسلام، ثم يُحدد ما يُعدُّ كفراً ، فيقول هو تعمد الكذب على الله ورسوله، وبعد ذلك يحدد محل النزاع والذي هو الكذب عليه - ﷺ - في سوى ذلك والذي يُعد من الكبائر .

ولا شك أن هذا الأمر يوضح ويكشف عن شخصية الإمام الذهبي واسعة العلم والمعرفة والتي أهلته ليتبوأ مكانته المرموقة هذه بين العلماء والدعاة، فضلاً عن كونه حافظاً محدثاً .

### تخصيصه للأحكام ،

وهذه ميزة لا تكون إلا في العالم الفقيه الخبير بثتى جوانب الحكم الشرعي حتى إذا أراد تخصيصه فعل ذلك دون إفراط ودون تفريط، وكذلك الإمام الذهبي - رحمه الله - أدرك بحس العالم والخبير بتفاوت فئات الناس في المجتمع أن هناك فئة من الناس تريد معرفة

(١) انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية. جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي. كتاب مقدمة التفسير جـ ١٣ من ٣٦٨ طبعة دار عالم الكتب/ الرياض ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م .

(٢) انظر الكبائر للذهبي بتحقيق مستوى ص ٧٢ .

الحكم مُخصّصاً إما لأنها ربما فاتها فهم الحكم مع الإطالة أو لأنها تتقُ بنطاق الحكم فتريد الخلاصة لتعرف فتتبع الصحيح .

فلم يهمل الإمام الذهبي هذه الفئة بل نراه يُعطيهم زيادة الموضوع. ويتضح ذلك في تعليقه الأخير على كبيرة تارك الصلاة إذ يقول : « فمؤخر الصلاة عن وقتها صاحب كبيرة، وتاركها بالكلية - أعني الصلاة. الواحدة - كمن زنى وسرق ، لأن ترك كل صلاة أو تقويتها كبيرة، فإن فعل ذلك مراتٍ كان من أهل الكبائر إلا أن يتوب، فإن لازم ترك الصلاة فهو من الأخرسين الأشقياء المجرمين» أ . هـ .<sup>(١)</sup>

وأيضاً عند ذكره للكبيرة التاسعة وهي الكذب على النبي - ﷺ - فبعد أن أورد الأدلة والأحكام في ذلك نجده في نهاية حديثه عن الكبيرة يوجز الحكم قائلاً : « فلاح لك بهذا أن رواية الموضوع لا تحل»<sup>(٢)</sup>. وقوله في كبيرة عدم التنزه من البول : « ثم إن من لم يحترز من البول في بدنه وثيابه فصلاته غير مقبولة» أ . هـ .<sup>(٣)</sup>

يوضح ما قد يثير الغموض أو البلبلة :

الإمام الذهبي في كتابه الكبائر يقوم باستكمال جوانب الكبيرة في قالب مقتصر مهذب موضعاً ما قد يثير الغموض والإبهام أو البلبلة وعدم الاستيعاب .  
فهو مثلاً في كبيرة : أكل مال اليتيم ظلماً، نجده قد بيّن متى يجوز للولي أن يأكل من مال اليتيم فقال :

« وكلُّ وليٍّ ليتيمٍ كان فقيراً فأكَل بالمعروف، فلا بأس عليه ، وما زاد على المعروف فسُحِت حرام»<sup>(٤)</sup> .

(١) انظر الكبائر ص ٥٩ .

(٢) انظر المرجع السابق ص ٧٣ .

(٣) المرجع السابق ص ١٣٠ .

(٤) انظر الكبائر ص ٧١ .

فلم يكتف بذكر أحد الوصفين بل ذكرهما معاً لتقبيح وتغليظ المسألة فقال : فسحت حرام، ثم أوضح المقصود بالمعروف فقال : « والمعروف : يُرجع في إلى عُرف الناس المؤمنين الخالين من الأغراض الخبيثة »<sup>(١)</sup> .

وهكذا نراه لا يترك شيئاً يُحتمل الغموض فيه أو الإبهام إلا أوضحه وبينه مقتصراً من غير تفريط، وهنا ينبّه إلى حسن المقصد والبعد عن النوايا السيئة، وذلك لأن هذا الأمر لابد فيه من الأمانة والمقصد الحسن إذ لا يعلمه الخلق بل هو مما يجرى في السر بين العبد وربه .

وبهذا يخاطب الإمام الذهبي النفس البشرية ويسد مداخل الشيطان إليها بإسلوب دعوى رشيق .

### تقبيحه للكبيرة :

وذلك بذكره لمنكرات قد تكون أعظم في إفهام العامة، ثم يذكر أن هذه الكبيرة أشد منها، وهذا مقرر لدى المؤمنين وهم أعلم الناس وأفقههم فيقول : « وعند المؤمنين مقرر أن ترك صوم شهر رمضان بلا مرض ولا غرض، أنه شر من الزاني والمكأس ومدمن الخمر. بل يشكّون في إسلامه ، ويظنون به الزندقة والانحلال» أ.هـ.<sup>(٢)</sup>

أو يصفها بأوصاف بذيئة - مثلاً في كبيرة المحلل والمحلل له قال : « ولكن فاعل هذه القانورة مقلد .. » أ. هـ.<sup>(٣)</sup> فنجده قد انتقى لفظاً بذيئاً فيه التشنيع والتنفير فقال «القانورة».

أو ينسب هذه الأعمال إلى فئةٍ خارجه عن الإسلام ومكروهة لدى الناس، وهذا يتضح في قوله:

(١) المرجع السابق ص ٧٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٧٦ .

(٣) نفس المرجع ص ١٢٨ .

« وربما يفعل ذلك زنادقة الجبلية والتيامنة الخارجين من الإسلام »<sup>(١)</sup> ونجد الإمام الذهبي يقبِّح الكبيرة من خلال بيان أنها تجمع لعدة مرمات، فكأنه يحذر منها ويقول إنك إذا نجوت منها فقد نجوت من عدة منكرات، وما هو يفعل ذلك عند ذكره لكبيرة شهادة الزور فيقول: « قلت : شاهد الزور قد ارتكب عظام :

- \* أحدها : الكذب والافتراء ، والله تعالى يقول : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ «غافر ٢٨» . وفي الحديث : « يُطَبِّعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ لَيْسَ الْخِيَانَةُ وَالْكَذِبُ » .
- \* وثانيها : أنه ظلمَ الذي شهد عليه حتى أخذ بشهادته ماله وعرضه وروحه .
- \* وثالثها : أنه ظلم الذي شهد له ، بأن ساق إليه المال الحرام ، فأخذه بشهادته ووجبت له النار قال النبي - ﷺ - : « من قضيت له من مال أخيه بغير حق فلا يأخذه ، فإنما أقطع له قطعة من النار »<sup>(٢)</sup> .

- \* ورابعها : أنه أباح ما حرم الله وعصمه من المال والدم والعرض قال - ص - : « كلُّ المسلم على المسلم حرام : ماله ودمه وعرضه »<sup>(٣)</sup> فقد بين جمع المعصية الواحدة لعدة محرمات ثم دلل عليها أيضاً .

### زوع الثقة وإيقاظ الضمير :

يلحظ الدارس لكتاب الكبائر للإمام الذهبي أنه يستخدم أحياناً أسلوب زرع الثقة في النفوس وإيقاظ الضمير، وذلك نلمسه في قوله : «وما أحسب أن مسلماً يتعمد أكل لحم الخنزير»<sup>(٤)</sup> .

(١) انظر الكبائر ص ١٢٩ .

(٢) الحديث رواه البخاري في كتاب الشهادات باب من أقام البينة بعد اليمين رقم « ٢٦٨٠ » بفتح الباري، ومسلم في كتاب الأفضية باب الحكم بالظاهر واللعن بالعجة رقم « ١٧١٧ » . والإمام مالك في الموطأ كتاب الأفضية باب الترغيب في القضاء بالعق .

(٣) انظر الكبائر ص ٩٦-٩٧ . والحديث رواه البخاري في كتاب الأدب ما ينهي عن التماسد والتدابير رقم « ٦٦٥ » بفتح الباري .

ومسلم في كتاب البر والصلة باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره برقم « ٢٥٦٤ » .

(٤) انظر الكبائر ص ١٢٩ .

فهذا الأسلوب له الأثر البالغ في النفس وذلك أنه استحبال وقوع هذا العمل المشين من المسلمين وإنما يقع ممن سواهم، فذلك يقع موقع القناعة .

فنجده وهو يخاطب مرتكب الكبيرة كالسرقة مثلاً، وكأنه قد تاب وأراد أن يعرف أين المخرج وكيف يتوب فيقول : « ولا تنفع السارق توبته إلا بأن يردَّ ما سرقه، فإن كان مُفلساً تحلَّ من صاحب المال»<sup>(١)</sup> .

وهكذا يفسح طريق التوبة أمامه فلا مجال للتردد .

### مواعظه عامة وخاصة :

ولأن الإمام الذهبي يخاطب الجميع ولا يريد إهمال أحدٍ نجد أن المواعظ في كتابه «الكبائر» لا تخرج عن أمرين أو قسمين :

مواعظ عامة لجميع الناس عامهم وخاصهم، ومواعظ خاصة بفئاتٍ مختلفة من الناس .

فالمواعظ العامة كتلك التي في مجموعة كبائر منها: الشرك بالله، وترك الصلاة وعقوق الوالدين، والزنا، والسرقة، وغيرها .

والمواعظ الخاصة: منها ما يعظ به الحاكم وذلك في كبيرة المكاس<sup>(٢)</sup> حيث قال: «والمكَّاس فيه شبه من قاطع الطريق، وهو شر من اللص فإن من عسفَ الناس وجدَّ عليهم ضرائب، فهو أظلم وأغشم ممَّن أنصف في مكسه ورفق برعيته، وجابى المكس وكاتبه وأخذه من جُنْدَى وشيخ وساحب زاوية شركاء في الوزر»<sup>(٣)</sup>.

ومنها ما يعظ به القاضي كقوله - رحمه الله - :

(١) المرجع السابق ص ١١١ .

(٢) المكس : الضريبة يأخذها المكَّاسُ ممَّن يدخلون البلد من التجار [انظر المعجم الوجيز - مجمع اللغة العربية مادة مكس ص ٥٨٧] .

(٣) انظر الكبائر ص ١٣١ .

« ويحرم على القاضي أن يحكم وهو غضبان، لا سيما من الخصم. وإذا اجتمع في القاضي قلة علم وسوء قصد وأخلاق زعرة<sup>(١)</sup> وقلة ورع، فقد تمت خسارته ووجب عليه أن يعزل نفسه ويبادر بالخلاص من النار»<sup>(٢)</sup>.

**وفي موطن آخر تراه يشمل جميع من يحكم فيقول :**  
«فكل من قضى بغير علم ولا بينة من الله ورسوله على ما يقضى به فهو داخل في هذا الوعيد « أ. هـ. »<sup>(٣)</sup>.

**ومنها ما يعظ به طلاب العلم والعلماء أيضاً بقوله :**  
«وأشرف الكبر من تكبر على العباد بعلمه، وتعاضم في نفسه بفضيلته، فإن هذا لم ينفعه علمه، فإن من طلب العلم للأخرة كسره علمه، وخشع قلبه، واستكانت نفسه، وكان على نفسه بالمرصاد، فلم يفتّر عنها، بل يحاسبها كل وقت ويثقفها؛ فإن غفل عنها جمحت عن الطريق المستقيم وأهلكته. ومن طلب العلم للفخر والرياسة ونظر إلى المسلمين شزراً، وتحامق عليهم وازدأرى بهم، فهذا من أكبر الكبر، ولا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر. فلا حول ولا قوة إلا بالله»<sup>(٤)</sup>.

#### **اختيار عناوين الكبائر بدقة :**

مما لا شك فيه أن الإمام الذهبي داعية من الطراز الفريد الذي قلما تجده بين كثير من الدعاة وبخاصة في عصرنا هذا، فهو رجل يعرف الطريق الصحيحة للدعوة إلى الله على بصيرة، وهذا ما جعله يكون دقيقاً في إختياره لعناوين الكبائر الذي يدعو وينادي

---

(١) أخلاق زعرة : وفي خُلُقِيهِ زَعَارَةٌ وَزَعَارَةٌ - بتشديد الراء وتخفيفها - أي شراسة وسوء خُلُقٍ، ولا يتصرف منه فعل. [انظر لسان العرب لابن منظور مادة : زغر ج ٢ ص ١٨٢٢ - ط دار المعارف بالقاهرة - بتصرف] .

(٢) انظر الكبائر ص ١٢٣ - ١٢٤ .

(٣) انظر المرجع السابق .

(٤) نفس المرجع ص ٩٥ .

بالزجر عنها، فخرجت العناوين لدقتها ملائمة تماماً لما تحتها من بيانٍ وتفصيلٍ ونحن لن نستعرض الكبائر واحدةً واحدةً لندلل على مدى دقة عنونها ولكن نأخذ بعضاً منها كنماذج فقط :

فمثلاً في الكبيرة الحادية والثلاثين وهي: « عدم التنزه من البول وهو شعار النصارى »<sup>(١)</sup> فتجده قد أشار إلى أنه أمر منوط بالنصارى مشعراً من خلال التفصيل أنه لا يجوز لنا التشبه بالنصارى وأن ذلك أمر يوجب عذاب القبر إلى أن يقرر عدم قبول صلاة من هذه عادته وبذلك يحبط عمله كما يحبط عمل النصارى .

وفي كبيرة « الظلم بأخذ أموال الناس بالباطل »<sup>(٢)</sup> ترى العنوان قد جمع ما تحته من تفصيل وتبيين في جملة موجزة ودقيقة .

وكذلك في كبيرة « الزنا وبعضه أكبر إثمًا من بعض »<sup>(٣)</sup> فإذا ما تناولت ما تحت العنوان بالقراءة تأكدت من مدى دقة وبراعة الإمام الذهبي في إختياره لعنوان الكبيرة، وبالفعل يدل على أن الزنا كبيرة وفاحشة ولكن هناك نوع من الزنا هو أكبر وأفحش وهو الزنا بالأم والأخت وامرأة الأب وبالمحارم .

وهكذا يستمر نهج الذهبي مضطرباً في دقة إختياره لعناوين الكبائر .

### **استكمال الجوانب الفقهية :**

فمن ملامح منهج الإمام الذهبي الدعوي في كتابه « الكبائر » أنه يعتني باستكمال النواحي الفقهية إذا دعى الأمر إلى ذلك . فعندما يسلم الضوء على الرجل من النساء والمخنث من الرجال لاح له أن النساء تحتاج إلى بيان أمرٍ لا تجوز أيضاً لهن وليس فقط للرجال المقلدين

(١) انظر الكبائر ص ١٣٠ .

(٢) انظر المرجع السابق ص ١٠٦ .

(٣) نفس المرجع ص ٧٧ .

للنساء فعرف أنه لا بد من التنبية على ذلك فقال : « فمن الأفعال التي تُلعن عليها المرأة: إظهار الزينة والذهب واللؤلؤ من تحت النقاب، وتطييبها بالمسك والعنبر ونحو ذلك، ولبسها الصباغات والمداس إلى ما أشبه ذلك من الضائح»<sup>(١)</sup> .

وكذلك الحال عند كبيرة «الظلم بأخذ أموال الناس بالباطل» يقول : « ويدخل في هذا الباب : المكّاس وقاطع الطريق والسارق والبطّاط<sup>(٢)</sup> والخائن والزغلي<sup>(٣)</sup> ومن استعار شيئاً فجحده ومن طفّف الوزن والكيل، ومن التقط ما لأفلم يعرفه ومن باع شيئاً فيه عيب فغطاه، والمقامر ومُخبر المشتري بالزائد »<sup>(٤)</sup> .

(وإذا وقفنا النظر في أسلوب الذهبي في كتابه المواعظ نجده يشبع نهم أهل عصره في الإهتمام بالزخارف اللفظية وحسن التقسيم والنثر الشعري، فالذهبي ليس مجرد واعظ قوي الحجة ساطع البرهان، وإنما تبعث من عبارة الواعظ أنغام شعرية وبيان متسق فالذهبي واعظ وأديب وشاعر في آن واحد، وشعره لا يهيم ولا يشطح بأفكار بعيدة، بل هو متأثر غاية التأثير بالقرآن الكريم فكراً وأسلوباً) .

#### مواعظه في كتاب حقوق الجار .

أما في كتاب حقوق الجار فكانت الموعدة تأخذ شكل التوجيه والنصح والتعريف بحقوق الجار كل حسب حاله وذلك دون أن يضع الذهبي عنواناً للموعظة كما فعل في كل الكبائر . فالموعظة هنا عبارة عن تنفيذ وأحكام فقهية ومن طبيعة هذه الأحكام أن تأتي حكمها كأنها أمر .

(١) انظر الكبائر ص ١٢٧ .

(٢) البطّاط : هو رجل يصنع إناءً على شكل بطة يوضع فيه الدهن فهو يدخل مع هؤلاء لأنه يصنع التماثيل ويبيعها . [انظر المعجم الوسيط مادة بطط بتصريف] .

(٣) الزغلي : أي الغشاش ، وهي مأخوذة من الزغل : وهو الغش . انظر المعجم الوجيز ، مادة زغل . ص ٢٨٩ - جامع اللغة العربية بمصر ١٩٩١ م .

(٤) انظر الكبائر ص ١٠٩ .



## نماذج من مواعظه في كتاب حقوق الجار ،

١ - « فإن كان جارك يهودياً أو نصرانياً في الدار أو في السوق أو في اكتساب، فجارره بالمعروف ولا تواده فوق القدر الذي له، وما أدري ما أقول لك في قبول هديته في عيده وكذا دعوته إياك يوم عيده فإن وقع ذلك في العمر مرة فلا بأس فأما من جعل إجابة دعوته مجابة وعاشرهم وباسطهم فإن هذا مخالف لقول الله تعالى : ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الآيما ن وأيدهم بروح منه... ﴾<sup>(١)</sup>

فإن انضاف إلى جواره لك كونه قرابتك أو نوى رحمك فهذا حق آخر، وكذا إن كان أحد أبويك ذمياً فإن للأبوين وللرحم حقوقاً فوق حق الجوار فأعط كل ذي حق حقه ، وكذا رد السلام فلا تبدأ أحداً من هؤلاء بسلام .

ومن خلال كلام الإمام الذهبي يمكننا القول بأن الإمام الذهبي كان له فقهه الخاص في الدعوة فنراه يدعو إلى إعزاز الدين الإسلامي وتعظيمه وإلى إعزاز المسلمين والمؤمنين وعدم التودد أو التذلل لغيرهم من الكفرة والمشركين لأن العزة لله ورسوله وللمؤمنين .

أما عن المعاملة فلا بأس من التعامل مع غير المسلمين ولكن في إطار محدود ومن غير إسرافٍ أو إفراط بل في حدود حقوقهم الإنسانية في التعايش مع المسلمين ودون إيذاء لهم ما داموا مسالمين غير معتدين أو متعدين لحدودهم .

وإذا سلم أحد منهم عليك فقل : وعليكم ، وأما كيف أصبحت لأمة وأبيه، فهذا لا بأس به وأن يقول ذلك من غير إسراف ولا مبالغة في الود ، قال الله تعالى : ﴿ فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ﴾<sup>(٢)</sup> .

(١) سورة المجادلة آية ٢٢٥ .

(٢) المائدة آية ٥٤ .

فالمؤمن من يتواضع للمؤمنين ، ويتذلل لهم ويتعزز على الكافرين ولا يتضاطع لهم ،  
تعظيماً لحرمة الإسلام وإعزازاً للدين من غير أن تؤذيهم ولا تؤدهم كما تود المسلم ، والله  
سبحانه أعلم<sup>(١)</sup> .

ومن خلال كلام الإمام الذهبي يمكننا القول بأن الإمام الذهبي كان له فقهه الخاص  
في الدعوة فنراه يدعو إلى إعزاز الدين الإسلامي وتعظيمه وإلى إعزاز المسلمين والمؤمنين  
وعدم التودد أو التذلل لغيرهم من الكفرة والمشركين لأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين .

أما عن المعاملة فلا بأس من التعامل مع غير المسلم ولكن في إطار محدود ومن غير  
إسراف أو إفراط بل في حدود حقوقهم الإنسانية في التعايش مع المسلمين ودون إيذاء لهم  
ماداموا مسلمين غير معتدين أو متعدين لحودهم .

#### - ماذا تفعل إذا كان جارك من أهل الكبائر ؟

فإن كان الجار صاحب كبيرة فلا يخلو إما أن يكون مستتراً بها أولاً فإن كان مستتراً  
بها ، ويغلق بابه عليه فليعرض عنه ويتخافل عنه ، وإن أمكن أن تنصحه في السر وتعظه  
فحسب ، وإن كان متظاهراً بفسقه مثل مكاس أو مراب فتهجره هجراً حميداً ، وكذا إن كان  
تاركاً للصلاة في كثير من أوقاته فأمره بالمعروف ، وإنه عن المنكر برفق مرة بعد أخرى ،  
وإلا فاهجره في الله لعله أن يعود ، ويحصل له انتفاع بالهجر من غير أن تقطع عنه  
كلامك وسلامك وهديتك ، فإن رأيت متمرداً عاتياً بعيداً من الخير فاعرض عنه ، واجتهد أن  
تتحول من جواره فقد تقدم أن النبي ص تعوذ من جار السوء في دار المقامة<sup>(٢)</sup> .

(١) حقوق الجار للذهبي تحقيق مبروك اسماعيل، دار الطلائع ص ٤١ .

(٢) اخره البخاري في الأدب المفرد باب الجار السوء ص ٤١ ط دار الشعب . القاهرة .

### فإن كان جارك ديوناً ،

فإن كان الجار ديوناً<sup>(١)</sup> أو قليل الغيرة ، أو حريمه على غير الطريق المستقيم ، فتحول عنه أو فاجتهد أن لا توادد زوجتك زوجته فإن في ذلك فساد كثيراً على نفسك المسكينة، ولا تدخل منزله ، واقطع الود بكل ممكن، وأن لم تقبل مني ربما حصل لك هوى وطمع، وغلبت على نفسك أو على أبنك أو خادمك أو أختك ، وإن ألزمتهم بالتحول عن جوارك فافعل بلطف وبرغبة وبرهبة .

### فإن كان جارك رافضياً ،

« فإن كان جارك رافضياً أو صاحب بدعة كبيرة ، فإن قدرت على تعليمه وهدايته فاجتهد ، وإن عجزت فاحجم ولا توده ولا تصافحه، ولا تكن له مصادقاً ولا معاشراً والتحول أولى بك<sup>(٢)</sup> .

### موعظه في كتاب بيان زغل الطلب والعلم ،

اتخذت الموعظة هنا شكلاً آخر غير الموعظة في الكبائر وحقوق الجار، فمنها مأخذ شكل الإرشاد الحاسم وكأنه أمر وليس موعظة وهذا من دقيق خبرة الإمام بأحوال المتكلمين ، فكتاب الكبائر للعامة والخاصة أما كتاب بيان زغل الطلب والعلم الخاصة من طلبه العلم .

وكان الإمام الذهبي مهماً بتوجيه طلاب العلم ونصحهم وتعريفهم بأن للعلم غاية سامية هي ابتغاء مرضاة الله تعالى وأنه لا يجوز لطالب العلم أن يطلبه من أجل الدنيا وتحقيق الثراء أو الوصول إلى منصب رفيع أو رئاسة .

لذلك حول كتابه بيان زغل العلم عدداً من النصائح والتوجيهات للعلماء وطلاب العلوم،

(١) الديوث : من لا يفار على أهله، انظر النهاية لابن الأثير ج٢ ص ١٤٧ .

(٢) حقوق الجار ص ٤٠-٤١ .

بحيث يخاطب المنشغلون كل علم على حده مراعيًا في ذلك طبيعة كل علم وأفضل السبل للوصول إلى الغاية منه فتتبع الأخطاء التي يقع فيها كثير منهم ليعظهم ويحذرهم من الوقوع فيها ليقوم بذلك بواجب الدعوة إلى الله والإعذار إلى ربه .

فابتدأ حديثه مع المنشغلون بالقراءة والتجويد ثم أهل الحديث ثم المقلدون للمذاهب الأربعة وهكذا حتى وصل إلى المنشغلون بعلوم أخرى :

### ١ - ومن مواعظه لأهل القراءة والتجويد ،

« فالقراء الموجودون : فيهم تنطع وتحريرو زائد يؤدي إلى أن المجدد القارئ يبقى مصروف الهمة إلى مراعاة الحروف والتنطع في تجويدها بحيث يشغله ذلك عن تدبر معاني كتاب الله تعالى ويصرفه عن الخشوع في التلاوة ويخليه قوي النفس مزدرياً بحفاظ كتاب الله تعالى ، فينظر إليهم بعين المقت وبأن المسلمين يلحنون وبأن القراء لا يحفظون إلا شذاز القراءة، فليت شعري أنت ماذا عرفت وماذا عملت! فرما علمك فغير صالح وأما تلاوتك فثقيلة عرية عن الخشعة والحزن والخوف، فالله تعالى يوفقك ويبصرك رشذك ويوقظك من مرقدك الجل والرياء. وضدهم ماء النغم والتمطيط وهؤلاء من قرأ منهم بقلب وخوف قد ينتفع به في الجملة فقد رأيت منهم من يقرأ صحيحاً ويضطرب ويبكي ، ورأيت منهم من إذا قرأ قسى القلوب وأبرهم النفوس ويدل الكلام، وأسوأهم حالاً الجنائزية وأما القراءة بالرؤيا وبالجمع فأبعد شيء عن الخشوع وأقدم شيء على التلاوة بما يخرج من القصد وشعارهم في تكثير وجوه حمزة وتغليظ تلك اللامات وترقيق الراءات اقرأ يا رجل وأعفنا من التغليظ والترقيق وفرط الإمامة والمدود ووقوف حمزة فإلى كم هذا ! وأخر منهم أن حضر في ختم أو تلا في محراب جعل ديدنه إحضار غرائب الوجوه والسكت والتهوع بالتسهيل وأتى بكل خلاف ونادى على نفسه أنا « أبو السبع اعرفوني» فإني عارف بالسبع، إيش نعمل بك؟ لا وصجك الله بخير إنك حجر منجنيق ورصاص على الافئدة»<sup>(١)</sup> .

(١) بيان زغل الطلب والعلم للذهبي ص ٤ ، ٥ مطبعة التوفيق - بدمشق ط ١٣٤٧ هـ .

يعظ الذهبي القراء فيدعوهم إلى الإخلاص عند قراءة كتاب الله عز وجل ومن مظاهر هذا الإخلاص عدم الافتتان والإنشغال بجمال الصوت عن معاني الكلمات وهذا بدوره يصرف عن الخشوع والتدبر للآيات .

والوعظ النابغة هو الذي لا يلتفت في دعواه إلى سجع الكلمات وتراصها وتنميقها كالأهتمام بجمع الآيات القرآنية والغوص والتعمق في المعاني التي تغرس في النفوس الخشوع والتواضع عند تلاوة القرآن والتي تهدي إلى التفكير في معاني كلام الله تعالى .

٢ - كما تتبع الإمام الذهبي المقلدين للمذاهب وقام بإسداء النصح لهم واعظاً مبيناً الأخطاء التي يقعون فيها وهو بذلك يهدف بدعوته أن يكون طلبهم للعمل لوجه الله وأن العالم عليه أن يدع ما يريبه إلى ما لا يريبه .  
وقد أفرد لكل مذهب موعظه محددة العنوان ليعرف صاحب كل خطأ خطأه وقد ابتدأها بالحنفية :

#### أ - الحنفية ،

الفقهاء الحنفية أولو التدقيق والرأي والذكاء ، والخير من مثلهم أن سلموا من التحيل والحيل على الربا وابطال الزكاة ونقر الصلاة والعمل بالمسائل التي يسمعون النصوص النبوية بخلافها ، فيا رجل دع ما يريبك إلى ما لا يريبك ، واحتفظ لدينك ولا يكن همك الحكم بمذهبك ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه فإذا عملت بمذهبك في الطهارة والمياه والمراء والانتصار لمذهبك على كل حال وتحصيل المدارس والعلو فما ذا فقهاً أخروبياً بل ذا فقه دنيوي ، فما أظنك تقول غدا بين يدي الله تعالى تعلمت العلم لوجهك وعلمته فيك فاحذر أن تغلط وتقولها فيقال لك كذبت إنما تعلمت ليقال العالم وقد قيل ثم يؤمر بك مسحوباً إلى النار كما رواه مسلم في الصحيح فلا تعتقد أن مذهبك أفضل المذاهب وأحبها إلى الله تعالى فإنك لا دليل لك على ذلك ولا لمخالفك أيضاً بل الأئمة رضي الله عنهم كلهم على خير

كثير ولهم في صوابهم أجران على كل مسألة وفي خطاهم أجر على كل مسألة<sup>(١)</sup> .

### ب - الشافعية ،

الفقهاء الشافعية من أكبر الناس وأعلمهم بالدين فأساس مذهبهم مبني على اتباع الأحاديث الثابتة المتصلة، وإمامهم من رؤوس اصحاب الحديث ومناقبه جمة فإن حصلت يا هذا مذهب لتدين الله به وتدفع عن نفسك الجهل فأتت بخير، وإن كانت همتك كمهمة إخوانك من الفقهاء والباطالين الذين مقصدهم المناصب والمدارس والدنيا والرفاهية والثياب الفاخرة، فماذا بركة العلم ولاهذه نية خالصة، بل ذا بيع للعلم بحسن عبارة وتعجل للأجر وتحمل للوزر وغفلة عن الله تعالى ، فلو بحثت ذا منفعة لكنت بخير، تأكل من كسب يمينك وعرق جبينك وتزدري نفسك ولا تتكبر بالعلم، أو كنت ذا تجارة لكنت تشبه علماء السلف الذين ما أبصروا المدارس وتعبدوا بعلمهم وبذلوه للناس ورضوا بثوب خام وكسرة، كما كان من قريب الإمام أبو إسحاق صاحب التنبيه وكما كان بالأمس الشيخ محيي الدين صاحب كتاب المنهاج وعلى كل تقدير احذر المرء في البحث وإن كنت محقاً ولا تنازع في مسألة لا تعتقدها واحذر الكبر والعجب بعلمك . فيا سعادتك إن نجوت منه كفافاً لا عليك ولاك<sup>(٢)</sup> .

### ج - المالكية ،

الفقهاء المالكية على خير وابتاع وفضل إن سلم قضاتهم ومفتوهم من التسرع فإن الحاكم والمفتي يتعين عليه أن يراقب الله تعالى ويتأني في الحكم بالتقليد، ولا سيما في إراقة الدماء فالله تعالى ما أوجب عليهم تقليد إمامهم فلمهم أن يأخذوا ويتركوا كما قال الإمام مالك رحمه الله .. فيا هذا إذا وقفت عند أبين يدي الله تعالى فسألك لم أبحت دم فلان فما حجتك؟ إن قلت قلدت إمامي يقول لك : فما أنا أوجببت عليك تقليد إمامك ، ثبت أن النبي ﷺ قال أول ما يقضى بين الناس في الدماء . وفي الحديث « لا يزال المرء في فسحة من دينه ما

(١) بيان زغل الطلب والعلم ص ١٣ . ١٤ . ١٥ . ١٦ .

(٢) المرجع السابق . ص ١٦ . ١٧ .

لم يتند بدم حرام» نعم من رأيته زنديقاً عدواً لله تعالى فأتق الله فيه وأرق دمه ابتغاء وجه الله تعالى بعد أن تستقي قلبك وتستخير الله فيه<sup>(١)</sup>.

فالذهبي يعظ ويذكر بالله تعالى وضرورة مراقبته وترك التقليد الأعمى، ثم يحاول التأثير عليهم فيذكرهم بقول من زعموا تقليده، ثم يزيد من عوامل التأثير وهو يعلم أنه يخاطب علماء فيذكرهم بالدليل ويناقش عقد لهم .

#### د - الحنابلة ،

« وأما الحنابلة فعندهم علوم نافعة وفيهم دين فيا لجملة . والناس يتكلمون في عقيدتهم ويرمونهم بالتجسيم ويأنه يلزمهم وهم بريئون من ذلك إلا النادر والله يغفر لهم » .  
من يتأمل ما سبق يجد أن الذهبي قد اتخذ في وعظه للمقلدين أسلوباً متميزاً حيث بدأ بمدح أهل مذهبهم وما فيه من صواب ثم بين أمثلة من الأخطاء المنتشرة التي يتبعها بنقضها ومحاولة إقناع بتركها ثم ذكر محاسن السلف الصالح والقُدوة لهم وانتهى في وعظهم إلى ذكر حال اتباع المذهب الحنبلي وما هم عليه من الصواب حرصاً منه لتقديم قدوة في إتباع المذاهب على الرغم من انتماءه للشافعية .

#### استخدام السجع :

والسجع هو الكالم المتفنى غير الموزون ويقال : سجعت الحماسة سجعاً أي رددت صوتها على طريقة واحدة. وسجع فلان أي تكلم بكلام له فواصل كفواصل الشعر مقتفى غير موزون<sup>(٢)</sup> .

ووجود الفواصل من الظواهر الإسلامية الهامة في القرآن الكريم فتناسق مقامات الكلام يؤدي وظيفة أساسية في البيان فضلاً عما فيه من إرضاء الإذن ، ولا تخلو منه

(١) المرجع السابق ص ١٢ .

(٢) المعجم الوسيط ( ١ / ٤٣٣ ) .

سورة من القرآن وإن قصرت ، وهكذا وقع في كثير من كلام رسول الله - ص -<sup>(١)</sup> كقوله «افشوا السلام، واطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام»<sup>(٢)</sup> « والإمام الذهبي صار في ذلك على طريقة القرآن فهو لا يتكلف في السجع ويقصده قصداً بل يأتي طبيعياً غير متكلف وهو مع ذلك فيه تناسب نظري له الأذان ولا تمل سماعه بل يحب السامع أن يجلس إلى الواعظ الناصح القادر على سجع موعظته دون تكلف ومن هنا يكون تأثير الموعظة عظيماً في سامعها أو قارئها على السواء .

ولقد تميز الإمام الذهبي بقدرته على صياغة الموعظة في قالب مسجوع إداراكاً منه للآثر الذي يحدثه السجع في نفس السامع حتى أن مواعظه لتصلح ان تدرس كنماذج للكتابة الأدبية الرفيعة في عصره .

ومن أمثلة استخدام الذهبي للسجع قوله « وتلصق التصاوير في الحيطان تهريباً للحيات والهوام ، وإنما تهرب بذلك الملائكة الكرام»<sup>(٣)</sup> وكذلك في قوله « ولا يحافظ على الصلوات ولا يجتنب الفواحش ولا قرش الحشائش»<sup>(٤)</sup> . وكلاهما قبيح .

ولا نرى تكلفاً ، ولا نحس مجهوداً بذله الذهبي في سجع هذه الكلمات ، وإنما نشعر أنها جرت على كلامه جريان الماء في النهر .

استخدام الاستفهام الاستنكاري :

وهو استفهام على غير حقيقته ، لا يراد منه جواب للسؤال لأن الجواب معلوم للسائل والمسئول على السواء ولكنه يراد منه تقرير الحقائق التي يعلمها الناس جميعاً بيد أنهم

---

(١) انظر صحيح الأعمش (٣٠٢/٢) وانظر الأدب في عصر النبوة والرشادين ص ٨٤٧٦

(٢)

(٣) تشبيه الخسيس بأهل الخميس ص ٢٩ .

(٤) بيان زغل العلم والطلب ص ٧ .



غافلون ، مثل قوله « وأي خير في حديث مخلوط صحيحه بواهية ؟ ، وأنت لا تغليه ولا تبحث عن ناقلية»<sup>(١)</sup> .

أي لا خير في هذا النوع من الحديث ، وتكرر الاستفهام في كتابه الكبائر من ذلك قوله « فمجرد إضافته السبيل هو مرتكب الكبيرة ، فكيف إذا أخذ المال ؟ وكيف إذا جرح أو قتل فعل عدة كبائر ؟»<sup>(٢)</sup>

وكذلك في كبيرة القمار فبعد أن ذكر الميكة علق بسؤال فإذا كان مجرد القول معصية موجبة للصدقة المكفرة ، فما ظنك بالفعل ؟ ..»<sup>(٣)</sup> .

فمن الواضح أن الإمام الذهبي لا يريد باسئلته إجابة من المستمع أو القارئ ولكنه يريد أن يتفكروا في المعصية وأحقيتها بأن تكون كبيرة . بيد أن الذهبي لم يقل ذلك صراحة؛ وإنما صاغ سؤاله ليحرك عقول المستمعين والقراء ليتوصلوا بأنفسهم لتلك الحقائق التي يعلمونها جيداً ولكنهم ينسونها أحياناً ؛ وبذلك يكون تأثير الموعظة فيهم أشد .

---

(١) المرجع السابق ص ٦ .

(٢) الكبائر ص ١١١ .

(٣) المرجع السابق ص ٢١٢ .

## التعجب ،

التعجب هو استعظام زيادة في وصف المتعجب منه، تفرد بها عن أمثاله أو قل نظيره فيها وقد خفي سببها ، مع التعبير عن ذلك بكلام يدل على الدهشة والإستغراب<sup>(١)</sup> .

ومثال استخدام الذهبي للتعجب قوله، ما اطول املك وما اسوء عملك<sup>(٢)</sup> . وذلك كثير في القرآن الكريم . منها قوله تعالى : ﴿ أما صفاكم ربكم بالبنين ﴾ أي لم يفعل ذلك . وقوله : ﴿ اشهدوا خلقهم ﴾<sup>(٣)</sup> هنا يتحدثون مع من اراد بعلمه الدنيا فيذكر الله مستخدماً أسلوب التعجب بسوء عمله وطول أمله .

وهكذا استخدم التعجب في قوله : « وما أغواك أن وافقت هواك ولا يفيئ بالتوبيخ سواك، وما أسقمك وأنت لاتشرب نواك وما أسعدك إن كانت الجنان مأواك ، وما أفضح ديناً شرعه القساقسة ، وما أشد خذلان من مكن من القمار الصبيان<sup>(٤)</sup> .

فهنا يصف بتعجب ويزيد في تعظيم الأمر في نفوس القارئ للموعظة . وهو أسلوب لا يخفى على الإنسان أثره في النفس الإنسانية .

## أسلوب الكناية ،

« يعرف البلاغيون الكناية بأنها : لفظ اريد به لازم معناه مع قرينة غير مانعة من إرادة اللزم مع الملزوم<sup>(٥)</sup> .

الا فهي ترك التصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما يلزمه لينتقل من المذكور إلى المتروك .

(١) النحو المصفي « محمد عبده ، ص ٥٦٣ - مكتبة الشباب ، القاهرة الطبعة الأولى ١٩٧١م .

(٢) بيان زغل العلم والطلب ص ٦ .

(٣) سورة الزخرف آية « ١٩ » .

(٤) تشبيهه الخسيس بأهل الخميس ص ٢٨ .

(٥) دلائل الاعجاز . عبدالقاهر الجرجاني ص ٦٦ .

فالكناية اسلوب فني مزدوج الدلالة يدل ظاهر الفاظه على معني آخر هو غرض المتكلم ومقصده<sup>(١)</sup>. وقيمة الكناية أنها تتمثل المعاني الذهنية في صور ومشاهد حية يدركها المتلقي إدراكاً حسيماً ، ولذا تكون لها فعاليتها في نفسه وتأثيرها في وجدانه<sup>(٢)</sup> .

أما السيوطي فقد أكمل أن الكناية أبلغ من التصريح ، وذكر تعريف أهل البيان لها بأنها لفظاً أريد به لازم معناه<sup>(٣)</sup> وذهب الدكتور عبدالفتاح عثمان إلى أن الكناية في الإصطلاح البلاغي يراد استعمال اللفظ فيما وضع له لا لذاته بل لينتقل منه إلى لازمه فمعناه مراد لغيره مع استعمال اللفظ فيما وضع له<sup>(٤)</sup>

« وقد أدرك الذهبي أن اسلوب الكناية يخاطب العقل فيمثل المعنوي بالمادي مما له الاثر الفاعل في نفس المستمع أو القارئ ونجد الذهبي استخدم الكناية في مواضع كثيرة منها قوله وما أسقمك وأنت لا تشرب دواك » .

فهنا يتحدث عن تارك سنة محمد ﷺ مع وجود الكتاب والسنة وتشبيهه بالمريض الذي يعرف دواه ولا يشربه فكلمة اسقمك كناية عن مرض القلب بترك السنة ، أو كلمة تشرب فكناية عن إتباعه للحق ، بينما كلمة دواك كناية عن السنة، وكل ذلك حتى يستشعر القارئ الواقع من خلال الكناية ، فيتمثل له في صورة حسية تثير في نفسه ضرورة مجاهدة النفس والبحث عن الدواء ، وبذلك تحقق الموعظة فائدتها بشكل أسرع وأقوى .

- 
- (١) في علم البيان . محمد الحفناوي ، ص ١٣٣ ، مكتبة الزهراء ، القاهرة الطبعة الأولى ١٩٨٧م .
  - (٢) المرجع السابق ، ص ١٧١ .
  - (٣) السيوطي وجهوده في علوم القرآن ص ٢٦٠ . د. عبدالعليم هاشم العريني . الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ١٩٩١م .
  - (٤) محاضرات في التشبيه والكناية . د. عبدالفتاح عثمان . دار العلوم . جامعة القاهرة ١٩٨٢م .

## استشهاده بالشعر .

ولأن الواعظ مهمته هي محاولة تغيير سلوك الناس إلى الأفضل . مستخدماً طرق شتى ومن تلك الطرق المساعدة للواعظ الاستشهاد بالشعر الإسلامي فالشعر يساعد على كسر الرتابة التي غالباً تجلب الملل في النفوس وهو يستطيع أن يجعل الإنسان قادراً على أن يرى العالم رؤية جديدة ذلك «لما يمتاز به من خيال ، وبما تنطق أبياته من حكمة لهاتأثير عظيم في النفوس قبيل إثارة الوجدان والشعور بسطاً وقبضاً وترغيباً وترهيباً لا من قبيل إقناع الفكر بالحجة الدامغة والبرهان العقلي ، ولذلك يجعل أثره في إثارة العواطف وتصوير أحوال النفس ولأريب أن ترتاع بصور المحسوس الباهر إذا انضم إليه نغم الوزن والقافية ، الذي يطرب له الإنسان <sup>(١)</sup> .

ولأن الموعظة في جانبها لكبير تخاطب العاطفة قبل العقل والوجدان قبل الأذهان غاية الشعر يعد من أكثر الأساليب ملاءمة لها خاصة إذا نجح الواعظ في اختيار الأشعار المناسبة التي يوردها في ثنايا مواعظه وقد نجح الذهبي في ذلك ولا شك . حيث اختار من الشعر ما يناسب كل موعظة حتى يشعر القارئ أن النثر في الموعظة والشعر فيها من نسج واحد ، فلا يتجاوز موضع يستطيع . إثراته بأبيات وعظمية ، لا وأضافها إليه . من ذلك تعليه عند ترجمته لأحد الصالحين . وما أحلى قوله وأوعظه إذا قال :

إن في الموت والمعاد لشغلاً	وإنكاراً لذي النهي ويلاغاً
فاغتنم خطتين قبل المنايا	صحة الجسم يا أخي والفراغاً <sup>(٢)</sup>
وهكذا عندما ذكر شعر وعظ لإن الجوزي في ثنايا كلماته ليثريها بها .	
يا ساكن الدنيا تاهب	وانتظر يوم الفيراق
وأعدّ زاداً للرحيل	فسوف يُحدى بالرفاق
وزيك الذنوب بأدمع	تنهل من سحب المأفي
يا من أضاع زمانه	أرضيت ما يغني بياقاً <sup>(٣)</sup>

(١) جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب (٢٥/٢) المكتبة التجارية الكبرى . القاهرة بتصريف كبير .

(٢) سير أعلام النبلاء (٢٠١/٢١) .

(٣) سير أعلام النبلاء (٣٧٣/٢١) .

## مواعظه في مسائل طلب العلم من كتاب ست رسائل ،

من الملاحظ أن الإمام الذهبي كان شديد الحرص على توجيه طلاب العلم إلى الإكثار من العلوم الشرعية وتوجيههم إلى أفضل السبل لنيل الغاية منها وفي الوقت نفسه كان حريصاً على تحذيرهم من العلوم التي - كما يرى الذهبي - لا تخدم الشرع، ونصائح في هذا الكتاب تدور في هذا الإطار .

نماذج من مواعظه في قسم « مسائل في طلب العلم » في كتاب ست رسائل :

١ - اعلم أن الإكثار من العلوم المستحبة يوقع فيما لاستحباب فيه . كما أن الإكثار من المباحات موقوع في المكروهات، وكذا الإكثار من استعمال المكروه مؤد إلى مقارفة المحرم، فلا تنسى خبر النعمان بن بشير في المشتبهات والعدل في ذلك : (دع ما يريبك إلى ما لا يريبك)<sup>(١)</sup> .

ولهذا قسم الإمام الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين ج ١ ص ٣٩ العلوم إلى ثلاثة أقسام هي :

- أ - قسم هو مذموم قليله وكثيره .
- ب - قسم هو محمود قليله وكثيره . وكلما كان أكثر كان أحسن وأفضل .
- ج - وقسم يحمد منه مقدار الكفاية ولا يحمد الفاضل عليه والاستقصاء فيه، وهو مثل أحوال البدن فإن منها ما يحمد قليله وكثيره كالصحة والجمال، ومنها ما يذم قليله وكثيره كالقبح وسوء الخلق، ومنها ما يحمد الاقتصاد فيه كبذل المال فإن التبذير لا يحمد فيه .

٢ - من طلب العلم لينال به ما يكون به ويقوته بالمعروف ويأمله ليتفرغ بذلك ، المعلوم لتكلمة المعارف، وليتوافر على العلم فهذا قد يباح - إن شاء الله لمن حسنت نيته غلبت عليه

---

(١) الحديث رواه البخاري في البيوع باب تفسير المشتبهات تعليقاً من قول حسان بن أبي سنان ج ٢ ص ٣٤١ بفتح الأبري .  
- والترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع حديث رقم (٢٥١٨) .  
- ومسند الإمام أحمد ج ٢ ص ١٥٢ .

محبة العلم لذاته فإن العلم قد يحب محبة لا توصف مع قطع نظر محب العلم عن  
الرياسة والمال ومثل هذا يرجى له إن يؤول علمه إلى الخير والنفع به كما قال مجاهد -  
وغير واحد - طلبنا هذا العلم ومالنا فيه بنية ثم رزق الله النية بعد . أي طلبه بلانية  
دنيئة ولا دنيوية، بل محبة في العلم إذ الجهل تأباه النفوس الزكية والفطر الزاكية .  
ويليه رجل طلب العلم محبة فيه ممزوجة بشهوة رياسة ، ونيته حسنة لا ينافس في  
طلب المدارس ، ويقنع بما قدر له، فن جاءه رزق وولاية فرح بها<sup>(١)</sup> .  
وهذه الإشارة الذكية من الذهب تدل على مدى معرفته بحاجات النفس البشرية إلى  
القوت وأحياناً إعاشة من يعولونهم هؤلاء العلماء . وأيضاً نلمح ذكاءه في جواز أخذ  
الأجر على تدريس العلم ولا سيما دور العلم في عصرنا من جامعات وماهد ومدارس  
وفي عصره من مدارس وخانقات ومساجد محتاجة إلى من يدرّس فيها وبدون أخذ  
أجر لا تستقيم الحياة .

---

(١) المرجع السابق ص ٢١١ .

## خصائص أسلوب الموعدة عند الإمام الذهبي

### تعريف الأسلوب :

قال الفيومي في المصباح المنير : الأسلوب بضم الهمزة الطريق والفن . وهو على أسلوب من أساليب القوم أي على طريقة من طرقهم<sup>(١)</sup> .

وقال ابن منظور في لسان العرب : الأسلوب الطريق والوجه والمذهب والجمع أساليب . ويقال أخذ فلان من أساليب القوم أي أفانين منه<sup>(٢)</sup> .

### معنى الأسلوب اصطلاحاً :

الأسلوب هو العلم الذي يتصل بمباشرة التبليغ وتقريب مفاهيم الدعوة من قلوب الناس وعقولهم<sup>(٣)</sup> .

وعلى ذلك فالمقصود بخصائص أسلوب الموعدة عند الإمام الذهبي هو معرفة القدرة على الصياغة من عبارات وجمل وكلمات يستعين بها على تبليغ الرسالة من موعدة ونصح وإرشاد مطعمة بكلام الشارع الحنيف حتى تكون قريبة من قلوب الناس وعقولهم .

ويمكن تحديد الخصائص الأسلوبية للموعدة عند الإمام الذهبي في النقاط الآتية .

### أولاً : الاستشهاد :

#### أ - القرآن الكريم :

يقال : أشهدتُ الرجل على إقرار العُريم واستشهدته بمعنى واحد ومنه قوله تعالى ﴿واستشهدوا شهيدين من رجالكم﴾<sup>(٤)</sup> أي أشهدوا واستشهدت فلاناً على فلان إذا سألته إقامة شهادة احتمالها<sup>(٥)</sup> .

(١) ص ٢٨٤ طبعة دار المعارف ، القاهرة .

(٢) ج ٣ ص ٢٠٥٨ طبعة دار المعارف - القاهرة .

(٣) د. عبدالكريم زيدان : أصول الدعوة ص ٢٩٥ دار البيان - القاهرة ط ٣ سنة ١٩٧٦م .

(٤) سورة البقرة آية ٢٨٢ .

(٥) انظر لسان العرب مادة شهد .

وقال العسكري عن الاستشهاد : « هذا الجنس كثير في كلام القدماء والمحدثين، وهو من أحسن ما يتعاطى من أجناس صنعة الشعر والنثر ومجراه مجرى التذييل لتوليد المعنى وهو أن تأتي بمعنى ثم تؤكد به معنى آخر يجري مجرى الاستشهاد على الأول والحجة على صحته » أ . هـ .<sup>(١)</sup>

#### ب - الحديث الشريف ،

فقد كان رسول الله - ﷺ - أنصح الناس وأبينهم وأحكمهم وكانت حياته كلها هداية ونوراً وكلامه - ﷺ - منزّه عن اللغو والباطل وإنما كان في توضيح قرآن أو تقرير حم أو إرشاد إلى خير أو تنفير من شر أو في حكمة ينتفع الناس بها في دينهم ودنياهم، بعبارة هي في الفصاحة والبلاغة والإيجاز والبيان في الدرجة الثانية بعد القرآن الكريم. وكان لابد للذهبي وهو المدح الكبير أن يستشهد بالحديث الشريف لأنه يعرف قيمته في التأثير في النفوس هداية وإرشاداً حيث كان النبي - ﷺ - أعظم واعظ عرفته البشرية فهامو مثلاً في كتابه الكبائر يذكر الأدلة الناهية من القرآن الكريم ثم من الحديث الشريف .

#### ج - استشهاده بأقوال الصالحين ،

لم يغفل الذهبي الجواهر والدرر الصادرة من السلف الصالح قائلين في ذلك بالنصح والإرشاد حيث ا يتشهد بحديثهم مستغلاً لقبولهم لدى الناس .

#### ثانياً ، النداء ،

والنداء كما عرفه السيوطي هو : طلب إقبال المدعو على الداعي بحرف ناب مناب «أدعو»<sup>(٢)</sup> وهو من الاساليب التي استخدمها القرآن كثيراً في دعوته لقدرته على جلب الدعو ذلك لأنه يشعر بحرص الداعي عليه . وهذا الشعور يفتح قلبه ويستثير عواطفه<sup>(٣)</sup> .

(١) انظر كتاب الصناعتين من ٢٦٧ لأبي هلال بن عبدالله العسكري بتحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل - القاهرة ١٣٧١ هـ - ١٩٥٢ م .

(٢) الإتيقان في علوم القرآن ج ٣ ص ٢٤٦ - ٢٤٧ .

(٣) الدعوة قواعد واصول - جمعية أمين عبدالعزيز - تقديم الاستاذ مصطفى مشهور ص ٦١ .



وقد استخدم الإمام الذهبي النداء إما لترتيق قلب المدعو أو لترهيبه . ففي الحالة الأولى يذكر أداة النداء ويلحقه علمات رقيقة كقوله « يا أخي ما أقواك إن خالفت هواك»<sup>(١)</sup> فهذا النداء يثير العاطفة ويوقظ الضمير .

أما الحالة الثانية فيرفق مع الأداة كلمة تشمئز منها النفوس وذلك كقوله « وأنت لو دعيت يا ناقص الدين»<sup>(٢)</sup> .

والنداء هنا ينبه السامع أو القارئ للموعظة ويشعره أنه المقصود بها دون غيره فيصحو من غفلته ويستقبل الموعظة بأذن مصفية وقلب مفتوح وعقل واع وعندئذ يكون أكثر استعداداً للاستفادة منها .

وهنا تتجلى براعة الذهبي كواعظ حيث يشعر السامع أو القارئ أنه قريب من نفسه، حريص عليه وعلى نصحه وارشاده وأن لناصح الواعظ محب لها حريص على إرشادها إلى الصواب فيكون الإقبال على النصح والواعظ أشد والاستفادة منه أقوى .

---

(١) تشبيه الخسيس بأهل الخميس ص ٣٧ .

(٢) سير أعلام النبلاء (١١/٥٠٠) .

# المبحث الثاني

جهود الإمام الذهبي في الاحتساب

## تهويد :

### الاحتساب في اللفظة :

السحبة بكسر الحاء<sup>(١)</sup> اسم من الاحتساب ، والاحتساب من الحسب يقول العلامة ابن الأثير: « والاحتساب كالأعتداد من العدو والحسبة اسم من الاحتساب كالأعتداد من الأعتداد<sup>(٢)</sup> . »

والاحتساب له عدة معانٍ منها :

- طلب الأجر من الله، وهذا المعنى ورد في عدد من الأحاديث النبوية منها:
  - قوله ص « من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه » .
  - و ص من قام رمضان إيماناً واحتساباً كفر له ما تقدم من ذنبه<sup>(٣)</sup> .
  - ومعنى احتساباً : أي طلباً لوجه الله وثوابه<sup>(٤)</sup> .
  - وكقوله - ص - فيما بلغ عن رب العزة : « ما لعبدي المؤمن عندي جزاءً إذا قبضت صفيه<sup>(٥)</sup> من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة<sup>(٦)</sup> »

### • الإنكار :

يقال : « احتسب فلان على فلان » أي أنكر عليه قبيح فعله<sup>(٧)</sup> ومنه المحتسب<sup>(٨)</sup> أي الذي ينكر على الناس قبائح أعمالهم .

- 
- (١) انظر لسان العرب لابن منظور مادة «حسب» ج١ ص ٦٢٠ - والمصباح المنير مادة «حسب» ص ٥٢ ، والقاموس المحيط مادة «حسب» ج١ ص ٥٦ .
  - (٢) النهاية في غريب الحديث والأثر مادة «حسب» ج١ ص ٣٨١
  - (٣) أخرجه البخاري في الإيمان باب صوم رمضان احتساباً من الإيمان ج١ ص ٩٢ حديث رقم «٣٨» وفي باب تطوع قيام رمضان من الإيمان ج١ ص ٩٢ برقم «٣٧» .
  - (٤) انظر النهاية لابن الأثر ج١ ص ٣٨٢ .
  - (٥) الصفي هو الحبيب المصافي كالولد والأخ وكل من يحبه الإنسان - انظر فتح الباري ج١ ص ٢٤٢ .
  - (٦) أخرجه البخاري في الرقاق باب العمل الذي يبتغى به وجه الله حديث رقم «٢٦٢٤» .
  - (٧) انظر لسانا لعرب لابن منظور ج١ ص ٦٣٢ .
  - (٨) انظر القاموس المحيط ج١ ص ٥٧ .

## الحسبة اصطلاحاً ،

عرفها ابن تيمية بقوله : الحسبة مقصودها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر<sup>(١)</sup> وقال ابن بسام المصري : هي أمر بالمعروف ونهي عن المنكر وإصلاح بين الناس<sup>(٢)</sup> وعرفها الماوردي بقوله : هي أمر بالمعروف إذا ظهر تركه ونهي عن المنكر إذا ظهر فعله<sup>(٣)</sup> .

وقال حاجي خليفة : الحسبة علم بحث الأمور الجارية بين أهل البلد من معاملاتهم التي لا يتم التمدن بدونها بحيث يكون إجراؤها على القانون العدل بحيث يتم التراضي بين المتعاملين وعن سياسة العباد بنهي عن المنكر وأمر بالمعروف بحيث لا يؤدي إلى مشاجرات وتفاخر بين العباد<sup>(٤)</sup> .

وقال الأستاذ محمد المبارك : الحسبة رقابة إدارية تقوم بها الدولة عن طريق موظفين خاصين على نشاط الأفراد في مجال الأخلاق والدين والاقتصاد أي في المجال الاجتماعي بوجه عام للعدل والفضيلة وفقاً للمبادئ المقررة في الشرح الإسلامي وللأعراف في كل بيئة وزمان<sup>(٥)</sup> .

- 
- (١) انظر الحسبة في الإسلام ص ٨ ط دار المعارف بالقاهرة ١٩٧٦ م .
  - (٢) نهاية الرتبة في طلب الحسبة ص ١٠ ط دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٥٩ م .
  - (٣) الاحكام السلطانية ، ص ٢٤٠ ط المطبعة المحمودية التجارية . مصر ، وانظر الاحكام السلطانية لأبي يعلى الحنبلي ص ٢٨٤ .
  - (٤) كشف الظنون جـ ١ ص ٦٦٥ ط استانبول ١٩٤١ م .
  - (٥) الدولة ونظام الحسبة عند ابن تيمية ، ص ٧٣ ، ٧٤ ط دار الفكر دمشق .

## وجوب الحسبة ،

إتفق الفقهاء على أن حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- أي الحسبة- هو الوجوب<sup>(١)</sup> بل إن المعتزلة لم تجعله واجباً فحسب بل جعلوه أصلاً من أصول الإيمان عندهم<sup>(٢)</sup> .

ومقتضى هذا الوجوب أن الحسبة للأفراد ليست حقاً يأتونه إن شاؤوا ويتركونه إذا شاؤوا ، وليس مندوباً يحسن للأفراد إتيانه أو تركه وإنما هو واجب على الأفراد ، أي ليس لهم أن يتخلوا عن أدائه فهو مفروض لا محيص لهم من القيام بأعبائه سواء في ذلك الحكومات أو الجماعات أو الأفراد<sup>(٣)</sup> .

وإذا كان الفقهاء قد اتفقوا على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا أنهم اختلفوا في تحديد هذا الوجوب عن وجهين : وجه يرى أنها فرض عين ، والآخر يرى أنها فرض كفاية وقد انحصر هذا الخلاف في تحديد الصفة للحسبة وهل فرض عين كالصلاة والزكاة والحج ... إلخ ، أم هي فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين مثل الجهاد والصلاة على الميت وغير ذلك .

## أهمية الاحتساب ،

لما كانت مهمة الإنسان في الحياة قائمة على إثبات ما هو دائم عند الله على ما هو عاجل زائل ، وعلى الجهاد في سبيله ، وهما من الأمور الشاقة على النفس ، اقتضت

(١) راجع تفسير ابن كثير ج١ ص ٢٩٠ والأحكام السلطانية للماوردي ص ٢٤٠ وإحياء علوم الدين للفضالي ج٧ ص ١١٨٧ ، والحسبة لابن تيمية ص ٨ ومقدمة ابن خلدون ص ٢١٠ ، وشرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ط مكتبة وهبة بمصر الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ - ١٩٦٥م ص ٧٤١ وتفسير المنار لرشيد رضا ج٤ ص ٢٩ .

(٢) أصول الإيمان عند المعتزلة : التوحيد ، المنزلة بين المنزلتين ، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، الوعد والوعيد .  
- انظر الشهرستاني بهامش الفصل لابن حزم ج١ ص ٥٢ ط مكتبة السلام العلامة - مصر بدون تاريخ .

(٣) من أهم من قال بهذا الرأي أبو بكر الجصاص في أحكام القرآن ص ٣١٥ المطبعة البهائية ١٣٤٧هـ

الحكمة تشريع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كعامل يعيد الإنسان إلى الحق والعمل تحت سلطان الله تعالى وحده ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصل جامع لكل أعمال الحسبة في الإسلام يشمل الجوانب المختلفة في العقيدة والتشريع والأخلاق والاقتصاد .

ذلك أنه لما كانت رسالة سيدنا محمد -ص- خاتمة الرسالة شاملة للناس كافة اقتضت الحكمة تحصيلها من كل عوامل الهدف والإغفال فكان ذلك بتشريع الأمر والنهي .

والمتتبع للنصوص في الكتاب والسنة يلاحظ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو مناط الحسبة وردت مقرونة بالعلل والدواعي التي دعت إلى تشريعه بالآثار المترتبة على إهماله إما صراحة أو دلالة . وفي القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة إضافة إلى إفادتها وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، دلالة على المصلحة المترتبة على القيام به، أو المفسدة المترتبة على إهماله ، وهذه المصلحة يمكن حصرها فيما يلي :

- ١ - الألفة بين أفراد المجتمع التي لا تتحقق إلا في الإعتصام بالكتاب بإعتباره الأصل الرئيسي الذي أنزله الله محققاً لجميع المصالح الفردية والجماعية .
- ٢ - تحقيق القدوة الحسنة التي اعتبرها الكتاب والسنة عصمة للمسلمين من الفساد وذهاب الربح .
- ٣ - ربط شرعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأصل الإيمان الذي هو قوام الدين وقاعدته وتحديد درجة العقيدة على أساس موقف الإنسان من قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .
- ٤ - في إهتمام قاعدة الأمر بالمعروف والنهي تمكن عوامل النزاع وضرب القلوب بعضها ببعض وتحكم العداوة والبغضاء ، ويتوقف المد الإسلامي ، وبالتالي يتمكن الأعداء من بلاد المسلمين وإزالة دولتهم وتوهين شوكتهم وإعفاء مضارتهم<sup>(١)</sup> .

---

(١) د. عبدالله محمد عبدالله : ولاية الحسبة في الإسلام ص ٦٨ ، ٦٩ ط ١ ١٩٩٦م مكتبة الزهراء ، القاهرة .

كما أن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يؤدي إلى إنتشار المنكرات وظهورها وخفاء المعروف واندثاره ، فإذا اشربت القلوب هذا المسلك جاهروا المعروف وأهله بالعداء ووالوا المنكر وأهله وتردوا في بؤرة النفاق التي أفصح الكتاب الكريم عنها في قوله تعالى : ﴿المنافقون والمنافقات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون﴾<sup>(١)</sup> .

فأفاد سبحانه أن المهديين لأصل الأمر والنهي هم إلي انحلال وانحذار وإلى غضب مقيم من الله تعالى ففقدوا سمة الإيمان وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما فقدوا سمة البذل والعطاء بقبض أيديهم عنه فصاروا عاملاً من عوامل التفكك والتفرق التي تنتهي بالمسلمين إلى التنازع وذهاب الريح<sup>(٢)</sup> .

ولذلك يعتبر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصل الدين وأساس رسالة المرسلين، ولو طوى بساطه وأهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة واضمحلت الديانة وعمت الفوضى وهلك العباد<sup>(٣)</sup> ، وهو عمدة من عمد المسلمين وخلافة رب العالمين والمقصود الأكبر من الدين<sup>(٤)</sup> .

لذا كانت مشروعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر موضع اتفاق الأئمة، حتى إن الإمام النووي وابن حزم والمعتزلة حكوا الاجماع على وجوبه<sup>(٥)</sup> .

### نشأة الاحتساب .

الاحتساب بمعناه العام وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أخذ في الظهور كغيره من المبادئ ليساعد على تحقيق مصالح الأمة، وقد قام بها الرسول ﷺ وكان هناك عامل

(١) سورة التوبة آية ٦٧ .

(٢) ولاية العسبة في الإسلام ص ٧٥ .

(٣) أبو حامد الغزالي : إحياء علوم الدين ج ٢ ص ٣٩١ ط القاهرة ١٩٥٧م .

(٤) أبو بكر بن العربي في شرح الترمذي ج ٩ ص ١٣ ط دار الكتب لمصرية ١٩٦١م .

(٥) شرح النووي على مسلم ج ٢ ص ٢٢ ط القاهرة ١٩٩٠م ، والصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ، ج ٤ ص ١١ ط المطبعة الأدبية بالقاهرة ١٣١٧هـ .

على اسوق في عهده ص وفي عهد الخلفاء الراشدين، كما كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حقاً للجميع بحيث كلما رأوا الحاجة داعية إليه لا تحتل سكوتاً في مختلف الأمور، أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وكان الخليفة نفسه ينمي في رعيته الجراءة في الحق ويحثهم على تقويمه إذا اعوج والتحليل من بيعته إذا خرج عن حكم الله<sup>(١)</sup> .

وفي عهد المماليك حيث كان ذلك العهد من أسوء العهود التي شهدتها الأمة الإسلامية من فوضى اجتماعية وسياسية وأخلاقية ، وفيها انحدرت ولاية الحسبة كغيرها من الولايات ، وكانت تخضع لتيارات عجيبة إلى درجة أن والي الحسبة كان يعزل منها ويعود إليها مرة تلو الأخرى في العام ، بجانب حصرها في عدد معين من الأشخاص يتعاقبون عليها عزلاً وتولية ، فقد كانت وظيفة لا يتولاها إلا من وافق هوى المماليك ويعزل من لا يوافقهم<sup>(٢)</sup> .

### شروط الحسبة والمحتسب ،

ذهب المعتزلة إلى أن شروط الحسبة هي : العلم بالمعروف والمنكر ، ووجود المنكر وظهوره ، والعلم بأن الأمر والنهي لا يؤديان إلى مضرّة أعظم كموت جماعة من المسلمين عند النهي ، وأن يعلم أن لقوله تأثيراً في إخفاء المنكر وإظهار المعروف وأن يعلم أنه لا يؤدي إلى مضرّة في ماله وبدنه<sup>(٣)</sup> .

### أما الشروط الواجب توافرها في المحتسب فهي :

- ١ - التكليف « الإسلام ، البلوغ ، العقل » .
- ٢ - الحرية .
- ٣ - الذكورة

(١) الخزامي : كتاب تخريج الدلالات السمعية، ص ٢٩٦ ط مصر ١٩٢٤م.

(٢) ولاية الحسبة في الإسلام ص ١٠٣، ١٠٤ .

(٣) شرح الأصول الخمسة للقاضي عبدالجبار بن أحمد ، تحقيق د. عبدالكريم عثمان ط القاهرة ١٩٨٦م.



- ٤ - العلم .  
 ٥ - العدالة .  
 ٦ - القدرة على القيام بالمهام .  
 ٧ - أن يكون ذا رأي وصرامة وخشونة في الدين .  
 ٨ - أن يكون مائوناً من ولى الأمر<sup>(١)</sup> .

### الحسبة سقوطها وجوباً واستحباباً ،

الأمور التي يسقط فيها وجوب الحسبة هي :

أ - أن يعلم المسلم أن إنكاره لا يفيد في رفع المنكر ، أو أن أمره بالمعروف لا يفيد في إظهار المعروف، ويغلب على ظنه أنه يصاب بمكروه في ماله أو عرضه أو أطرافه من أجل أمره أو نهي، وهنا يسقط عنه الوجوب بالإجماع ، والاستحباب كذلك بل قد تحم في هذه الحالة لدخولها في عموم آية التهلكة<sup>(٢)</sup> .

وعلى المحتسب أن يهجر مواطن المنكر، بل عليه أن يهجر البلد إذا علم أنه يعمل على مساعدة السلاطين وأعوانهم في المنكرات<sup>(٣)</sup> .

ب - أن يعلم المحتسب أن إنكاره لا يفيد ولا يخاف أن يصاب بمكروه ففي هذه الحالة يسقط عنه وجوب الحسبة، أما استحبابها فلا ، وهذا رأي جمهور أهل السنة وبعض علماء المعتزلة ، لأن فيها إظهار لشعائر الإسلام ، أو لأنها بمنزلة استدعاء الغير إلى الإسلام<sup>(٤)</sup> .

(١) ولاية الحسبة في الإسلام ص ١٣٧ .

(٢) سورة آية .

(٣) إحياء علوم الدين ج ٢ ص ٤٠٧ .

(٤) القاضي عبد الجبار بن أحمد: شرح الأصول الخمسة، تحقيق د. عبد الكريم عثمان ص ١٤٦ ط القاهرة .

ج - أن يخاف المحتسب مكروهاً ويفيد إنكاره : وحينئذ يسقط الوجوب وتستحب الحسبة، وقال المعتزلة : سقوط الوجوب يتوقف على حال الشخص فإن كان ممن لا يؤثر الشتم أو الضرب فيه فإن الوجوب لا يسقط عنه، وإن كان يحط من مرتبته سقط الوجوب، إلا إذا كان في إذلاله إعزاز للدين، كما حدث للإمام الحسين بن علي رضي الله عنهما فإنه لا يسقط، ولهذا يباهي المسلمون سائر الأمم فيقولون : لو لم يبق من ولد رسول الله ﷺ إلا سبط واحد فلم يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى مات في سبيله<sup>(١)</sup>.

### المقصود بجهود الإمام الذهبي في الاحتساب :

المقصود بجهود الإمام الذهبي في الاحتساب ما ورد في مؤلفاته من أقوال تفيد معنى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومن ذلك ما ورد في رسالته اللطيفة « تشبيه الخسيس بأهل الخميس » من إنكار شديد على جهلة المسلمين بقول بليغ وعبارة رادعة للجهلاء والمبتدعين مثل قوله : « فكيف تطيب نفسك بالتشبيه بقوم هذه صفتهم وهم خطب جهنم؟ ولو قيل لك : تشبه بمسخرة - وهو ما يجلب السخرية والهزاء - لاتفت من ذلك وغضبت وأنت تشبه بأقلف - لم يُخْتَن - عابد صليب وتكسو صفارك وتفرحهم وتصبغ لهم البض وتشتري البخور وتحفل ليعد عدوك كأحتفالك لعيد بلنيك<sup>(٢)</sup> .

ويعد أن يورد الكثير من النصوص للتدليل على نهى النبي - ص - عن التشبيه بالمشركين يقول : « ومن المعلوم أن في شروط عمر - رضي الله عنه - أن أهل الذمة لا يظهرون أعيادهم واتفق المسلمون على ذلك<sup>(٣)</sup> . وفي ذلك إنكار واضح للمنكرات التي كانت في زمانه ولا يزال يواقعها كثير من جهلة المسلمين .

(١) المرجع السابق . ص ١٤٦ .

(٢) تشبيه الخسيس بأهل الخميس للذهبي تحقيق علي حسن عبدالحميد ص ٢٢ ط دار عمار للنشر والتوزيع ط ألو١٤٠٨ هـ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٧ - ٢٨ .

ثم يذكر الدليل على وجوب الاحتساب فيقول : وقال رسول الله - ﷺ - « إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقابٍ من عنده»<sup>(١)</sup> .

وإذا كان الذهبي رحمه الله لم يشغل في حياته منصب المحتسب ، ولم نلمح في سيرته مواقف كثيرة في الاحتساب ، لأنه كان إلى حد كبير في منأى عن الحياة العامة والانشغال بقضاياها المختلفة مكتفياً بأداء دوره الدعوي كمدرس ومؤلف، إلا أننا نلمح خلال مؤلفاته الكثير من الإشارات التي تؤكد معرفته بالمعروف والمنكر ووعيه بضرورة الأمر والنهي، وإذا كان الذهبي لم يترك لنا كتاباً مستقلاً في الاحتساب كما فعل شيخه ورفيقه ابن تيمية الذي وضع كتاب «الحسبة» إلا أنني سوف أحاول في هذا المبحث أن ألقى الضوء على جهوده في الاحتساب من خلال مؤلفاته المختلفة .

**وينقسم هذا المبحث إلى مطلبين :**

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٣٠٥٩) والنسائي في الكبرى كما في تحفة الأشراف ج٥ ص ٣٠٣ - وابن ماجة برقم (٤٠٠٥) - وأبو داود برقم (٤٣٣٨) - والإمام أحمد في المسند ج١ ص ١٦ ، ٢٩ ، ٣٠ . ابنهبان برقم (١٨٣٧) عن أبي بكر وسنده صحيح .

# المطلب الأول

## الذهبي وتعريف الناس بالمنكر

يمكننا القول أن تبين المنكر وتعريف الناس به هو أول مرحلة من مراحل النهي عن المنكر ، فكثير من الكبائر بل عامتها يجهل خلق من الأمة تحريمه وما بلغه الزجر فيه ولا الوعيد ، فينبغي للعالم ألا يستعجل على الجاهل بل يرفق به ويعلمه مما علمه الله، وقد تحمل الذهبي مسؤولية النهي عن المنكر في بيانه للناس وإيضاحه لهم مع الأدلة ويتضح ذلك في قوله :«فإذا عرف هذا موبقات الكبائر وحذر منها وأركان الفرائض واعتقدها فهو سعيد ، فينبغي للعبد أن يحمد الله تعالى على العافية، فإن قيل : هو فرط لكونه ما سأل عما يججب عليه! قيل : قيل ما دار في نفسه ولا استشعر أن سؤال من يعلمه يجب عليه ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور، فلا يأت أحد إلا بعد العلم وبعد قيام الحجة عليه، والله لطيف بعباده روف بهم، قال تعالى : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾<sup>(١)</sup> .

وقد كانت سادة الصحابة بالحبشة وينزل الواجب والتحريم على النبي - ﷺ - فلا يبلغهم إلا بعد أشهر ، فهم في تلك الأشهر معذورون بالجهل حتى بلغهم النص، وكذا يعذر بالجهل من لم يعلم حتى يسمع النص<sup>(٢)</sup> .

يخطو الذهبي خطوات تعليمية منهجية في كتاباته الدعوية . ويعتبر كتاب الكبائر . أهم وأوضح جهود الإمام الذهبي في هذا المجال ، ففي مطلع الحديث عن الكبائر « يعرف ماهيتها» فيقول بأنها : « ما نهى الله ورسوله عنه في الكتاب والسنة وكان فيه حد في الدنيا أو وعيد في الآخرة ، أو نفى إيمان ، أو لعن، أو تبرؤ، أو ليس منها<sup>(٣)</sup> ثم يبشر بثواب

(١) الإسراء آية ١٥

(٢) الذهبي : الكبائر من ٦٠٥ تحقيق د/ أسامة محمد حمزة دار الفتح الطبعة الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

(٣) المصدر السابق ص ٣ .

احتساب الكبائر من تكفير للسيئات والمغفرة مستشهداً أولاً بآيات منا لقرآن الكريم ثم بأحاديث شريفة، ويتدرج إلى حصر عدد الكبائر من سبعة إلى سبعين .

وناقش أقوال الفقهاء في عدد الكبائر فقال : « قيل هي سبع واحتجوا بقول النبي - ﷺ - : « اجتنبوا السبع الموبقات، قيل يا رسول الله وما هي ؟ قال : الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل مال اليتيم وأكل الربا والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»<sup>(١)</sup> .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : هي إلى السبعين أقرب منها إلى السبع . وصدق والله ابن عباس ، وأما الحديث فما فيه حصر الكبائر<sup>(٢)</sup> ، وقد أخذ الذهبي بقول ابن عباس في عدد الكبائر واعتبرها سبعين كبيرة وحددها في :

- ١ - الشرك الأكبر .
- ٢ - الرياء .
- ٣ - الكبر ولا فخر والخيلاء والعجب والتيه .
- ٤ - البغي .
- ٥ - المكر والخديعة .
- ٦ - الأمن من مكر الله .
- ٧ - اليأس من رحمة الله .
- ٨ - التعلم للدنيا وكتمان العلم .
- ٩ - الكذب على الله وعلى رسول الله ﷺ .
- ١٠ - التكذيب بالقدر .
- ١١ - الغدر وعدم الوفاء بالعهد .

(١) رواه البخاري في صحيحه ج ٢ ص ٢٠١ ط دار الشعب التخريج بصحيح .

(٢) الذهبي : الكبائر ص ٢٣ .

- ١٢- الجِدال والمرء واللدد .
- ١٣- عدم التنزه من البول .
- ١٤- تعمد ترك الصلاة .
- ١٥- ترك صلاة الجماعة من غير عذر .
- ١٦- الإصرار على ترك صلاة الجماعة .
- ١٧- لبس الحرير والذهب للرجال .
- ١٨- تشبه النساء بالرجال وتشبه الرجال بالنساء .
- ١٩- إسبال الإزار والثوب واللباس والسراويل .
- ٢٠- اللطم والنياحة وشق الثوب وحلق الرأس .
- ٢١- منع الزكاة .
- ٢٢- جباية المكوس .
- ٢٣- المن بالصدقة .
- ٢٤- منع فضل الماء .
- ٢٥- إفتار يوم من رمضان بلا عذر .
- ٢٦- ترك الحج مع القدرة عليه .
- ٢٧- الذبح لغير الله عز وجل .
- ٢٨- أكل الربا .
- ٢٩- أكل الحرام وتناوله على أي وجه كان .
- ٣٠- نقص الكيل والزرع وما أشبه ذلك .
- ٣١- أكل مال اليتيم وظلمه .
- ٣٢- أذى الجار .
- ٣٣- أذى المسلمين وشتيمهم .
- ٣٤- أذى أولياء الأمانة .

- ٣٥- الإضرار في الوصية .
- ٣٦- الخيانة في الأمانة .
- ٣٧- النميمة .
- ٣٨- رضا المطلق بالتحليل وطواعية المرأة المطلقة .
- ٣٩- التصوير في الثياب والحيطان والحجر والدرهم .
- ٤٠- نشوز المرأة على زوجها .
- ٤١- الديانة والقيادة بين الرجال والنساء .
- ٤٢- قذف المحصنات .
- ٤٣- اللعن .
- ٤٤- تبرؤ الإنسان من نسبه .
- ٤٥- عقوق الوالدين .
- ٤٦- هجر الأقارب .
- ٤٧- إباق العبد .
- ٤٨- الاستطالة على الضعيف والمملوك والجارية .
- ٤٩- قتل النفس .
- ٥٠- قتل الإنسان نفسه .
- ٥١- السحر .
- ٥٢- تصديق الكاهن والمنجم .
- ٥٣- غش الإمام الرعية وظلمه لهم .
- ٥٤- الظلم .
- ٥٥- الزنا .
- ٥٦- اللواط .
- ٥٧- السرقة .

- ٥٩- شرب الخمر .
- ٦٠- التسمع على الناس ما يسرون .
- ٦١- الفرار من الزحف .
- ٦٢- الغلو من الغنيمة .
- ٦٣- الدلالة على عورات المسلمين .
- ٦٤- اليمين الغموس .
- ٦٥- الظلم في القضاء .
- ٦٦- أخذ الرشوة على الحكم .
- ٦٧- شهادة الزور .
- ٦٨- الكذب الذي فيه حد أو إضرار .
- ٦٩- القمار .
- ٧٠- سب أحد الصحابة رضوان الله عليهم .

مع بيان أن بعضها أكبر من بعض وأكبرها جميعاً الشرك بالله ، وفي حديثه عن كل كبيرة من هذه الكبائر ، يبدأ الذهبي بتعريفها ثم يستدل على قوله بما ورد في شأن هذه الكبيرة من آيات قرآنية وأحاديث نبوية وآراء للصحابة أو للتابعين .

فمثلاً يقول في الكبيرة الأولى « الشرك الاكبر »

« وهو أن يجعل لله نداً ويعبد معه غيره من حجر أو شجر أو شمس أو قمر أو نبي أو شيخ أو نجم أو ملك أو غير ذلك ، وهو أكبر الكبائر أعادنا الله منه بكمه وكرمه وختم لنا بالحسن في عافية بلا محنة ، إنه أكرم وأرحم رحيم»<sup>(١)</sup> .

ثم يورد الإمام الذهبي من القرآن الكريم ما يستدل به على أن الشرك بالله من

(١) الكبائر ص ٧ .



الكبائر، قال الله تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾<sup>(١)</sup> .

وقوله : ﴿ إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ﴾<sup>(٢)</sup> .

وقوله : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾<sup>(٣)</sup> ، وقال تعالى : ﴿ إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة، وما آواه النار، وما للظالمين من أنصار ﴾<sup>(٤)</sup> وقال ﷺ : « يا ابن الخطاب إذهب فناد في الناس : إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون »<sup>(٥)(٦)</sup> .

وفي كبيرة الرياء يورد الذهبي قول الله تعالى مخبراً عن المنافقين ﴿ يراعون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً ﴾<sup>(٧)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون، الذين هم يراعون ويمنعون الماعون ﴾<sup>(٨)</sup> ، وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالبن والأذى كالذي ينفق ما له رياء الناس ﴾<sup>(٩)</sup> .

ثم يروى الذهبي حديثاً ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :  
«إن أول الناس يقضى يوم القيامة : رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها، قال  
فما عملت فيها؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال فلان  
جري، فقد قيل ، ثم أمر به فسجى على وجهه حتى ألقي في النار ورجل تعلم العلم وعلمه

(١) النساء آية ٤٨ .

(٢) الزمر آية ٥٣ .

(٣) لقمان آية ١٣ .

(٤) المائدة آية ٧٢ .

(٥)(٦) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ج٢ ص ١٢٧ ، ط دار المعارف بتحقيق أحمد شاكر .

(٧) النساء آية ١٤٢ .

(٨) الماعون آية ٤-٧ .

(٩) البقرة آية ٢٦٤ .

وقرأ القرآن، فأتى به فعرفه نعمة فعرفها .

قال : فما عملت فيها؟

قال : تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن .

قال ك كذبت ولكنك تعلمت ليقال : عالم، وقرأت القرآن ليقال : هو قارئ ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى في النار .

ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال، فأتى به فعرفه نعمة فعرفها ،

قال : فما فعلت فيها؟

قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك .

قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال : هو جواد ، فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى في النار <sup>(١)</sup> .

وفي هذا لحدث يعرض الرسول ﷺ ثلاثة نماذج لأشرف الأفعال وأنبأها وهي الشهادة والعلم وبذله والكرم وبذل المال في سبيل الله، ولكن اصحاب هذه الأفعال يكون مصيرهم النار لأنهم لم يفعلوا هذه الأفعال الشريفة ابتغاء وجه الله ولكن رياء للناس ليقال : جريء وعالم وجواد .

ثم يورد الذهبي قول رسول الله ﷺ : « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر

قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : الرياء .

يقول الله تعالى إذا جزى الناس بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراحون في الدنيا

فانظروا هل تجدون عندهم جزاء <sup>(٢)</sup> .

---

(١)(٢) رواه مسلم والنسائي وغيرهما ، المنذري : الترغيب والترهيب ج١ ص ٢٩ تحقق الشيخ محمد منير الدمشقي ط منبر الدمشقي دمشق ١٩٨٠م .

(٣)(٤) رواه الإمام أحمد بإسناد جيد ، الترغيب والترهيب ط ١ ص ٢٤ .

ولا يكتفي الذهبي بما يورد من آيات قرآنية وأحاديث نبوية وإنما يروى أقوالاً  
للصحابة والحكماء، فيقول : قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : « للمرائي ثلاث علامات،  
يكسل إذا كان وحده، وينشط إذا كان في الناس، ويزيد في العمل إذا أثنى عليه وينقص إذا  
ذم به»<sup>(١)</sup> .

ويروى قول بعض الحكماء : « مثل الذي يعمل للرياء والسمعة، كمثل الذي يملأ كيسه  
حصاً ثم يدخل السوق ليشتري به ، فإذا فتحه قدام البائع فإذا هو حصى وضرب به وجهه  
ولا منفعة له في كيسه سوى ما قاله الناس له : ما أملأ كيسه ! ولا يعطى به شيئاً»<sup>(٢)</sup> .

وهكذا يستمر الذهبي في إيراد النصوص التي توضح طبيعة الرياء وتبين خطورتها  
على دين المسلم، وذلك لأن الناس ربما انفقوا أعمارها وأموالها ومجهودها في أعمال شريفة  
ثم لا تثاب عليها، لأنها لم تكن خالصة لوجه الله، فأراد الذهبي أن يبين لهم أثر الرياء في  
إحباط الأعمال .

وفي كبيرة أكل الربا يورد الذهبي بعض الآيات التي تناولت الربا وحذرت من أكله  
وبينت عاقبة التعامل فيه .

ومنها قول الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا  
الله لعلكم تفلحون ﴾<sup>(٣)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذين يتخبطه الشيطان  
من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا ﴾<sup>(٤)</sup> . ويفسر الذهبي الآية ليوضح أكثر ذلك

(١) المصدر السابق ص ١٦ .

(٢) المصدر السابق ص ١٤ .

(٣) آل عمران آية ١٣٠ .

(٤) البقرة آية ٢٧٥ .

المنكر العظيم فيقول : لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلاك ما يقوم الذي مسه الشيطان  
وصرعه لأنهم استحلوا ما حرم الله، فإذا بعث الله الناس يوم القيامة خرجوا مسرعين إلا  
أكله الربا، فإنهم يقومون ويسقطون ، كما يقوم المصروع، كلما قام صرع، لأنهم لما أكلوا  
الحرام في الدنيا أرباه الله في بطونهم حتى أثقلهم يوم القيامة، فهم كلما أرادوا النهوض  
سقطوا يوريدون الإسراع مع الناس فلا يقدر<sup>(١)</sup> .

ويروي الإمام الذهبي حديثاً « عن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال : قال النبي  
ﷺ رأيت الليلة رجلين أتياي فأخرجاني إلى أرض مقدسة، فانطلقنا حتى اتينا على نهر دم  
فه رجل قائم وعلى شط النهر رجل بين يديه حجارة ، فأقبل الرجل الذي في النهر، فإذا  
أراد أن يخرج رمى الرجل بحجر في فيه فرده حيث كان، فجعل كلما جاء ليخرج رمى في  
فيه بحجر فريجع كما كان فقلت : ما هذا الذي رأيت في النهر؟ قال : أكل الربا»<sup>(٢)</sup> .

ومن تمام ايضاح المنكر أن يشرك ويبين عاقبة مرتكب هذا المنكر، فقال شارحاً  
الحديث : فجعل عذاب أكل الربا من حين يموت إلى يوم القيامة بالسباحة في نهر الدم ويلقم  
بالحجارة وهي المال الحرام الذي جمعه في الدنيا ، يكلف المشقة فيه هذا العذاب له في  
البرزخ قبل يوم القيامة مع لعنة الله له كما صح عن رسول الله من أنه لعن أكل الربا  
وموكله وكاتبه وشاهديه وقال : « هم سواء»<sup>(٣)</sup> .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه ذكر حديثاً عن النبي ﷺ وقال فيه : « ما ظهر في  
قوم الزنا والربا إلا أكلوا بأنفسهم عذاب الله » أي أن الزنا وأكلي الربا يستجلبون على  
أنفسهم عذاب الله فيحل فيهم جزاء ما فعلوا .

(١) الكبائر ص ١٠٧ .

(٢) رواه البخاري ، الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٤٨ ، ٤٩ .

(٣) (٤) رواه مسلم ، الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٤٩ .

وعن عبدالله بن حنظلة رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « درهم ربا ياكله الرجل وهو يعلم أشد من ستة وثلاثين زنية »<sup>(١)</sup> .

أي أن القليل من الربا ياكله الرجل أعظم إثماً من الزنا ستة وثلاثين مرة .

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « الربا اثنان وسبعون باباً أدناها مثل إتيان الرجل أمه، وإن أربى الربا استطالة المرء في عرض أخيه »<sup>(٢)</sup> .

ثم يروى الذهبي أقوالاً لبعض الصحابة في الربا ، منها : عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : الزائد والمستزيد في النار، ويعقب الذهبي بقوله : يعني الآخذ والمعطي فيه سواء ، نسأل الله العافية .

وقال قتادة : إن أكل الربا يبعث يوم القيامة مجنوناً وذلك علم لاكل الربا يعرفهم به أهل الموقف<sup>(٣)</sup> .

ومن خلال أقوال الصحابة أيضاً يتعرض الإمام الذهبي للصور المستترة للربا، فيورد قول ابن مسعود رضي الله عنه : « إذا كان لك على رجل دين فأهدى لك شيئاً فلا تأخذه فإنه ربا »<sup>(٤)</sup>، أي أن هدية المدين للدائن نوع من الربا، لأنه ربما أهدى وهو يرجو من ذلك صبر الدائن عليه أو نحو ذلك .

وقول ابن مسعود أيضاً : « من شفع لرجل شفاعاً فأهدى إليه هدية فهي سحت وتصديقه من قوله ﷺ : « ومن شفع لرجل شفاعاً فأهدى له عليها فقبلها فقد أتى باباً عظيماً من أبواب الربا »<sup>(٥)</sup> .

(١) رواه أحمد والطبراني ، الترغيب والترهيب ، ج ٣ ص ٥٠ .

(٢) رواه الطبراني ، الترغيب والترهيب ، ج ٣ ص ٥١ .

(٣) الكبائر ص ١٠٨ .

(٤) المصدر السابق ص ١٠٩ .

(٥) أخرجه أبو داود في سننه ج ٣ ص ٢٩٢ ط المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، ١٩٦٨ .

أي أن الهدية في مقابل الشفاعة التي يشفعها الرجل لأخيه نوع من أعظم أنواع الربا ، لأنه لو لم يشفع له لم يُهدَ إليه شيئاً .

وفي كبيرة نشوز المرأة على زوجها يورد الذهبي قول الله تعالى : ﴿واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً إن الله كان علياً كبيراً﴾<sup>(١)</sup> .

قال الواحدي رحمه الله تعالى : «النشوز ههنا معصية الزوج وهو الترفع عليه بالخلاف» .

وقال عطاء : هو أن لا تتعطر له وتمنعه نفسها وتتغير ما كانت تفعله من الطواعية ، «فعظوهن» أي بكتاب الله وذكرهن ما أمرهن الله به .

«واهجروهن في المضاجع» ، قال ابن عباس : هو أن يوليها ظهره في الفراش ولا يكلمها .

وقال الشعبي ومجاهد : هو أن يهجر مضاجعها فلا يضاجعها .  
«واضربوهن» : ضرباً غير مبرح ، وقال ابن عباس : أدباً مثل اللكزة<sup>(٢)</sup> .  
وللزوج أن يتلافى نشوز إمرأته بما أذن الله له في هذه الآية « فإن أطعنكم» أي فيما يلتمس منهن « فلا تبغوا عليهن سبيلاً» قال ابن عباس : فلا تتجنوا عليهن العلل<sup>(٣)</sup> .

ثم يروى الذهبي من الأحاديث النبوية ما يؤكد لهم وجوب طاعة الزوجة لزوجها ومنها قوله ﷺ : «ثلاثة لا تقبل صلاة ولا تصعد لهم إلى السماء حسنة» العبد الأبق حتى يرجع إلى مواليه فيضع يده في أيديهم ، والمرأة الساخط عليها زوجها حتى يرضى ،

(١) النساء آية ٣٤ .

(٢) لكزة لكزة: ضربة بجمع كفة في صدره، المعجم الوجيز ص ٥٦٣ ط مجمع اللغة العربية .

(٣) الكبائر ص ١٤٨ .

والسكران حتى يصحو»<sup>(١)</sup> ومن الحديث أن سخط الرجل على زوجته يحبط عملها فلا تقبل صلاتها ولا ترفع حسناتها في كل أعمالها .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا يحل لامرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه ولا تأذن في بيته إلا بإذنه»<sup>(٢)</sup>، ومعنى شاهد أي حاضر غير غائب .

وذلك في صوم التطوع فلا تصوم حتى تستأذنه لأجل وجوب حقه وطاعته وقال ﷺ «لو كنتُ امرأةً أحداً أن يسجدُ لأحدٍ لأمرتُ الزوجةَ أن تسجدَ لزوجها»<sup>(٣)</sup> .

ثم يروى الذهبي قول عائشة رضي الله عنها : «يا معشر النساء لو تعلمن بحق أزواجكن عليكن ل جعلت المرأة منكن تمسح الغبار عن قدمي زوجها بخد وجهها»<sup>(٤)</sup> .

ويعقب الإمام الذهبي بقوله : «وينبغي للمرأة أن تعرف أنها كالمملوك للزوج، فلا تتصرف في نفسها ولا ماله إلا بإذنه، وتقدم حقه على حقها ، وحقوق أقاربه على حقوق أقاربها ، وتكون مستعدة لتمتعه بها بجميع أسباب النظافة ولا تفتخر عليه بجمالها ولا تعيبه بقبح إن كان فيه .

ويجب على المرأة أيضاً دوام الحياء مع زوجها، وغض طرفها قدامه، والطاعة لأمره والسكوت عند كلامه ، والقيام عند قدومه، والابتعاد عن جميع ما يسخطه ، والقيام معه عند خروجه وعرض نفسها عليه عند نومه، وترك الخيانة له في غيبته في فواشه وماله وبيته، ويجب عليها أن تحرص على طيب الرائحة وتعاهد الفم بالسواك والمسك والطيب ودوام الزينة بحضرتة وتركها لغيبته، وإكرام أهله وأقاربه، وترى القليل منه كيراً»<sup>(٥)</sup> .

(١) رواه ابن حبان وابن خزيمة في صحيحيهما ، الترغيب والترهيب جـ ٣ ص ٧٨ ، ٧٩ .

(٢) أخرجه البخاري ، الترغيب والترهيب جـ ٣ ص ٧٧ .

(٣) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح، الترغيب والترهيب ، جـ ٣ ص ٧٦ .

(٤) الكبائر ص ١٥١ .

(٥) الكبائر ص ١٥٠ ، ١٥١ .

وإذا كان الإسلام قد جعل للرجل حقوقاً على زوجته فقد جعل أيضاً للمرأة حقوقاً على زوجها ، بقول الإمام الذهبي ، « وإذا كانت المرأة مأمورة بطاعة زوجها وبطلب رضاه فإن الزوج أيضاً مأمور بالاحسان إليها واللفظ بها والصبر على ما يبدو منها من سوء خلق وغيره، وإيصالها حقا من النفقة والكسوة والعشرة الجميلة. لقوله تعالى : «وعاشروهن بالمعروف»<sup>(١)</sup> .

ولقول النبي ﷺ : « ألا واستوصوا بالنساء خيراً فإنما هن عوان عندكم، ليس تملكون منهن شيئاً غير ذلك ، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع واضربوهن ضرباً غير مبرح فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً .

ألا إن لكم على نساءكم حقاً ، وإنسانكم عليكم حقاً اطعتكم، فحقكم عليهن ألا يوطئن فرشكم من تكرهون، ولا يأذن في بيتكم لمن تكرهون، ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن»<sup>(٢)</sup> .

وقوله ﷺ : «عوان» أي أسيرات جمع عانية وهي الأسيرة ، شبه رسول الله ص المرأة في دخولها تحت حكم الرجل بالأسير<sup>(٣)</sup> .

ومما لا شك فيه أن الذهبي كمدرس ومؤلف لا بد أن يتجه جهده في الاحتساب إلى ع لوم عصره فيبين معروفها من منكرها ، ليدعو طلاب العلم إلى التزام المعروف من العلم ويحذرهم وينهاهم عن المنكر منه.

ويعتبر كتابه «بيان زغل العلم والطلب» وكتابه « مسائل في طلب العلم وأقسامه» من أوضح الشواهد على ذلك .

(١) النساء آية ١٩ .

(٢) رواه ابن ماجة والترمذي وقال : حديث حسن صحيح. الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٧٣ .

(٣) الكبائر ص ١٥٤ .



ومن خلال رؤية في علوم عصره وتوضي طبيعتها والغرض منها نلمح موقفه من هذه العلوم، كما نلمح في الوقت نفسه دعوى احتسابه علمية قوامها الأمر بالمعروف من العلم والنهي عن المنكر منه بطريقة متدرجة مبسطة تلائم كل الأنهام وتمس أوتار القلوب حيث أنها أولاً وأخراً منهجية منطقية .

### مسائل في طلب العلم وأقسامه .

في هذا الكتاب قسم الذهبي طلب العلمي وتعلمه على الأقسام الخمسة وهي :

فرض ومستحب ومباح ومكروه وحرام .

فالفرض : فرض على كل أحد كالصلاة والإيمان وما عُرف بالضرورة من دين الإسلام من الأوامر والنواهي التي لا يشب الغلام في بلد إلا وهو يدرها إن شاء الله .

« وإما فرض كفاية كحفظ القرآن والفرائض الواقعة دائماً والمناسك الواجبة ومعرفة

الحلال والحرام ونحو ذلك »<sup>(١)</sup> .

ويتفرع عن ذلك مسائل ، منها :

١ - إذا أسلم أهل ناحية من بلاد الكفر تعين عليهم تعلم أصول الواجبات والمحرمات التي تواترت ولهذا إذا زنا هذا أو شرب أو سرق جاهلاً عرف ولم يأتهم وهل يضرر أو يعفو عنه أو يحد؟ فيه نزاع بين العلماء ، والظاهر درء الحد عنه بخلاف الناشئ بين أظهر المسلمين المدعى الجهل بالتحريم لمن صدقه ونحده<sup>(٢)</sup> .

فالذهبي يرى أن تعلم أصول الواجبات والمحرمات التي تواترت ، فرض على من يدخل الإسلام من بلاد ليست من بلاد الإسلام .

٢ - ومن فرض العلم معرفة ذي المال كيف يزكى وكيف يحج ونحو ذلك، فهذا يجب على هذا تعلمه نون المسكين، وكذلك يجب على التاجر معرفة ما يحل من البيع وما يحرم

---

(١) الذهبي : مسائل في طلب العلم وأقسامه ص ٢٠١ منشور ضمن مجموعة رسائل بعنوان « ست رسائل للإمام الذهبي » تحقيق جاسم سليمان الدوسري ط الدار السلفية للنشر والتوزيع . الكويت ١٩٨٨م .

(٢) المرجع السابق ص ٢٠٢ .

بخلاف الذي لا سبب له ، فيعرف التاجر والمزكى والحاج من ذلك ما لا بد منه<sup>(١)</sup> .  
فالذهبي هنا يرى أن بعض العلم فرض على بعض الناس بينما هو ليس فرضاً على  
غيرهم، فيضرب مثلاً بالزكاة ، فلها أصول يجب أن تتبع في إخراجها ، ولا يلزم  
المسكين معرفتها لأنه ليس مطالباً بإخراج الزكاة ، وكذلك الحج فهو فرض على  
القادر ، لذلك يصبح تعلم شروطه وشعائره فرضاً على القادر دون غيره ممن لا يجب  
عليهم الحج، وفرض على التاجر أيضاً أن يتعلم حلال البيع من حرامه حتى لا يقع في  
بيع محرم، أما غيره فليس ذلك فرضاً عليه .

٣ - على الوالدين تعليم الأولاد<sup>(٢)</sup> الأطفال أولاً فأول ما يجب اجتنابه ويلزم فعله واعتقاده،  
فيذاكر الأب ولده شأن التوحيد ، وأن الله رب العالمين، وخالق الأشياء ورازق الأحياء  
وأن محمد ص نبيه وأن الإسلام دينه حتى يألف الصبي ذلك ويرسخ في طبعه.  
فإذا ميز علمه الوضوء والصلاة وحذره الزنا والسرقه والكذب ، وأكل الحرام والدم  
والميتة ونحو ذلك وأن يبلوغه يجرى عليه القلم<sup>(٣)</sup> .

ويرى الذهبي أن من العلم المفروض على الوالدين أن يعلموا أبناءهم مبادئ الإسلام  
وأولياته التي لا يكون المسلم مسلماً إلا بمعرفتها، فيبدأ الوالدين بتعليم أبنائهم أن الله  
واحد في الكون لا شريك له وأنه رب هذا الكون وخالق كل شيء ورازق كل حي ، ثم  
يعلمانهم أمر النبوة وأن محمد ص نبي الله وأن الإسلام دينه، فإذا أدرك الصبي وميز  
وأصبح عقله قادراً على استيعاب الواجبات والمحرمات علماء الوضوء والصلاة  
وحذراه الزنا والسرقه والكذب وأكل كل محرم من دم وميتة وغير ذلك، ثم يعرفانه  
الحساب والثواب والعقاب وأنه إذا بلغ الحلم فإنه مسئول عن أفعاله يجرى عليه القلم<sup>(٤)</sup>

(١) المرجع السابق ص ٢٠٣، ٢٠٤ .

(٢) يقصد الذكور والإناث .

(٣) المصدر السابق ص ٢٠٤ .

(٤) المصدر السابق ٢٠٤، ٢٠٥ .

## ثانياً ، المستحب ،

أما العلم المستحب عند الإمام الذهبي فهو الفقه والإمعان فيه ومعرفة أقوال الصحابة التابعين وحججهم من الكتاب والسنة الصحيحة ونحو ذلك ، ومعرفة التفسير وما لا بد منه من معرفة العربية ولغة القرآن ولغة الحديث والفقه ومهمات الطب وما صح من الحديث النبوي وما حسن وما ثبت من القراءات ، ومعرفة سيرة النبي ﷺ ومغازيه وسيرة الخلفاء الراشدين ومعرفة رجال الحديث وجرحهم وتعديلهم .

فمن المستحب : معرفة ما في القرآن وفي الحديث من نعوت الباري سبحانه وأن القرآن كلام الله ووحيه وتنزيله غير مخلوق ، وأن الله يرى في الآخرة ، وأنه ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا ، وأن أفضل الخلق بعد الأنبياء كلهم أبو بكر ثم عمر ، وأن البدرين أفضل أصحاب رسول الله ﷺ ، وأن يكف عما شجر بين الصحابة ويستغفر لهم<sup>(١)</sup> .

## ثالثاً ، المباح من العلم ،

تعلم حجاج هذه الأقوال من الكتب والسنة<sup>(٢)</sup> .

## رابعاً ، المكروه من العلم ،

يرى الإمام الذهبي أن الدخول في دقائق علم الكلام المحمود منه ليثبت ما يجب وما يمتنع بالعقل ، مكروه وكذلك كره الجدل والمناظرة فيه<sup>(٣)</sup> .

## خامساً ، المحرم ،

أما العلم المحرم في رأي الذهبي فهو النظر في المنطق والنفس والعقل والكل والكلبي والعرض والجسم وهذه الأنواء المهلكة<sup>(٤)</sup> .

(١) المصدر السابق من ٢١٣ ، ٢١٤ .

(٢) المصدر السابق من ٢١٤ .

(٣) المصدر السابق نفس الصفحة .

(٤) المصدر السابق نفس الصفحة .

أما كتابه «بيان زغل العلم والطلب» فقد استفتحه الإمام الذهبي بقوله: «الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، أعلم أن في كل طائفة من علماء الأمة ما يذم ويعاب فتجنبه»<sup>(١)</sup>.

### وأيه في المنطق ،

يرى الذهبي أن المنفعة التي يحصل عليها الناس من المنطق قليلة، أما أضراره فهي كثيرة، فربما اختصم به رجلان فانتصر المخطئ على المحق ، فهو عبارة عن عبارات واهية ومقدمات دكاكة، ومن قرأه فضولاً ورغبة في المعرفة فقد عذب جسده وضيع وقته، ومن قرأه للثواب ولاحجة فلا ثواب له بل لا يأمن العقاب إلا بمتاب فيقول فيه الذهبي: «المنطق نفعه قليل وضرره وبيل ، وما هو من علوم الإسلام، أما الحق منه فكامن في النفوس الزكية بعبارات غريبة، والباطل فاهرب منه فإنك تنقطع مع خصمك وأنت تعرب إنك المحق وتقطع خصمك وأنت تعرف أنك على الخطأ، فهي عبارات واهية ومقدمات دكاكة نسأل الله تعالى السلامة ، وإن قرأته للفرجة لا للحجة، وللدنيا لا للأخرة فقد عذبت الحيوان وضيعت الزمان، وأما الثواب فالأيس منه ولا تأمن العقاب إلا بمتاب»<sup>(٢)</sup>.

### وأيه في الفلسفة ،

يقول في الفلسفة: «الفلسفة الإلهية لا ينظر فيها من يرجى فلاحه ولا يركن إلى اعتقادها من يلوح نجاحه، فإن هذا العلم في شق وما جاء به الرسل في شق ، ولكن ضلال من لم يدرك ما جاءت به الرسل ، كما ينبغي بالحكمة أشرم ممن يدري ، وأغوثاه بالله إذا كان الذين قد انتدبوا للرد على الفلاسفة قد حاروا ولحقتهم كسفة فما الظن بالمربود عليهم! وما دواء هذه العلوم وعلمائها والقائمين بها علماً وعقلاً إلا الحريق والإعلام من الوجود، إذ الدين مازال كاملاً حتى عربت هذه الكتب ونظر فيها المسلمون ، فلو اعتمدت

(١) بيان زغل العلم والطلب ، ص ٤ ط مطبعة التوفيق بدمشق ١٣٤٧هـ

(٢) بيان زغل العلم ص ٢٤ . ٢٥ .

لكان فتحاً مبيناً<sup>(١)</sup> .

ونلاحظ هنا أن الذهبي قد حمل حملة شديدة على الفلسفة وحكم على المشتغلين بها بعدم النجاح والفلاح ، لأنها تسير في إتجاه يخالف اتجاه الأديان وما جاءت به الأنبياء . ولا يرى الذهبي دواء لهذه العلوم المنكرة وعلماؤها إلا الحريق والإعدام، لأننا لدين كان كاملاً حتى عربت كتب الفلسفة وكان إعدامها خيراً للإسلام والمسلمين .

### **الذهبي وبيان المعروف وإظهاره للناس ،**

إن بيان المعروف وإظهاره للناس ، خطوة هامة من خطوات الأمر به ، وكما ينتهي الناس عن المنكر بعد أن يعرف كونه منكراً، كذلك ياتمر الناس بالمعروف بعد أن يعرفوا كونه معروفاً .

ولالإمام الذهبي جهود واضحة في بيان المعروف وإظهاره للناس، لعل من أبرز هذه الجهود «حقوق الجار» الذي يتناول فيه حقوق الجار التي يجب أن نرعاها ويرعاها كل مسلم ويؤديها له في سماحة ومودة حتى يصير المجتمع كله أسرة واحدة يسودها الأمن والسلام ويشيع بين أفرادها المحبة والإيمان .

ويتناول الذهبي حقوق الجار في الإسلام مستشهداً بالقرآن الكريم والسنة النبوية<sup>(٢)</sup> .

### **وقد قسم الذهبي كتابه إلى ،**

مقدمة :

تناول فيها إكرام الجار والإحسان إليه .

وست عشر باباً هي :

باب : المؤمن لا يؤذي جاره .

---

(١) السابق ص ٢٥ ، ٢٦ بيان زغل العلم .

(٢) حقوق الجار، الذهبي ، تحقيق مبروك اسماعيل ص ١١ ط دارا لطلائع القاهرة ١٩٩٤م .

- باب : ملعون من يؤذي جار .
- باب : لا يؤذي جار جاره .
- باب : من أشراط الساعة سوء الجوار .
- باب : ما زال جبريل يوصيني بالجار .
- باب : لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه .
- باب : إن أعظم الزنا هو بحليلة جاره .
- باب : إطعام الجار .
- باب : أي الجيران أحق .
- باب : شفعة الجوار مندوب إليها لأجل حق الجار .
- باب : أتدرون ما حق الجار .
- باب ك قوله عليه السلام ليس المؤمن من بات شبعان وجاره جائع .
- باب : امرأة من أهل النار تؤذي جيرانها .
- باب : جودة الجار .
- باب : من سره أن يحبه الله ورسوله .
- باب : إياكم وتحقير الجار .

## وأربعة فصول هي :

- فصل : ماذا تفعل إذا كان جارك من أهل الكبائر .
- فصل : فإن كان جارك ديوثاً .
- فصل : فإن كان جارك رافضياً .
- فصل ك فإن كان جارك يهودياً أو نصرانياً .
- في باب المؤمن لا يؤذي جاره يورد الإمام الذهبي حديثاً<sup>(١)</sup> : روى هشام بن سعد

(١) حقوق الجار من ١٩ .

حدينا زيد بن أسلم عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال ﷺ « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره»<sup>(١)</sup> .

وفي هذا الحديث يربط الرسول ﷺ إيمان المرء بعدم إيذائه الجار .

وفي باب « لا يدخل الجنة من لا يأمن بجاره بوائقه»<sup>(٢)</sup>، يورد الذهبي حديث النبي ﷺ « عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه»<sup>(٣)</sup> .

وفي هذا الحديث ينفي الرسول ﷺ دخول الجنة للرجل الذي لا يأمن جاره شروره، فجعل الرسول ﷺ الأمن الذي يشعر به الجار تجاه جاره شرطاً لدخول الجنة .

وفي فصل « فإن كان جارك رافضياً»<sup>(٤)</sup> يدعو الإمام الذهبي الجار إلى هدايته وتعليم الصواب إن قدر على ذلك وإلا فلا بد من الإحجام عنه وعدم مودته ومصافحته وترك صداقته وعشرته، ثم ينصحه بالتحول عن هذا الجوار إن استطاع ، يقول الذهبي : « فإن كان جارك رافضياً، أو صاحب بدعة كبيرة ، فإن قدرت علي تعليمه وهدايته فاجتهد وإن عجزت فأحجم ولا توده ولا تصافحه ولا تكن له مصادقاً ولا معاشرراً والتحول أولى بك»<sup>(٥)</sup> .

وفي فصل « فإن كان جارك يهودياً أو نصرانياً » يرى الذهبي مجاورته بالمعروف مع مودة لا تزيد عن القدر الذي له لئلا بأس من إجابة دعوته يوم عيده في العمر مرة ، أما

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ج ٤ ص ٥٤ ط دار الشعب .

(٢) بوائقه : أي غوائله وشروره، جمع بائقة وهي الداهية .

(٣) حقوق الجار ص ٢٦ .

(٤) الرافضة فرقة من الشيعة تجيز الطمن في الصحابة، سموا بذلك لأن أوليهم رفضوا زيد بن علي حين نهاهم عن الطمن في الشيخين ، حقوق الجار ص ٤٠ هامش رقم ٣ .

(٥) حقوق الجار ص ٤٠ ، ٤١ .

معاشرتهم ومباستطنتهم فيرى الذهبي أن ذلك مخالف لقول الله تعالى: ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ﴾<sup>(١)</sup>. ثم يرى أنه إذا كان مع الجوار قرابة فهذا حق آخر، وكذلك إذا كان أحد الأبوين ذمياً فإن للأبوين وللرحم حقوقاً، وكذلك يرى الذهبي ألا نبداً أحداً من هؤلاء بالسلام وإنما فقط نرد عليهم بقول: وعليكم، فالؤمن يتواضع ويتذلل للمؤمنين أما الكافرون فيتعزز عليهم تعظيماً لحرمة الإسلام وإعزازاً للدين .

يقول الذهبي: « فإن كان جارك يهودياً أو نصرانياً في الدار أو في السوق أو في اكتساب فجاوره بالمعروف ولا تواده فوق القدر الذي له، وما أدري ما أقول لك في قبول هديته في عيده، وكذا دعوته إياك يوم عيده فإن وقع ذلك في العمر مرة فلا بأس ، فأما من جعل إجابة دعوته مجابة وعاشرهم وباسطهم فهذا مخالف لما قال الله تعالى: ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ﴾<sup>(٢)</sup> فإن انضاف إلى جواره لك كونه قرابتك أو نوي رحمك فهذا حق آخر، وكذا إن كان أحد أبويك ذمياً فإن للأبوين وللرحم حقوقاً فوق حق الجوار فأعط كل ذي حق حقه ، وكذا رد السلام فلا تبدأ أحداً من هؤلاء بسلام، وإذا سلم أحد منهم عليك فقل: وعليكم ، وأما كيف أصبحت لأمه وأبيه فلا بأس ، وأن يقول ذلك من غير إسراف ولا مبالغة في الود، قال الله تعالى: ﴿فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين﴾<sup>(٣)</sup>، فالؤمن يتواضع للمؤمنين ويتزلل لهم ويتعزز على الكافرين ولا يتضاقل لهم تعظيماً لحرمة الإسلام

(١) المجادلة آية ٢٢ .

(٢) المجادلة آية ٢٢ .

(٣) المائدة آية ٥٤ .



وإعزازاً للدين من غير أن تؤذيهم ولا تؤدهم كما تود المسلم<sup>(١)</sup> .

ومن خلال ما سبق يمكن القول بأن الذهبي بذل جهداً واضحاً في بيان المعروف والمنكر للناس، وذلك خطوة هامة على طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فمعرفة الناس بما هو معروف وما هو منكر أدعى لأن يأتروا بالأول وينتھوا عن الثاني .

---

(١) حقوق الجار ص ٤١، ٤٢ .

## المطلب الثاني

### أمره بالمعروف وإنكاره للمنكر

في مؤلفات الذهبي رحمه الله نلمح الكثير من الأقوال التي تحمل معنى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وسوف نرى في هذا المحث إن شاء الله تعالى إشارات في الأمر والنهي تؤكد وجاهة جهوده في الاحتساب .

ومن ذلك أنه بعد أن ينكر المنكر ويقدم الدليل على إنكاره مثل كلامه على التشبيه بغير المسلمين في أعيادهم يقول موضحاً الأسباب التي دعت إلى تقديم هذه النصائح الغالية ويظهر فهمه العميق لحاجة المسلمين إلى النصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيقول موضحاً إهتمامه بتربية الأطفال وتوجيه المربين : « وفي مُشابهِتهم من المفاسد أيضاً: أن أولاد المسلمين يشنؤون على حب هذه الأعياد الكفرية لما يصنع لهم من الراحات والكسوة وخبز الأقراص وغير ذلك .

فبئس المربي أنت أيها المسلم إذا لم تنه أهلك وأولادك عن ذلك وتعرفهم أن ذلك عند النصارى ولا يحل لنا أن نشاركهم ونشابههم فيها »<sup>(١)</sup> .

#### **أولاً ، إنكاره ترك السنة ودعوه للتمسك بها ،**

أنكر الذهبي على كل من يلزم نفسه بالسنة في تعبدته ففي متابعتها خير كثير لأن رسول الله ﷺ علم الأمة أفضل الأعمال « وأمر بهجر التبتل والرهبانية التي لم يبعث بها فنهي عن سرد الصوم ونهى عن ترك اللحم، إلى غير ذلك من الأوامر والنواهي، فالعابد بلا معرفة لكثير من ذلك معنور مأجور ، والعابد العالم بالآثار المحمدية المتجاوز لها مفضول مغرور، وأحب الأعمال إلى الله أنومها وإن قل ، ألهمنا الله ورياكم حسن المتابعة وجنبنا الهوى والمخالفة» .

(١) تشبه الخسيس بأهل الخسيس ص ٢٠ .

وهكذا يرى الذهبي أن اتباع سنة الرسول ﷺ فضيلة يدعو الله أن يرزقه إياها ،  
ويعتبر تركها هوى يسأل الله أن يجنبه إياها . وهذا هو الحق والصواب .

بل كان لا يترك مجالاً لإيضاح الحق إلا وأبانه ولو كان الأمر يسيراً ، وكان يؤكد  
دائماً على أن الصواب هو اتباع السنة فينكر على المخالفين للسنة ، ونرى ذلك عندما ذكر  
رواية أن ابن الخطيئة<sup>(١)</sup> ، لم ينظر إبنته قط قال :

« لا مدح في مثل هذا ، بل السنة بخلافه ، فقد كان سيد البشر - ﷺ - يحمل أمامه  
بنت انبته وهو في الصلاة<sup>(٢)</sup> » .

ونقل الذهبي في ترجمته لنجم الدين الكبرى<sup>(٣)</sup> قول ابن هلاله فيه : « جلستف عنده  
في الخلوة مراراً ، وشاهدتُ أموراً عجيبةً ، وسمعتُ من يخاطبني بأشياء حسنة » أ . ه .  
ويعلق الذهبي بقوله :

« قلت : لا وجود لمن خاطبك في خلوتك مع جوعك المفرط ، بل هو سماعُ كلام في  
الدماغ الذي قد طاش وفاش وبقي قرعة كما يتم للمُبرسِم<sup>(٤)</sup> والمغمور بالخمى والمجنون ،  
فاجزم بهذا واعبد الله بالسُنن الثابتة تُفْلِح ! » أ . ه .

- 
- (١) هو أبو العباس بن الخطيئة أحمد بن عبدالله بن أحمد بن هشام اللخمي الفاسي المقرئ الصالح  
الناسخ ، ولد سنة ثمان وسبعين وأربعمائة وتوفي سنة ستين وخمسمائة من الهجرة .  
انظر شذرات الذهب لابن العماد العنبري ج ٤ ص ١٨٨ .
  - (٢) انظر سير أعلام النبلاء ج ٢٠ ص ٣٤٨ .  
وانظر ما أخرجه البخاري في الصلاة عن أبي قتادة في باب « إذا حمل جارية صغيرة على  
عنقه في الصلاة » برقمي ٥١٦ و ٥٩٩٦ بفتح الباري .
  - (٣) هو لإمام القدوة المدد المعروف بالسنة شيخ خراسان نجم الكبراء ، الشيخ أبو الجناب أحمد بن  
عمر محمد الخوارزمي الصوفي . قُتِل في جهاده ضد التتار سنة ثمانى عشرة وستمائة .  
انظر سير أعلام النبلاء ج ٢ ص ١١١ - ١١٤ .
  - (٤) البرسام : علّة تصيب صدر الإنسان فيهدى بها . انظر لسان العرب لابن منظور ج ١ ص ٢٥٧  
ط دار المعارف بمصر .

وفي موضوع آخر يقول: « تدري ما العلم النافع؟ هو ما نزل به القرآن وفسره الرسول ﷺ قولاً وفعلاً ولم يأت نهى عنه، قال عليه السلام: « من رغب عن سنتي فليس مني»<sup>(١)</sup> فعليك يا أخي بتدبر كتاب الله وبإدمان النظر في الصحيحين وسنن النسائي ورياض النووي وأنكار تفلح وتنجح»<sup>(٢)</sup> فهو هنا يؤكد على ضرورة اتباع السنة المحمدية الشريفة فتاركها خارج عن الملة بنص رسول الله ﷺ ويشير إلى مصادر الاتباع وهي القرآن الكريم وكتب الأحاديث الصحيحة المحصنة وهي صحيح البخاري وصحيح مسلم وسنن النسائي ورياض الصالحين والأنكار للنووي .

ويؤكد على نفس المعنى في موضع ثالث فيقول: « فإن أحببت يا عبدالله الإنصاف ، فقف مع نصوص القرآن والسنة، ثم انظر ما قاله الصحابة والتابعون وأئمة التفسير وما حكوه من مذاهب السلف ، فإما أن تنطبق بعلم وإما أن تسكت بحلم ودع المراء والجدل فإن «المراء في القرآن كفر»<sup>(٣)</sup> ، كما نطق بذلك الحديث الصحيح<sup>(٤)</sup> .

### ثانياً ، إنكار نفي أسماء وصفات الله وإنكار تأويلها ،

لقد سار الذهبي على منهج السلف في تقريره لتوحيد الأسماء والصفات ففي كلامه عن وجوب الإثبات بلا تمثيل ولا تشبيه ولا تكييف يقول: « فإننا على أصل صحيح وعقد متين من أن الله تقديس اسمه لا مثل له» .

وعن كلامه عن يقول بوجوب الأخذ بظاهر النصوص يبين أن في هذا المعنى حقاً وباطلاً ، « فالحق يقال إنه سميع بصير متكلم حي عليم كل شيء هالك إلا وجهه ، خلق آدم

(١) أخرجه البخاري ، كتاب النكاح ، باب الترغيب في النكاح ج٩ ص ١٠٤ .

(٢) سير أعلام النبلاء ج١٩ ص ٣٤٠ .

(٣) رواه أحمد في مسنده ج٢ ص ٢٨٦ .

(٤) العلو للعلو الغفار في إيضاح صحيح الأخبار وسقيمتها للذهبي ، اعتنى به أبو حمد اشرف بن عبدالمقصود ص ١٣ ط ١ مكتبة آراء السلف ، الرياض ١٩٩٥م .

بيده وكلم موسى تكليماً واتخذ إبراهيم خليلاً وأثمال ذلك ، فنمره على ما جاء وتفهم منه دلالة الخطاب كما يليق به تعالى ولا تقول : لا تأويل يخالف ذلك» .

ثم يتحدث عن المعنى الباطل ثم يستشهد بأمن كلامه على إنكاره لمن وقع الضلال ، واعتقد قاس الغائب على الشاهد ومثل الله بخلقه فيقول : « والظاهر الآخر وهو الباطل ، والضلال ، أن نعتقد قياس الغائب على الشاهد وتمثل البارئ بخلقه ، تعالى الله عن ذلك ، بل صفاته كذاته فلا عدل له ولا ضد له ولا نظير له ولا مثيل له ولا شبيه له وليس كمنته شيد لا في ذاته ولا في صفاته»<sup>(١)</sup> .

وفي كتاب : الأربعين في صفات رب العالمين ، بعد أن أثبت بالأدلة أن الله تعالى في السماء أنكر على من خالف ذلك وذكر قول أبي حنيفة : « من أنكر أن الله في السماء فقد كفر»<sup>(٢)</sup> .

وينكر الإمام الذهبي على من نفى الصفات وعطلها بزعم التنزيه فيقول : « فلقد قل من يتمسك بمحض السنة ، بل تراه يثني على السنة وأهلها ، وقد تلتخ ببديع الكلام ، ويجسر على الخوض في أسماء الله وصفاته ويادر إلى نفيها وبالغ بزعمه في التنزيه ، وإنما كمال التنزيه تعظيم الرب - عز وجل - ونعته بما وصف به نفسه تعالى<sup>(٣)</sup> .

فهنا يردُّ على المعطلة الذين نفوا صفات الله بحجة تنزيهه عن مشابهة المخلوقات ، ويؤيد ويثبت الحق في كمال التنزيه وهو نعته ووصفه بما وصف به نفسه - سبحانه وتعالى .

ويعد أن ذكر ما أعتمده نفاةُ علوِّ الرب وذكر أقوالهم قال : « فهذا شيء لا يُعقل ولا

(١) سير أعلام النبلاء جـ ١٩ ص ٤٤٩ نقلاً عن سعيد الزهراني ، منهج الإمام الذهبي في العقيدة ومواقفه من المبتدعة ص ١٥٤ ، ١٥٥ رسالة ماجستير ، كلية أصول الدين بالرياض ١٤١١هـ .

(٢) انظر كتاب الأربعين في صفات رب العالمين للإمام الذهبي ص ٥٩ طبعة مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة ط ١٤١٣هـ .

(٣) تذكرة الحفاظ للذهبي جـ ٣ ص ١١٧٧ - ١١٧٨ .

يفهم مع ما فيه من مخلفة الآيات والأخبار ففر بدينك وإياك وأراء المتكلمين ، وأمن بالله وما جاء من الله على مراد الله ، وفوض أمرك إلى الله ولا حول ولا قوة إلا بالله» أ . هـ<sup>(١)</sup>

### ثالثاً ، إنكاره التأويل والتشبيه ،

في ترجمته لعلي بن عقيـل بن محمد<sup>(٢)</sup> أنكر عليه الذهبي تجسره على تأويل النصوص، قال :«كانوا يتهونونه عن مجالسه المعتزلة ويأبى حتى وقع في حباثلهم وتجسروا على تأويل النصوص، نسأل الله السلامة» .

وفي إنكار التشبيه يقول :«نعوذ بالله من التشبيه ومن إنكار أحاديث الصفات فما ينكر الثابت منها من فقه، وإنما بعد الإيمان بها هنا مقامان مذمومان .

تأويلها وصرفها عن موضوع الخطاب، فما أولها السلف ولا حرفوا ألفاظها عن مواضعها بل آمنوا بها وأمروها كما جاءت ، جهل وضلال ، وإنما الصفة تابعة للموصوف فإذا كان الموصوف عز وجل لم نره ولا أخبنا أحد أنه عاينه مع قوله لنا في تنزيله « ليس كمثل شيء» فكيف بقي لأذهاننا مجال في إثبات كيفية الباري تعالى الله عن ذلك، فكذلك صفاته المقدسة نقر بها ونعتقد أنها حق ولا تتمثلها أصلاص ولا نتشبهها<sup>(٣)</sup> .

وعند تعليقه - رحمه الله - على كلام نعيم بن حماد<sup>(٤)</sup> الذي قال فيه « من شبه الله بخلقه فقد كفر ، ومن أنكر ما وصف به نفسه فقد كفر ، وليس في ما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه » أ . هـ .

(١) العلوص ٢٦٧ - ٢٦٨ .

(٢) ت ٥١٣ هـ .

(٣) سير أعلام النبلاء ج ١٠ ص ٦١٠ .

(٤) هو الإمام علي بن عقيـل بن محمد البغدادي العنـبلي المتكلم أبو الوفاء الخـفـر شيخ المنايـلة أحد الأعلام وفرد زمانه علماً ونقلاً وذكاءً إلا أنه خالف السلف ووافق المعتزلة في عدة بدع . مات سنة ثلاث عشرة وخمسائة من الهجرة . انظر ميزان الاعتدال للذهبي ج ٢ ص ١٤٦ ط دار المعرفة بيروت . وسير أعلام النبلاء ج ١٩ ص ٤٤٣ - ٤٥١ بتصريف .

يقول الذهبي معلقاً : « هذا الكلام حق ، نعوذ بالله من التشبيه ومن إنكار أحاديث الصفات فما ينكر الثابت منها من فقه»<sup>(١)</sup> ويرد على من تأول النزول بأحاديث موضوعة فيورد حديثاً مسنداً إلى رسول الله ص أنه قال « إن نزول الله إلى الشيء إقباله عليه منغير نزول »

فيقول الذهبي : « إسناده مظلم ومتمته مخلوق » أ . هـ .<sup>(٢)</sup>

### رابعاً ، إنكاره الفلسفة ،

في مواضع كثيرة نهى الإمام الذهبي عن الشغف بالفلسفة وحذر منها تحذيراً شديداً ، يقول في ترجمته للإمام أبي حامد الغزالي : « وحبب إليه إدمان النظر في رسائل إخوان الصفا وهوداء عضال وسم قتال ، ولولا أن أبا حامد من كبار الأذكياء وخيار المخلصين لتلف فالحذار الحذار من هذه الكتب، واهربوا بدينكم من شبه الأوائل وولا وقعتم في الحيرة<sup>(٣)</sup> .

وفي موضع آخر يقول : « الفلاسفة يعدون اتخاذ الولد وإخراجه إلى الدنيا جناية عليه .... الهم فاحفظ علينا إيماننا »<sup>(٤)</sup> .

ودعاء الذهبي بحفظ الإيمان في هذا الموضع يشير إلي أنه يقرب الفلسفة بالكفر . وفي موضع ثالث يصرح بأن الفلسفة كفر حيث يقول : « أما الفيلسوف فيقول : النبوة مكتسبة ينتجها العلم والعمل وهذا كفر»<sup>(٥)</sup> .

(١) سير أعلام النبلاء جـ ١٠ ص ٦١٠ - ٦١١ .

(٢) ميزان الاعتدال جـ ٢ ص ٦٢٣ ، وقد أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات جـ ١ ص ١٢٣ والسيوطي في اللؤلؤ المصنوعة جـ ١ ص ٢٧ ، وابن عرأق في تنزيه الشريعة جـ ١ ص ١٢٨ .

(٣) سير أعلام النبلاء جـ ١٩ ص ٣٢٨ .

(٤) المصدر السابق جـ ١٨ ص ٣٦ .

(٥) المصدر السابق جـ ١٦ ص ٩٦ .

## خامساً ، إنكاره شطح المتصوفة ،

لم يكر الذهبي التصوف على إطلاقه وإنما أنكر أحوال الصوفية السيئة وشطحاتهم التي لا تقبلها العقول ولا تواترت بها الاخبار ، فيعتبر تلك الأحوال من الحمق والرعونة، يقول في ترجمته لثعلب بن جامع الصعيدي<sup>(١)</sup>: « كان من كبار الأحمديّة وله أتباع ، ثم إنه تاب وترك تلك الرعونات وكان يحكي لنا أشياء عجيبة من الخوارق مما تمت له أو عاينها فسمعتة يقول: إن إنساناً أعطاه خمسمائة درهم فوضعها في الخريطة فأنق منها في قدرها مرات عدة والخمسمائة بحالها لا تنقص »<sup>(٢)</sup> .

وإذا كان الذهبي في معجم شيوخه يورد حديثاً لكل شيخ من شيوخه مما سمع منه فإنه لم يورد لثعلب حديثاً مما يشير إلا أنه لا يرى جواز الرواية عن أمثاله من أصحاب الشطحات .

وفي موضع آخر يقول في ترجمته لأحمد بن عطاء الهجيمي<sup>(٣)</sup>: « ولكنه عبد صالح وقع في القدر، نعوذ بالله من ترهات الصوفية ، فلا خير إلا في الإلتباع »<sup>(٤)</sup> .

وفي موضع ثالث ينكر شطح المتصوفية ويجمع بينها وبين الفلسفة والرياضيات يقول : « وإياك وآراء عباد الفلاسفة ووظائف أهل الرياضيات وجوع الرهبان وخطاب طيس :

---

(١) هو ثعلب بن جامع الصعيدي الأحمدي البازدار . كان من كبار الأحمديّة وله أتباع وكان يحكي أشياء عجيبة من الخوارق مما تمت له أو عاينها ، ثم تاب وترك تلك الرعونات . ومات سنة خمس وعشرين وسبعمائة . انظر معجم الذهبي ص ١١٦ .

(٢) السابق نفس الصفحة .

(٣) هو شيخ الصوفية أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد القواريري الخزاز -بالزاي- ويُعرف بـ «سيد الطائفة» وهو في نظر الصوفية سيد علماء الآخرة على الإطلاق ، وكانت له أحوال لا يقرأها شرع ولا عقل . مات سنة ثمان وستين ومائتين من الهجرة . انظر شذرات الذهب ج ٢ ص ٢٢٧ . سير أعلام النبلاء ج ١٤ ص ٦٦-٧٠ .

(٤) المصدر السابق نفس الصفحة .



رؤوس أصحاب الخلوات فكل الخير في متابعة الحنيفية السمحة فواغوثاه بالله . اللهم  
اهدنا إلى صراطك المستقيم»<sup>(١)</sup> .

ومما يؤكد أن الذهبي لم ينكر التصوف على إطلاقه وإنما خص بإنكاره الشطح  
والتجاوز أنه قال معلقاً على قول الجنيد<sup>(٢)</sup>: « ما أخذنا التصوف عن القال والقييل بل عن  
الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات » ، قال الذهبي : هذا أحسن ومراده قطع أكثر المألوفات  
وترك فضول الدنيا وجوع بلا إفراط ، أما من بالغ في الجوع كما يفعله الرهبان ورفض  
سائر الدنيا ومألوفات النفس من الغذاء والنوم والأهل فقد عرض نفسه لبلاء عريض وربما  
خولط في ع قله ، وفاته بذلك كثير من الحنيفية السمحة، والسعادة في متابعة السنن<sup>(٣)</sup> .

وينكر الإمام الذهبي على المتصوفة الاتحاد، فبعد أن ذكر قول النوري<sup>(٤)</sup> « سبيل  
الفانين في محبوبهم وسبيل الباقيين البقاء ببقائه، ومن ارتفع عن الغناء والبقاء ، فحينئذ  
لا فناء ولا بقاء» أ . ه .

يقول الذهبي « قلت : هذا يحتاج إلى شرح طويل وتحرز عن الغناء الكلي ، ومرادهم  
بالغناء فناء الأوصاف النفسانية ونحوها، ونسيانها بالاشتغال بالله تعالى وعبادته، فإن  
ذات العارف وجسده لا ينعدم ما عاش ، والكون وما حوى مخلوق والله خالق كل شيء  
ومبدعه، أعاننا الله وإياكم من قول الاتحاد فإنه زندقة» أ . ه .<sup>(٥)</sup> .

(١) المصدر السابق ج ١٩ ص ٢٤٠ .

(٢) الجنيد بن محمد بن محمد بن الجنيد ٢٩٨ هـ ، سير أعلام النبلاء ج ١٤ ص ٧٠ له ترجمة بالبطاقات .

(٣) سير أعلام النبلاء ج ١٤ ص ٦٩ ، ٧٠ .

(٤) هو أحمد بن محمد الخراساني البغدادي الزاهد شيخ الطائفة بالعراق وأحدقهم بلطائف  
المقائيق وله عبارات دقيقة يتعلق بها من اهرق من الصوفية ، نسال الله العفو . توفي سنة  
خمسة وستين ومانتين وقد شاخ رحمه الله .

انظر سير أعلام النبلاء ج ١٤ ص ٧٢ - ٧٧ .

(٥) انظر سير أعلام النبلاء ج ١٤ ص ٧٢ - ٧٣ .

ثم يرد الإمام الذهبي على مسألة الغناء بالأدلة ، فذكر قول إبراهيم بن شيبان القر  
ميسيني شيخ الصوفية<sup>(١)</sup> الذي قال :

« علم الغناء والبقاء يدور على إخلاص الوجدانية ، وصحة العبودية ، وما كان غير هذا  
فهو المغالطة والزندقة» أ . ه .

ويرد الذهبي قائلاً : « قلت : صدقت والله ، فإن الغناء والبقاء من تُرّهات الصوفية  
أطلقه بعضهم فدخل من بابهِ كلُّ إلحادي وكل زنديق وقالوا : ما سوى الله باطل فإن ، والله  
تعالى هو الباقي وهو هذه الكائنات وما ثم شيد غيره .  
ويقول شاعرهم :

وما أنت غير الكونِ                      بل أنتَ عينُهُ

ويقول آخر :

وما ثم إلا الله ليس سواه

فانظر إلى هذا المروق والضلال ، بل كل ما سوى الله مُحدث موجود .

قال تعالى :

﴿ خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ﴾<sup>(٢)</sup> وإنما أراد قدماء الصوفية  
بالغناء نسيان المخلوقات وتركها وفناء النفس عن التشاغل بما سوى الله ، ولا يُسلم إليهم  
هذا أيضاً بل أمرنا الله ورسوله بالتشاغل بالمخلوقات ورؤيتها والإقبال عليها وتعظيم خالقها  
قال تعالى : ﴿ أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء ﴾<sup>(٣)</sup> .

---

(١) هو شيخ الصوفية أبو اسحاق إبراهيم بن شيبان القرميسيني زاهد الجبل . توفي سنة سبع  
وثلاثين وثلاثمائة .

انظر سير أعلام النبلاء ج ١٥ ص ٣٩٢ - ٣٩٤ .

انظر شذرات الذهب لابن العماد ج ٢ ص ٢٤٤ .

(٢) الآية « ٤ » من سورة السجدة .

(٣) الآية « ١٨٥ » من سورة الاعراف .

وقال ﴿ قل انظروا ماذا في السموات والأرض ﴾<sup>(١)</sup> .

وقال عليه السلام : « حُبب إلى السناء والطيب »<sup>(٢)</sup> .

وكان يحب عائفة ، ويحب أباهما ، ويحب أسامة ، ويحب سبطية ، ويحب الحلواء والعسل ، ويحب جبل أحد ، ويحب وطنه ويحب الأنصار ، إلى أشياء لا تُحصى مما لا يغنى المؤمن عنها قط « أ . هـ »<sup>(٣)</sup> .

وذكر الذهبي قول ابن الأعرابي<sup>(٤)</sup> الذي قال :

« فإذا سمعت الرجل يسأل عن الجمع أو الغناء ، أو يُجيب فيهما ، فأعلم أنه فارغ ، ليس من أهل ذلك ، إذ أهلها لا يسألون عنه لعلمهم أنه لا يدرك بالوصف » أ . هـ .

قال الذهبي : « قلت : إي والله ، دققوا وعمقوا وخاضوا في أسرار عظيمة ما معهم على دعواهم فيها سوى ظنٍ وخيال ، ولا وجود لتلك الأحوال من الغناء والمحو والصحو والسكر إلا مجرد خطرات ووساوس ، ما تفوه بعباراتهم صديق ولا صاحب ولا إمام من التابعين ، فإن طالبتهم بدعائهم مقتوك وقالوا : محجوب ، وإن سلمت لهم قيادك تخبط ما معك من الإيمان وهبط بك الحال على الحيرة والمحال ، ورمقت العباد بعين المقت ، وأهل القرآن والحديث بعين البُعد ، وقلت : مساكين محجويون فلا حول ولا قوة إلا بالله . ثم يدلهم الذهبي عن التصوف المطلوب فيقول :

فإنما التصوف والتأله والسلوك والسير والمحبة ما جاء عن أصحاب محمد رسول الله

(١) الآية « ١٠١ » من سورة يونس .

(٢) الحديث أخرجه النسائي في أول كتاب عشرة النساء جـ ٧ ص ٦١ ، والإمام أحمد في المسند جـ ٢ ص ١٢٨ - ١٠٠ - ٢٨٥ .

(٣) سير أعلام النبلاء جـ ١٥ ص ٣٩٣ .

(٤) هو أحمد بن محمد بن زياد الإمام المحدث القدوة الحافظ شيخ الإسلام أبو سعيد بن الأعرابي البصري الصوفي نزيل مكة وشيخ الحرم ، توفي بمكة سنة أربعين وثلاثمائة . انظر السير جـ ١٥ ص ٤٠٧-٤١٢ - والشذرات جـ ٢ ص ٣٥٤ .

من من الرضا عن الله ، ولزوم تقوى الله، والجهاد في سبيل الله، والتأدب بأداب الشريعة من التلاوة بترتيل وتدبر ، والقيام بخشية وخشوع، وصوم وقت ، وإفطار وقت وبذل المعروف وكثرة الإيثار وتعليم العوام والتواضع للمؤمنين، والتعزز على الكافرين ، ومع هذا أفاله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

والعالم إذا عرى من التصوف والتأله فهو فارغ ، كما أن الصوفي إذا عرى من علم السنة، زل عن سواء السبيل . وقد كان ابن الأعرابي من علماء الصوفية ، فتراه لا يقبل شيئاً من اصطلاحات القوم إلا بحجة<sup>(١)</sup> .

#### سادساً : إنكاره التعصب للأئمة :

في ترجمة لأبي جعفر الباقر<sup>(٢)</sup> يقول الذهبي : « أحد الأئمة الاثنى عشر ، تجعلهم الشيعة الإمامية وتقول بعصمتهم وبمعرفتهم بجميع الدين » فيعلق الذهبي على ذلك بقوله : « فلا عصمة إلا للملائكة والنبیین وكل أحد يصيب ويخطئ ويأخذ من قوله ويترك سوى النبي من فإنه عصوم مؤيد بالوحي »<sup>(٣)</sup> .

ويؤكد الذهبي على نفس المعنى في موضع آخر فيقول : « وكل إمام يؤخذ من قوله ويترك إلا إمام المتقين ، الصادق المصدوق الأمين، المعصوم صلوات الله وسلامه عليه ، فيا للعجب من من عالم يقل دينه إماماً بعينه في كل ما قال ، مع علمه بما يرد على مذهب إمامه من النصوص النبوية ، فلا قوة إلا بالله »<sup>(٤)</sup>

(١) انظر سير أعلام النبلاء جـ ١٥ ص ٤٠٩ - ٤١٠ .

(٢) الإمام محمد بن علي بن الحسين بن علي ت ١١٤ هـ ، سير أعلام النبلاء جـ ٤ ص ٤٠٩ .

(٣) المصدر السابق جـ ٤ ص ٤٠٢ .

(٤) تذكرة الحافظ جـ ١ ص ١٦ .

## سابعاً ، إنكاره الأجزاء على أهل الحديث ،

لقد أنكر الذهبي بشدة الأجزاء على أهل الحديث والتقليل من شأنهم ، يقول : ليس في كبار محدثي زماننا أحد يبلغ رتبة أولئك في المعرفة ، فإني أحسبك لفرط هواك تقول بلسان الحال إن أعوزك المقال : من أحمد ؟ ومن ابن المدني ؟ وأي شيء أبو زرعة وأبو داود ؟ هؤلاء محدثون لا يدرون ما الفقه ؟ وما أصوله ؟ ولا يفهمون الرأي ولا أعلم لهم بالبيان والمعاني والدقائق ، ولا خبرة لهم بالبرهان والمنطق ولا يعرفون الله تعالى بالدليل ولا هم من فقهاء الملة ، فاسكت بحلم أو انطق بعلم ، فالعلم النافع اتقى الله وراقب الله عن هؤلاء.... وإنما يعرف الفضل لأهل الفضل ذو الفضل فمن اتقى الله وراقب الله واعترف بنقصه ، ومن تكلم بالجاه الجهل أو الشر والبلاء فأعرض عنه وذره في غيه فعقباه إلى وبال ، نسأل الله العفو والسلامة<sup>(١)</sup> .

وكذلك أنكر الذهبي تجريح المحدثين بلا ضرورة داعية للجرح ، فقال في ترجمته لقتادة بن دعامة السدوسي<sup>(٢)</sup> : « كان يرى القدر ، نسأل الله العفو ، ومع هذا فما توقف أحد في صدقة وعدالته وحفظه ، ولعل الله يعذر أمثاله ممن تلبس ببدعة يريد بها تعظيم الباري وتنزيهه وبذل وسعه والله حكم عدل لطيف بعباده ولا يسأل عما يفعل ، ثم إن الكثير من أئمة العلم إذا كثرت صوابه وعلم تحريره للحق واتسع علمه وظهر ذكاؤه وعرف صلاحه وورعه وابتاعه ، يغفر له زلله ولا نضله ولا نطرحه وتنسى محاسنه ، نعم لو انتقدى به في بدعته وخطئه ، ونرجو له التوبة من ذلك<sup>(٣)</sup> » .

وفي موضع آخر يؤكد على نفس المعنى بقوله : « ثم ما كل أحد فيه بدعة أو له هفوة أو ذنوب يقدم فيه ما يوهن حديثه ، ولا من شرط الثقة أن يكون معصوماً من الخطايا والخطأ<sup>(٤)</sup> » .

(١) تذكرة الحفاظ جـ ٢ ص ٦٢٨ .

(٢) ت ١١٨ هـ سير أعلام النبلاء جـ ٥ ص ٢٦٩ .

(٣) سير أعلام النبلاء جـ ٥ ص ٢٧١ .

(٤) ميزان الاعتدال في نقد الرجال جـ ٣ ص ١٤١ .

### ثامناً ، إنكاره رواية الحديث عن الرواه المطعون فيهم ،

في مواضع كثيرة أنكر الإمام الذهبي رواية الحديث الشريف عن الرواة أصحاب السير السيئة ، فذكر في ترجمته لأبي العباس المقدسي<sup>(١)</sup> : « كان فاضلاً ذكياً نقالاً ، تلقش وقل عقله فكان يقف في الطرقات ويتكلم بأشياء مليحة ويسفه ثم عقل ثم عاد ، سمعنا منه في حال الاستقامة ولا ينبغي الرواية عنه لسوء سيرته»<sup>(٢)</sup> .

وفي ترجمته لعبد الرحمن بن أحمد الصالحي<sup>(٣)</sup> يقول : « ولد سنة بضع وخمسين وروى لنا عن ابن عبدالدايم إلا أنه لا ينبغي الرواية عنه ، حكوا لي عنه مصائب والله يصلحه المسكين» .

وفي موضع ثالث يترجم لمحمد بن أيوب بن مكارم<sup>(٤)</sup> فيقول : « هو ممن سمعنا منه ولا تحل الرواية عنه أصلاً ، روى عن ابن أبي اليسر وجماعة وله خط منسوب وشعر فصيح ولكنه اتحادي مجاهد ، حدثني الحافظ الصلاح والتاج بن السكاكري عنه بعظائمه ورنذفته .

### تاسعاً ، إنكاره رواية الموضوعات والأباطيل والحكم على رواتها بالفسق ،

يقول الإمام الذهبي : « إذا كان الإكثار من الحديث في بولة عمر كانوا يمنعون منه مع صدقهم وعدالتهم وعدم الأسانيد ، بل هو غرض لم يشب في بالك بالإكثار من رواية الغرائب والمناكير في زماننا مع طول الأسانيد وكثرة الوهم والضعيف بل يروون والله-

---

(١) هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن شرف الدين حسن المقدسي ثم الصالحي الفقيه الحنبلي قاضي القضاة . توفي سنة عشر وسبعمائة من الهجرة . انظر شذرات الذهب ج ٦ ص ٢١ .

(٢) المصدر السابق ص ١٨ .

(٣) هو الفقيه المعمر جمال الدين أبو محمد عبدالرحمن بن أحمد بن عمر بن أبي بكر بن شكر الصالحي الحنبلي . توفي سنة إحدى عشرة وسبعمائة من الهجرة . انظر تذكرة الحفاظ للإمام الذهبي ج ٤ ص ١٤٩٨ . طبعة دار إحياء التراث العرب - بيروت .

(٤) ت ٧١١ هـ - معجم الشيوخ ص ٤٨٥ .

الموضوعات والأباطيل والمستحيل في الأصول والفروع والملاحم والزهد ، نسأل الله العافية ، فمن روى هذا مع علمه ببطلانه وعر المؤمنين فهذا ظالم لنفسه جان على السنن والآثار يستتاب من ذلك فإن أناب وأقصر، وإلا فهو فاسق وكفى به إثماً أن يحدث بكل ما سمع، وإن هو لم يعلم فليتورع وليستعن بمن يعينه على تنقيه مروياته . نسأل الله العافية<sup>(١)</sup> .

وفي موضع آخر يرى رواية الأباطيل والموضوعات بلاء عظيماً وخطراً شديداً، يقول: «إنا لله وإنا إليه راجعون ما ذى إلا بليّةٌ عظيم وخطر شديد ممن يروى الأباطيل والأحاديث الساقطة المتهم نقلتها بالكذب»<sup>(٢)</sup> .

ثم إن الإمام الذهبي يروى الأحاديث الضعيفة لبيان الباطل وإنكاره ، ثم نجد من فرط إنصافه يبين حال الحديث وينكره حتى وإن كان الحديث مؤيداً لمذهبه ومنهجه فنراه يقول مثلاً « هذا حديث منكر ولم أرو هذا ونحوه إلا للتزييف والكشف »<sup>(٣)</sup> .

وعند إيراده لما نسب إلى الرسول من عندما سئل عن يصلي عليه إذا قبض ، فأجاب : « فإذا أنتم وضعتوني على السرير فضعوني في المسجد وأخرجوا عني، فإن أول من يصلي عليه رب العالمين من فوق عرشه » .

قال الذهبي : « هذا حديث موضوع .... وإنما رويته لهتك حاله »<sup>(٤)</sup> . وفي موضع آخر ذكر حديثاً عن علي بن أبي طالب ، قال له : حدثني رسول الله من ويده على كتفي : سمعت إسافيل ، سمعت القلم ، سمعت اللوح يقول : سمعت الله من فوق العرش يقول للشيء كن فيكون، فلا يبلغ الكاف النون حتى يكون ما يكون » .

(١) سير أعلام النبلاء ج٢ ص ٦٠١، ٦٠٢ .

(٢) تذكرة الحفاظ ج١ ص ٤ .

(٣) العلو للعلو الغفار ص ٣٠ .

(٤) العلو ص ٥١ .

قال الذهبي: « هذا باطل ..... رويته للتحذير منه » أ . هـ .<sup>(١)</sup> لقد ذكر الإمام الذهبي أحاديث ضعيفة وباطلة ومكررة وموضوعة وكان غرضه التحذير منها لبيان إنكاره رواية الموضوعات والأباطيل فهو مع ذكره للصحيح عمد إلى ذكر العليل خوفاً من الإعتقاد في صحته ، ويؤكد هذه الطريقة التي سار عليها في إيراد الأحاديث قوله :

« وقولنا في هذه الأحاديث : إننا نؤمن بما صح منها ، وبما اتفق السلف على إمراره وإقراره ، وأما ما في إسناده مقال واختلف العلماء في قبوله وتأويله ، فإننا لا نتعرض له بتقرير بل نرويه في الجملة ونبين حاله » أ . هـ .<sup>(٢)</sup>

وبعد أن ذكر حديث : أتى رسول الله ص أعرابي فقال : « يا رسول الله ، جهدت الأنفس وضاع العيال ، وهلكت الأنعام ونهكت الأموال ، فاستسق الله لنا ، فإننا لنستشفع بالله عليك ، وبك على الله ، فقال : « ويحك أتدري ما تقول ؟ إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه ، شأن الله أعظم من ذلك ، ويحك أتدري ما الله ؟ إن عرشه لعلى سمواته وأرضه هكذا » قال : وأرانا وهب بيده هكذا ، وقال : « مثل القبة » وإنه لينط به أطيط الرجل بالراكب

قال الذهبي : « حديث غريب جداً .. والله أعلم أقوال النبي - ﷺ - هذا أم لا ، والله - عز وجل - « ليس كمثل شيء » جل جلاله ، وتقدست أسماؤه ولا إله غيره .

الأطيط الواقع بذات العرش من جنس الأطيط الحاصل في الرجل فذاك صفة للرجل والعرش ، ومعاذ الله أن نعدّه صفةً لله - عز وجل - ، ثم لفظ الأطيط لم يأت به نص ثابت<sup>(٣)</sup> .

(١) العلو ص ٥٤ .

(٢) انظر العلو للعلی الغفار ص ٤٥ .

(٣) انظر العلو للعلی الغفار ص ٤٤ .



## عاشراً : إنكاره سب الصحابة ،

أنكر الذهبي سب صحابة رسول الله ص واعتبر ذلك من الكبائر ، فهم السابقون للإيمان المجاهدون للكفر الناشرون للدين المظهرون لشعائر الإسلام وإعلاء كلمة الله ورسوله وتعليم فرائضه وسننه ولو لا هم ما وصل اليانا من الدين أصل ولا فرع ولا علمنا منالفرائض والسنة ولا فرضاً ، ولا علمنا من الأحاديث والأخبار شيئاً فمن طعن فيهم أو سبهم فقد خرج من الدين ومرق من ملة المسلمين لأن الطعن لا يكون إلا عن اعتقاد مساويهم وإضمار الحقد فيهم وإنكار ما ذكره الله تعالى في كتابه من ثنائه عليهم وفضائلهم ومناقبتهم وحبهم<sup>(١)</sup> .

ثم إن الإمام الذهبي ينكر ويرد على الرافضة افتراءهم على الصحابة بنهم كتموا النص في أن عليا هو الخليفة بعد رسول الله ص ويقسم على تبرأتهم من هذا الافتراء الباطل ويجزم باستحالة وقوعه من جميع الصحابة وهو بذلك ينكر عليهم - أي الرافضة - سبهم الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين<sup>(٢)</sup> .

## هادي عشر : إنكاره التشبه بالنصارى ،

ويعتبر الإمام الذهبي ذلك من أقبح القبائح وأعظم المصائب، يقول: « ومن أقبح القبائح وأعظم المصائب : أنك ترى أذاك الجاهل يشتري البخور والورق المصبوغ لزوجته الجاهلة فتضعه تحت السماء تزعم أن مريم تجر ذيلها عليه! ومريم عليها السلام قد ماتت ودفنتت تحت الأرض من نحو ألف وثلاثمائة سنة !!

وتعمل بالقطران صليباً على بابك طرداً للسحر وتلصق التصاوير بالحيطان تهريباً للحيات والهوام !! وإنما تهرب بذلك الملائكة الكرام ، فوالله ما أدري ما تركت من تعظيم

(١) الكبائر ص ٢٧٦ .

(٢) انظر سير أعلام النبلاء ج ١ ص ١٤٠-١٤١ بتصريف

النصرانية والله إنك إذا لم تنكر هذا فلا شك إنك به راض أو جاهل ، نعوذ بالله من الجهل»<sup>(١)</sup> .

ولا ينكر الذهبي التشبه بالنصارى فحسب، ولكنه كما رأينا ينكر على من لا ينكر هذا التشبه بهم .

### ثاني عشر : إنكاره للفرق المبتدعة ،

أنكر الذهبي على الخوارج واعتبرهم أعداء المسلمين<sup>(٢)</sup> ودعا إلى الترفق بأمة محمد من فلا يسلبهم على الإيمان والإسلام كفعل الخوارج والمعتزلة المكفرة أهل القبلة بالكبائر<sup>(٣)</sup> .

أما الرافضية فقد اعتبر الذهبي الرفض داءً مزمناً وانعدام هدى ونور واستنكر عليهم موقفهم من الصحابة قائلاً: « فأبعد الله الراضية، ما أغواهم وأشد هواهم كيف اعترفوا بفضل واحد منهم وبخسوا التسعة<sup>(٤)</sup> حقهم وافتروا عليهم بأنهم كتّموا النص في علي أنه خليفة ؟ لكن لا حيلة في براء الرفض فإنه داء مزمن والهدى نور يقذفه الله في قلب من يشاء، فلا قوة إلا بالله »<sup>(٥)</sup> .

كما أنكر الذهبي على الجهمية إنكاراً شديداً واعتبرهم أعداء السنة ، يقول : « ينبغي للمحدث ألا يشعر الأحاديث التي يتشبهت بظواهرها أعداء السنن من الجهمية<sup>(٦)</sup> .

---

(١) الذهبي : تشبه الخسيس بأهل الخميس ، تحقيق علي حسن علي عبدالحميد ، ص ٢٩-٣٠ ط ١ دار عمار الأردن ١٩٨٨م .

(٢) سير أعلام النبلاء ج ١ ص ٢٧٣ .

(٣) ميزان الاعتداء ج ٢ ص ٢٩ .

(٤) يقصد بالواحد علي بن أبي طالب وبالتسعة بقية العشرة المبشرين بالجنة .

(٥) سير أعلام النبلاء ج ١ ص ١٤٠ .

(٦) المصدر السابق ج ١٠ ص ٥٧٨ .

وها هو الذهبي ينكر على المرجئة ما هم عليه، فيقول عند كلامه على عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي رواد<sup>(١)</sup> .

خشوع وكيع مع إمامته في السنة جعله مقدماً ، بخلاف خشوع هذا المرجئ- عفا الله عنه - أعاذنا الله وإياكم من مخالفة السنة - وقد كان على الإرجاء عدد كبير من علماء الأمة ، فهلا عدّ مذهباً ، وهو قولهم : أنا مؤمن حقاً عند الله الساعة ، مع اعترافهم بأنهم لا يدرون بما يموت عليه المسلم من كفر أو إيمان ، وهذه قوله خفيفة ، وإنما الصعب من قول غلاة المرجئة : إن الإيمان هو الاعتقاد بالافتدة وإن تارك الصلاة والزكاة وشارب الخمر وقاتل النفس والزاني وجميع هؤلاء يكونون مؤمنين كاملي الإيمان ولا يدخلون النار، ولا يُعذبون أبداً ، فربوا أحاديث الشفاعة المتواترة وجسروا كل فاسق وقاطع طريق على المويقات - نعوذ بالله من الخزلان « أ . هـ<sup>(٢)</sup> .

وينكر الإمام الذهبي أيضاً ما عليه المعتزلة وها هو موقفه منهم عند حديثه عن ثمامة بن أشرس<sup>(٣)</sup> الذي كان يقول : « المقلدون من أهل الكتاب وعبدة الأوثان لا يدخلون النار بل يصيرون تراباً ، وإن من مات مسلماً وهو مُصر على كبيرة خُلد في النار ، وإن أطفال المؤمنين يصيرون تراباً ولا يدخلون جنة » .

فيقول الذهبي : « قبح الله هذه النحلة » أ . هـ<sup>(٤)</sup> .

---

(١) هو عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي رواد . صدوق مرجيء كآبيه، وثقه الإمام يحيى بن معين وغيره وقال أبو داود : ثقة داعي إلى الإرجاء . توفي سنة ست ومانتين من الهجرة . انظر ميزان الاعتدال جـ ٢ ص ٦٤٨ - وسير أعلام النبلاء ج ٩ ص ٤٣٤ - ٤٣٦ .

(٢) انظر سير أعلام النبلاء جـ ٩ ص ٤٣٦ .

(٣) هو ثمامة بن أشرس أبو معن التميمي البصري ، من كبار المعتزلة ومن رؤس الضلالة ، وكان له اتصال بالرشيد ثم بالمأمون .

انظر ميزان الاعتدال جـ ١ ص ٣٧٢ - وسير أعلام النبلاء جـ ١٠ ص ٢٠٣ .

(٤) انظر سير أعلام النبلاء جـ ١٠ ص ٢٠٤ .

وكذلك عند حديثه عن النظام<sup>(١)</sup> شيخ المعتزلة الذي يقول : « إن الله لا يقدر على الظلم ولا الشر ، ولو كان قادراً لكنا لا نأمن وقع ذلك ، وإن الناس يقدرون على الظلم ، وصرح بأن الله لا يقدر على إخراج أحدٍ من جهنم وأنه ليس يقدر على أصلح مما خلق » .

**ويردُ الإمام الذهبي :**

« قلت : القرآن والعقل الصحيح يكذبان هؤلاء ويزجرانهم عن القول بلا علم ، ولم يكن

النظام ممن نفعه العلم والفهم وقد كفره جماعة » أ . هـ .<sup>(٢)</sup>

---

(١) هو إبراهيم بن سيار النظام مولى آل العارث بن عباد الضبي البصري المتكلم ، توفي سنة

بضع وعشرين ومائتين من الهجرة .  
انظر سير أعلام النبلاء جـ ١٣ ص ١٢٠ .

(٢) انظر السير جـ ١٣ ص ١٢٠ .

# الفصل الخامس

**معالم منهج الدعوة للإمام الذهبي وتأثر الدعوة به  
ويشتمل على بحثين :**

- **البحث الأول : معالم المنهج الدعوي للإمام الذهبي .**
- **البحث الثاني : تأثر الدعوة بمنهج الإمام الذهبي .**

## الفصل الخامس

﴿ معالم المنهج الدعوى للإمام الذهبى وتأثر الدعاة به ﴾

### المبحث الأول

﴿ معالم المنهج الدعوى للإمام الذهبى ﴾

تمهيد :

تعريف الدعوة لغة :

قال الزمخشري فى أساس البلاغة : الدال والعين والحرف المعتل معناه أن تميل الشئ إليك بصوت أو كلام يكون منك ، تقول دعوت أدعو دعاء ، والدعوة إلى الطعام تكون بالفتح والدعوة إلى النسب بالكسر ، ومنه داعية اللبن وهو ما يترك فى الضرع ليطلب ما بعده ، ومنه تداعت الحيطان إذا سقط واحد وآخر بعده فكان الأول يدعو الثانى ، ودواعى الدهر صروفه لأنها تأتى متعاقبة<sup>(١)</sup> .

وقال الفيومى فى المصباح المنير : دعوت الله أدعو دعاء ابتليت إليه بالسؤال ورغبت فيما عنده من الخير ، ودعوت زيدا : ناديت به وطلبته إقباله ، ودعا المؤذن الناس إلى الصلاة فهو داعى الله والجمع دعاة وداعون ، والنبي داعى الخلق إلى التوحيد<sup>(٢)</sup> .

وقال ابن منظور فى لسان العرب : تداعى القوم : دعا بعضهم بعضاً حتى يجتمعوا ، وتقول رجل داعية إذا كان يدعو الناس إلى بيعة هدى أو ضلالة<sup>(٣)</sup> .

وفى المعجم الوسيط : دعا إلى الشئ : حث على قصده ، يقال دعاه إلى القتال ودعاه إلى الصلاة ودعاه إلى الدين وإلى المذهب : حثه على اعتقاده<sup>(٤)</sup> .

### الدعوة اصطلاحاً :

الدعوة الإسلامية منهج يقوم على بيان الحق والخير والهدى وكشف وسائل الباطل وأساليبه ومنهج الزينغ فيه بكل الطرق والأساليب والوسائل والمناهج التى يجمعها قوله تعالى : "أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن"<sup>(٥)</sup> <sup>(٦)</sup> .

(١) ص ١٣١ ط دار المعارف . بيروت ١٩٨٢م .

(٢) ص ١٩٤ ط دار المعارف . القاهرة ١٩٨١م .

(٣) ج ١٨ ص ٢٨٣ ط بولاق . القاهرة ١٩٤٩م .

(٤) ج ١ ص ٢٩٦ .

(٥) الرعد ١٤

(٦) الدكتور عمارة نجيب . فقه الدعوة والإعلام ص ١٧ ط ١ دار الكتاب الإسلامى ١٩٨٣م .

ويعرفها الدكتور عبد المنعم حسنين بأنها (اسم جامع لسانر وسائل حمل الناس على هذه الرسالة وسانر أساليب التبليغ عن الله ورسوله)<sup>(١)</sup> . بينما يرى الشيخ على محفوظ أنها (حث الناس على الخير والهدى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليفوزوا بسعادة العاجل والأجل)<sup>(٢)</sup> . أما الدكتور محمد السيد الوكيل فيوجز في تعريف الدعوة قائلًا: (هي دلالة الناس على الرشد وتوجيههم للخير ودين الإسلام)<sup>(٣)</sup> .

### تعريف المنهج :

ذكر العلامة الراغب الأصفهاني أن النهج هو التاريخ الواضح ، ونهج الأمر وأنهج : وضع ، قال تعالى : (لكل جعلنا شريعاً ومنهاجاً)<sup>(٤)</sup> وقال الفيومي : النهج : الطريق الواضح والمنهج والمنهاج منه ، ونهج الطريق ينهج نهجاً : وضع واستبان<sup>(٥)</sup> .

وجاء في المعجم الوسيط : انتهج الطريق واستبانته وسلكه والمنهاج الخطة المرسومة ومنه منهاج الدراسة ومنهاج التعليم والجمع منهاج<sup>(٦)</sup> .

### تعريف المعالم :

جاء في المعجم الوسيط : المعلم : العلامة ، والمعلم من كل شئ مظهره ، الجمع معالم ، ويقال : خفيت معالم الطريق<sup>(٧)</sup> .

المقصود بمعالم المنهج الدعوى للإمام الذهبي : مما سبق من تعاريف الدعوة والمنهج والمعالم يمكن القول بأن المقصود بمعالم المنهج الدعوى للإمام الذهبي هو أهم ما يتميز به السبيل الذي سلكه الإمام لبيان الحق والخير والهدى وكشف وسائل الباطن وأساليبه .

### شروط الداعية :

حدد فقهاء الإسلام شروطاً ينبغي توافرها في الداعية حتى يكون قادراً على أداء تلك الرسالة العظيمة ، أهمها :

- ١- فهم الأمر الذي كلف بالدعوة إليه فهماً دقيقاً .
- ٢- أن يكون صورة حية محسوسة لما يدعو إليه .
- ٣- أن يؤمن بقضيته ومبادئها حتى تصدر دعوته عن ثقة واطمئنان فكري وعقدي .
- ٤- أن يكون على علم بعادات المدعوين وطبائعهم .
- ٥- أن يعرف وسائل الإيضاح اللازمة لتوصيل الرسالة إلى المدعو .

(١) الدعوة إلى الله على بصيرة ص ١٣ ط دار الكتاب اللساني ١٩٨٩م .

(٢) هداية المرشدين ص ١٧ ط دار الاعتصام . القاهرة ١٩٩١م .

(٣) أسس الدعوة ص ٩ ط دار المجتمع للنشر والتوزيع ، جدة .

(٤) المائدة ٤٨

(٥) المتراد في غريب القرآن ص ٥٠٦ ط دار المعرفة . بيروت ١٩٨٩ .

(٦) الصباح المنير ص ٦٢٧ ط دار المعارف . القاهرة .

(٧) ج ٢ ص ٩٩٥ .







































































































































